
كتابي
52
سومرست موم
أرواح
هائمة
Looloo
www.dvd4arab.com
المؤسسة العربية الحديثة

أرواح هائمة

(نبيل ماك آدم)

« سومرست موم » وهذه القصص الثلاث !

ليس من شك فى أن انسحاب « سومرست موم » من مجال الإنتاج الأدبى سيخلف فراغا كبيرا . إذ أن « موم » تفرد بأسلوب معين ، ونوع من القصص ، وطريقة لعرض الأحداث وإيراد الحوار فى رواياته ، من العسير أن تجتمع كلها معا فى إنتاج كاتب ما .. كما أن أسفاره ورحلاته ، مكنته من أن ينقل قصصه بين مختلف الأجواء والأصقاع ، بحيث لا يمل القارىء الوفى له ، الذى يحرص على أن يقرأ له كل ما ينتج .. وليس يعزى مثل هذا القارىء سوى أن « سومرست » قد أنتج فى أعوام النشاط من حياته الأدبية ، إنتاجا غزيرا ، وثروة قصصية طائلة : من روايات، وقصص طويلة، وقصص قصيرة ، ومسرحيات .. ولم يدع ركنا فى عالم القصة إلا ارتاده : فمن قصص عاطفية ، إلى جريمة ، إلى قصص وصفية وتصويرية ، إلى مشكلات اجتماعية ، إلى تحليلات نفسية دقيقة . وكثيرا ما كان يجمع لونين أو ثلاثة أو أكثر من هذه الألوان فى القصة الواحدة .. ولعلك قد لمست هذه البراعة فيما قدمه لك « كتابى » من ملخصات لقصص « موم » ومسرحياته ، وفى قصة « الخاطئة » التى قدمتها لك «مطبوعات كتابى » فى رابع أعدادها .

نحو آفاق جديدة ..

ومناسبة اعتزال « موم » الإنتاج ، فرصة خليقة بأن تتطلب تقديم بعض تحفه الرائعة لك ..

ولكن اختيار التحف الجديرة بمثل هذه المناسبة ، لم يكن بالمهمة الميسورة .. فما أكثر ما أنتجته المطابع العربية من روايات « موم » وقصصه . ومع أن ما ترجم منها ترجمة كاملة ، أمينة — لم تمتد إليها يد التحريف أو الاختصار — قلة ضئيلة ، إلا أن اختيار المادة التى تجدها بين يديك — فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » — كان يتطلب البحث عن أنواع جديدة ، متباينة ، تتيح لك تنويعا يدخل شيئا من الجدة والطرافة على ما تقرؤه من مواد قصصية فى العادة .

وكان أول عوامل الجدة والطرافة ، هو الانتقال من الأجواء القصصية التى ألفتها وعرفتها ، إلى أجواء جديدة لم يسبق لك أن ارتدتها ، أو أن صلتك بها حديثة ، لم تتجاوز بعد مجرد الاستطلاع الذى يقف بك عند الحواف ، دون إيغال أو تعمق .. وهنا قفزت إلى الذهن بقاع الشرق الأقصى : حوض المحيط الهادى ، والجزر العديدة المتناثرة بين الساحل الآسيوى الشرقى وقارة استراليا ، وجنوب شرقى آسيا .. فلقد ارتاد « موم » هذه البقاع فى أسفاره العديدة ، وخلال عمله فى « المخابرات السرية البريطانية » .. وفى هذه أو تلك ، كانت حاسته — كأديب وقصصى يسعى إلى التعمق والبحث قبل أن يسعى إلى تشويق القارئ وإمتاعه وتسليته — تطغى على كل اعتبار .

وإذ تم اختيار مسرح الوقائع ، برزت من بين إنتاج « سومرست موم » ثلاث مجموعات ضم فيها أروع ما كتب عن تلك الأصقاع .. وقد ضمت هذه المجموعات أربع عشرة

قصة ، بين طويلة وقصيرة . ولكن أيا من هذه القصص لا تكفى لأن تملأ صفحات عدد كامل من « مطبوعات كتابى » .. وبعملية حسابية صغيرة ، تبين أن لا بد للعدد من ثلاث قصص ، فهل تختار القصص الثلاث من بين الأربع عشرة قصة ، دون مراعاة لتقسيمها بين المجلدات الثلاثة ؟ .. أو تختار بحيث تمثل كل قصة منها مجموعة من هذه المجموعات ؟

وكان لا بد من قراءة القصص الأربع عشرة لاختيار الثلاث المنشودات ، وإذا القراءة تجيب عن ذلك التساؤل ، وتحدد أفضل ثلاث قصص فى تلك المجلدات .. وإذا كل قصة تمثل فعلا مجموعة من المجموعات الثلاث .. من تلقاء ذاتها ، دون تعمد أو تحيز !

وهكذا اختيرت القصص الثلاث !

وهكذا اختيرت القصص الثلاث التى يضمها هذا العدد من « مطبوعات كتابى » .. اختيرت وفقا لعوامل أهمها :

١ — جدة الميدان الذى تدور فيه : ومدى ما أورده « موم » من تفصيلات وصفية تمكنك من أن تزيد معلوماتك العامة . فإن القصة يجب ألا تكون مادة للتسلية وقضاء الوقت فحسب ، وإنما يجب أن تكون — كذلك — وسيلة لتنمية الثقافة والمدارك .

٢ — طرافة المادة : فقد اعتدنا أن تدور القصص حول الحب والغرام ، حتى أخذ الكتاب يكررون موضوعاتهم مع تلوين فى العرض والأسلوب والحبكة ، وحتى ضاق القراء بهذا التكرار الممل .. وهنا تظهر عبقرية « موم » فى ابتكار

موضوعات قصصه .. حتى القصة التى تدور حول الحب ، اختار لها فكرة طريفة ، وعرضا يمكن أن يكون من مظاهر الطابع الفردى لموم كقصاص !

٣ ـ الشفافية : وهـذا تعبير قد يبدو غريبا فى هـذا السياق ، ولكن هذه القصص ـ فى الواقع ـ تشف حقا عن أفكار الكاتب ، وعن أسلوبه ، وعن فنه القصصى .. ثم ـ وقبـل كل شىء ـ عن روح الكاتب وشخصيته . فإن لسومرست موم أن يفخـر بأن روح الكاتب فيه تطغى على ما عداها . والكاتب القصصى الصادق ، هو الذى يعكس فى قصصه الحقائق بصدق لا اصطناع فيه ولا تزييف . وقد حرص « سومرست موم » ـ فى القصص التى نقدمها هنا ـ على أن يصور الحياة فى البلاد التى قضى عليها أن تكون ضحايا للجشع البريطانى .. فى المستعمرات . أو بالأحرى ، حرص « موم » على أن يصور حياة « البيض » المستعمرين فى تلك البلاد التى احتلوها وراحوا يمتصون خيراتها باسم حمل أضواء « الحضارة » و « المدنية » إليها .. وكانت شخصيته الخاصة كانجليزى وموظف فى « المخابرات السرية » ـ لفترة من الزمن ـ تحاول أن تطغى على قلمه ، ولكن شخصيته ككاتب نزيه ، عف ، كانت لا تلبث أن تتغلب فى سياق الوصف ، فتكشف عن كثير من الأمور التى يمر القارىء العادى بها عفوا ، وربما لم يفطن إليها .. ولكن القارىء الباحث المدقق ، الذى لا يقرأ ـ لمجرد التسلية ـ لا يملك سوى أن يتبينها واضـحة ، بعبـارات

صريحة ، تكشف عن زيف المزاعم التى يتعلل بها الاستعمار للبقاء فى تلك البلاد .

على أن مدى كل هذه العوامل التى روعيت فى اختيار قصص هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ـ وهى : جدة الميدان ، وطرافة المادة ، والشفافية ـ لن تبين واضحة تمام الوضوح، إلا حين نتحدث عن كل قصة على حدة ..

القصة الأولى : شاب صالح فى أحضان الغواية !

ولقد اخترت القصة الأولى « أرواح هائمة » ، أو ـ كما اسماها «موم» أصلا ـ «نبيل ماك آدم» NEIL MAC ADAM من مجموعة أطلق عليها اسم « آه كينج » AH KING ، نشرت لأول مرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ثم نشرت للمرتين الثانية والثالثة فى اكتوبر من العام ذاته .. ونشرت بعد ذلك خمس مرات .

وتعد مقدمة هذه المجموعة دراسة ادبية طريفة بصـدد التاليف عن بلاد أجنبية ، فإن كثيرا من كتاب القصة ، يعتقدون ان التاليف معناه التمسك بالجو المحلى ، ولو .. ولو عمد الواحد منهم إلى نقل ما يعجب به من قصص أجنبية يسبغ عليها الجو المحلى ، ويخلع على أبطالها أسماء محلية !! .. ولكن « موم » يذهب إلى أن من حق القصصى أن يضع أحداث قصصه فى إطار من بيئة البلدان التى يزورها ومن أجوائها ـ إذا كان رحالة ـ على شريطة ان يرى أن هذه الأحداث لا يمكن أن تقع فى البيئة والجو اللذين يعيش فيهما عادة ، فى بلاده .. إذ

ان القصة يجب أن تعتمد على البيئة والجو اللذين توجد فيهما الشخصيات التى تقوم بالأدوار فيها !

ثم ينتقل إلى الجزء الذى يهمنا فى هذه الدراسة ، إذ يقول : « وما حاولت فى أى من قصصى — التى من هذا النوع — أن أعالج أبناء البلاد التى اتخذتها مسرحا للوقائع ، إلا بقدر أثرهم فى حياة البيض الذين يعيشون بينهم . ذلك لأن الكاتب الإنجليزى يعانى مشقة فى سبيل الإلمام بالقدر الكافى من المعلومات عن مواطنيه الذين يتعرف عليهم — طوال حياته — بالمشاهدة ، والملاحظة ، والشعور ، وحكم العادة .. فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بأفراد من عنصر آخر غير عنصره إطلاقا ! .. ان الحوافز التى تلهم الرجل الأسمر أو الأصفر فى الحياة، مسجلة فى مجموعة من القوانين لا سبيل للرجل الأبيض إلى استكناه حقيقتها ، ومن ثم فليس بوسعه أن يطمئن إلى أنه يعرض التفسير الحقيقى لتصرف قد يبدو غاية فى البساطة »!

وإذن ، فإن الأمانة الأدبية تجعل « موم » يخشى أن يكتب عن أهالى البلاد التى زارها — إلا فى حدود ضيقة — لأنه لم يعش بينهم بحيث يندمج فيهم ، ويشرب مشربهم ، ويتقمص نشأتهم ، ويكتسب عاداتهم وتقاليدهم ونوازعهم بالقدر الكافى .. ومن ثم فقد اقتصر — فى هذه القصص — على أن يصف « الأثر الذى تطبعه — على نفر من البيض — الحياة التى يحيونها فى بعض البلاد النائية .. فإن البيض فى هذه الأوساط ، كثيرا ما يعمدون إلى تطوير فطرتهم وأمزجتهم الخاصة وصفاتهم إلى درجة تبدو مستحيلة فى غير تلك

الظروف . ذلك لأن العوامل التى تؤثر على أبناء تلك البلاد ، تؤثر عليهم هم أيضا ، فأنت غالبا ما تجدهم مجردين من تلك الصفات المركبة المعقدة التى تجعل شخصيات أولئك الذين يعيشون فى الظروف البراقة المصطنعة — التى تتسم بها الحياة المتمدينة المثقفة — مادة لدراسة لا تنتهى ولا تنضب ! » .

وعلى هدى هذه الآراء ، نرى « موم » يرسم — فى إطار مستمد من بعض بقاع ولايات الملايو — مأساة الزوجة التى تعيش مع زوج منصرف لأبحاثه العلمية .. فهى لا تجد سلوى سوى القراءة والتدخين .. ولكنها ولدت أصلا وفى عروقها دماء حارة ، تتلظى بالنزوات ، ولا تزيدها الروايات سوى سخونة ، ولا تزيدها الثقة العمياء التى يضعها الزوج فى زوجته سوى اندفاع !.. والزوج منصرف إلى بحوثه ، لا يبدو ذكاؤه فى أوج يقظته إلا فى المسائل العلمية ، دون المسائل الدنيوية !

وفى هذه القصة يرسم لنا « موم » شخصية شاب طيب صالح .. بكل ما للطيبة وللصلاح من معنى ، فهو يصر على الاحتفاظ بـ « بكارته » للزوجة التى سيقدر له أن يحظى بها فى المستقبل ، فلا يزيد تمسكه هذا زوجة العالم — وهو فى الوقت ذاته رئيسه — سوى تدلها فى هواه ، وتهافتا على إغوائه .. وهذه شخصية ما كان « موم» ليجد لها وسطا ملائما سوى تلك الأدغال النائية .. فإن الشاب الطيب الصالح الذى يستطيع أن يصمد ضد أعنف الغوايات — فى الأوساط التى نسميها متمدينة — نادر كل الندرة !

القصة الثانية : بين النعرة الاستعمارية والأمانة الأدبية !

لننتقل إذن إلى القصة الثانية : « جبان ؟ ! » ، أو « خيط من الدم الأصفر » THE YELLOW STREAK ، كما أطلق عليها « موم » .. وقد اخترت من بين ست قصص ضمتها مجموعة أسماها الكاتب « شجرة الجزورينا » THE CASUARINA TREE .. وهى تسمية طريفة ، يجدر بك ان تعرف اصلها ، كما ذكره « موم » :

« .. ولكنهم ، يقولون كذلك إنه عندما يتم لأشجار التين البنغالى أن تمتص المياه التى تكون المستنقعات ، حول مصبات الأنهار ، وتغدو الأراضى صالحة للزراعة ، فإن شجرة « الجزورينا » تنبت من تلقاء ذاتها ، فتعمل بدورها على إصلاح التربة وتخصيبها .. فإذا ما أتمت مهمتها ، ماتت قبل أن تزحف عليها طفيليات الأدغال العملاقة . ومن ثم خطر لى أن « شجرة الجزورينا » عنوان لا بأس به لمجموعة من القصص من الإنجليز الذين يعيشون فى (الملايو) و (بورنيو) ، إذ تصورت أنهم — إذ يفدون بعد طلائع الرواد — فيفتحون تلك البلاد للحضارة الغربية، إنما يقومون بمثل دور تلك الشجرة!» .

هنا كان « موم » يكتب وقد تغلبت عليه النعرة القومية .. وكذلك فعل حين حاول أن يصور خسة أولئك الذين جاءوا من آباء من البيض وأمهات من بنات المستعمرات ..

إنها النعرة الاستعمارية الخبيثة ، التى قد يكون الأصل والمتعصب فرضاها على « موم » . ولكن الروح الأدبية الأمينة

تعرف كيف تتسلل خلال هذه النعرة .. فيرسم قلم القصصى صورة للموظفين الإنجليز فى المستعمرات ، وكيف انهم يتزوجون من بنات البلاد ليرضوا شهواتهم ، ثم يتخلوا عنهن وعن اطفالهن فيما بعد .. ان قصص هذه المجموعة « شجرة الجزورينا » مليئة بالأمثال التى تبين هذا الواقع . ثم تغافل الأمانة الأدبية النعرة الاستعمارية ، فترسم صورة واضحة لما يقيمه « رسل الحضارة الغربية » فى المستعمرات من فوارق عنصرية ولونية ، نستطيع أن نلمسها بجلاء فى القلق والهم اللذين جثما على « ايزارت » لوجود دم أسمر فى عروقه !!

القصة الثالثة : هنا تنتصر الأمانة الأدبية !

بقيت القصة الثالثة « الانتصار القاتل » أو « ماكنتوش » MACKINTOSH كما أسماها « موم » .. وقد اخترت من مجموعة أطلق عليها اسم « رجفة ورقة شجرة » THE TREMBLING OF A LEAF وهذه القصة تمثل بحق امانة « موم » ككاتب قصصى وأديب ، سواء كانت هذه الأمانة نابعة عن نفسه ، أو كانت روحه الأدبية تفرضها عليه فرضا !

والذى يقرأ القصة ، لا يملك إلا أن يرى أن الافتراض الأخير هو الأرجح . فإن التعصب للعنصر كان يملى على « موم » أن يحاول تبرير قسوة « ووكر » ، الذى كان مديرا إداريا لإحدى المناطق النائية ، أى بمثابة (مأمور مركز) .. فهو فظ ، جلف ، محب للانتقام من الأهالى إذا غضب عليهم ، محب للتشفى منهم إذا ما أذلهم .. هكذا يصوره « موم » وهو فى تيار الوحى

الأدبى . ثم يفطن إلى ما لهذه الصورة من أثر فاضح للاستعمار البريطانى ، فيبادر إلى تخفيفها ، دون أن يمحوها ـ وهذه أمانة ! ـ فيحاول أن يبرر هذه القسوة بأنها شدة الأب الذى يحب الخير لأبنائه .. ولكن الأمانة الأدبية تعاود التسلط على « موم » . فيصور « ماكنتوش » ـ مساعد « ووكر » ـ وهو يحلل لنفسه مسلك رئيسه ، فيرى أن هذا الفظ لم يكن يحب الأهالى كأبناء ـ كما كان يزعم ـ إلا لأنهم كانوا فى قبضة يده .. كان يحبهم كما يحب الرجل الأنانى كلبه !

إن هذه القصة الأخيرة من أقوى القصص التى كتبها « موم » فى حياته .. لا لشىء إلا لأنها تماثل صراعا قويا ، عنيفا ، فى نفس الكاتب .. تمثل صراعا بين الأمانة الأدبية والنعرة العنصرية !

ونحن لا نملك إزاء ما نلمسه من نوبات هذا الصراع خلال القصة ، سوى أن نعجب بموم .. لأن وجود الصراع فى حد ذاته ، دليل على أن ضميره ما يزال حيا !

براعة فذة فى اختيار الخاتمة

بقيت النواحى الفنية فى القصص الثلاث .. ولن نتناول منها ، فى هذه العجالة ، سوى ناحية واحدة .. ناحية البراعة الفذة فى ابتكار الخاتمة .. ففى قصة « نبيل ماك آدم » : أحاطت الزوجة المفتونة بالفتى العف ، وضيقت عليه الخناق ، وهددته بأكثر مما هددت به زوجة عزيز مصر ، النبى يوسف .. فماذا يفعل ؟.. لم يعد أمامه مهرب البتة ، ولم يبق

سوى أن يستسلم . وهنا يخف « موم » إلى إنقاذ الموقف ، فيضع للقصة نهاية لا يمكن أن تخطر ببال القارىء ، وهو يمضى فى تتبع الأحداث فى سياقها الطبيعى !

وفى قصة « خيط من الدم الأصفر » : يمعن فى تصوير « ايزارت » كجبان خسيس ، وفى تصوير « كامبيون » فى صورة المغدور الذى يتسامح ويتستر على الغادر .. ليكشف فى النهاية أن هذا التستر وذاك التسامح إنما كان مردهما إلى أن « كامبيون » كان يظن فى نفسه أنه هو الذى تخلى عن نجدة الآخر !

وفى قصة « ماكنتوش » : يهيىء الجو بحيث يبدو أن «ووكر» ولا بد مقتول فى ليلة معينة .. ويوقن « ماكنتوش » من ذلك ، فيضطرب ، ويعمد إلى إثبات وجوده فى داره ، بأن يدير لحنا على « الجراموفون » ، ويجلس فى انتظار نبأ الاغتيال ، وإذا « ووكر » يدخل عليه دون ماضر أو بأس .. حتى إذا قتل « ووكر » أخيرا ، ذات مساء ، يتوقع القارىء أن يغتبط « ماكنتوش » لتخلصه من هذا الرئيس الفظ المغرور ، لا سيما وأنه سيخلفه فى منصبه ، ولكن ..؟!

ولكن .. لن نفسد عليك رواء الخاتمة التى ابتكرها « موم » .. ولن نستبقيك بعيدا عن القصص لأكثر من هذا ..



أرواح هائمة

(نبيل ماك آدم)



كان « الكابتن بريدون » رجلا لطيفا دمث الأخلاق . وعندما أبلغه « أنجوس مونرو » — أمين متحف كوالا سولور — أنه نصح « نبيل ماك آدم » — مساعده الجديد — بأن ينزل عند وصوله إلى (سنغافورة) فى فندق « فان دايك » ، وعندما طلب إليه أن يعنى بالفتى حتى لا يصاب بضر — خلال الأيام القلائل التى لابد له من أن يقضيها هناك — قال إنه سيبذل كل جهده .

وكان « الكابتن بريدون » يتولى قيادة السفينة « السلطان أحمد » ، وقد اعتاد أن ينزل دائما فى فندق « فان دايك » عندما يكون فى (سنغافورة) . فقد كان متزوجا من يابانية ، وكان يستأجر غرفة من الفندق ، يتخذها دارا .. فلما عاد من رحلته — التى استغرقت أسبوعين — على طول ساحل (بورنيو) ، أبلغه المدير الهولندى للفندق أن « نبيل » قد وصل منذ يومين . وكان الفتى جالسا فى حديقة الفندق المتربة الصغيرة ، يقرأ أعدادا قديمة من صحيفة « ستريتس تايمز » فتفرس فيه « بريدون » أولا ، ثم تقدم إليه وقال : « الست ماك آدم ؟ » . فهب « نبيل » واقفا ، وقد تضرج وجهه حتى منابت شعره ، ورد بخجل قائلا : « بلى .. » .

— ان اسمى « بريدون » ، وانا ربان السفينة « السلطان أحمد » .. انك ستبحر معى يوم الثلاثاء القادم ، وقد طلب « مونرو » منى أن أرعاك .. فما رأيك فى أن نتناول « استينجا » ؟ .. أحسبك قد عرفت الآن معنى هذه الكلمة !

— شكرا لك ، ولكنى لا أشرب الخمر .

وكانت تشوب حديثه لكنه أسكتلندية صارخة . فقال بريدون : « لست ألومك على هذا ، فكم من رجل طيب تقضى عليه الخمر ، فى هذه البلاد ! » .

ونادى الخادم الصينى ، وأمره بأن يأتى له بكأس مضاعف من الويسكى ، وبعض الصودا . ثم قال لنبيل : « ماذا فعلت منذ أن حضرت إلى هنا ؟ » . فأجاب الشاب : « تجولت فى البلدة » .

— ليس فى سنغافورة الكثير مما يستحق المشاهدة .

— لقد وجدت أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة .

وكان أول ما فعله — بطبيعة الحال — هو أن زار المتحف . ومع أنه لم يجد فيه الكثير مما لم يكن قد شاهده فى بلاده من قبل ، فإن ما كان يحويه من الوحوش والطيور والزواحف والفراشات والحشرات — التى تعيش فى هذه المنطقة — أثار إعجابه ودهشته . وقد أفرد فيه قسم لذلك الجزء من (بورنيو) ، الذى كانت (كوالا سولور) عاصمته . ولما كانت هذه المخلوقات ستشغل القسط الأوفر من اهتمامه فى الثلاث السنوات القادمة ، فإنه فحصها بعناية .. ولكن أشد ما بهره كان خارج المتحف .. فى الشوارع . ولولا أنه كان شابا متزنا رزينا ، لضحك ملء شدقيه فرحا وابتهاجا . فقد كان شيئا جديدا عليه .. وقد ظل يسير حتى كلت قدماه ، فوقف فى ركن من شارع مزدحم ، يرقب بعجب ذلك الصف الطويل من

مركبات « الريكشة » والرجال الصغار الأجسام الذين يجرونها وهم يعدون بخطوات قصيرة . ووقف أيضا على جسر مقام على قناة ، فشاهد القوارب المحلية تنساب فى اتجاهين متعاكسين ، وكأنها أسماك السردين فى علبة . وأطل على المحال الصينية فى شارع (فيكتوريا) ، حيث تباع عدة أشياء غريبة .. ورأى تجار (بومباى) المترهلين الضخام ، يقفون على أبواب محالهم ، وقد حاولوا أن يبيعوه بعض الحرير والمجوهرات . وراقب أبناء عشائر « التاميل » بوجوههم التى تنم عن التفكير والتأمل ، وهم يمشون فى رشاقة مهيبة .. وشاهد العرب ذوى اللحى والطاقيات البيضاء ، وهم يبدون أنفة مترفعة . وكانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة الوهاجة على هذا المنظر المتباين المعالم ، وقد شعر بالارتباك ، وظن أن الأمر يقتضى منه سنوات ريثما يعرف وجهته فى هذا العالم الحافل ذى الألوان المتعددة .

* * *

وبعد أن تناولا العشاء — فى تلك الليلة — سأله الكابتن بريدون عما إذا كان يود مشاهدة البلدة ، وقال له : « خليق بك أن ترى شيئا من الحياة أثناء وجودك هنا ! » .

واستقلا مركبتين من مركبات « الريكشة » وذهبا إلى الحى الصينى . وكان الربان — الذى يمتنع عن شرب الخمر عادة ، وهو فى البحر — قد عوض فى النهار حرمانه ، وأخذ يشعر بالابتهاج . ووقفت المركبتان عند دار فى شارع جانبى ، فهبط الرجلان ، وطرقا الباب . حتى إذا فتح ، اجتازا ردهة

ضيقة ، فوصلا إلى غرفة كبيرة ، صفت الأرائك بحذاء جدرانها — وقد كسيت بقماش أحمر اللون — وجلست عليها بعض النسوة ، بين فرنسيات وإيطاليات وأمريكيات . وكان فى الغرفة معزف ميكانيكى تنبعث منه أنغام موسيقية عالية ، وقد راح نفر قليل يرقصون على وقعها . وطلب الكابتن بريدون بعض الشراب ، فأخذت امرأتان أو ثلاث ينظرن إليهما فى إغراء ، وهن ينتظرن الدعوة . فقال الكابتن فى غير تورع : « حسنا أيها الشاب .. هل تميل إلى واحدة من هؤلاء ؟ » .

— لا !

— هل تعلم أنه لا توجد فتيات من البيض حيث أنت ذاهب؟

فتمتم الشاب : « آه ، حسنا ! » . وعاد الكابتن يسأله : « أتود أن نذهب لترى نسوة من الأهالى ؟ » . وأجاب نيل : « لا بأس ! » . فدفع الكابتن ثمن الشراب وخرجا . وذهبا إلى دار أخرى ، كانت فيها فتيات صينيات صغيرات الأجسام ، أنيقات ، دقيقات الأقدام ، وأيديهن كالأزهار . وكن يرتدين ثيابا من الحرير المزركش برسوم تمثل زهورا . ولكن وجوههن المخضبة كانت أشبه بالأقنعة . وأخذن ينظرن إلى الغريبين بأعين سوداء ساخرة .. وكأنهن من غير البشر ، إلى درجة عجيبة !

وقال بريدون فى لهجة من يؤدى واجبا : « لقد أحضرتك هنا لأننى رأيت أنك خليق بأن ترى المكان . وتكفيك مجرد نظرة على المكان ، فهم لا يحبوننا لسبب ما ، حتى أن بعض هذه الدور الصينية لا تسمح للرجل الأبيض بأن يلجها . وهم

يصفوننا بأن رائحتنا كريهة ، أليس هذا مضحكا ؟!.. انهم يقولون إن رائحتنا أشبه برائحة الجثث ! » . فهتف الشاب : « نحن ؟ » .

— دعنا نرى اليابانيات ، فهن ظريفات ! .. ان امرأتى يابانية كما تعرف ، فتعال معى ، آخذك إلى مكان فيه فتيات يابانيات .. ولن أكون هولنديا إذا أنت لم تجد بغيتك بينهن !

وكانت المركبتان تنتظرانهما ، فاستقلاهما . وأدلى «الكابتن بريدون» إلى السائقين بالاتجاه ، فانطلقا يجران المركبتين .. واستقبلتهما فى الدار سيدة يابانية بدينة ، فى أوسط العمر ، انحنت لهما عند دخولهما ، واقتادتهما إلى غرفة نظيفة ليس فيها من الأثاث غير الحصير على الأرض ، فجلسا . وبعد برهة ، دخلت فتاة صغيرة تحمل صحفة عليها قدحان من الشاى الباهت اللون . وانحنت فى حياء ، وقدمت لكل منهما قدحا . وتكلم الكابتن مع المرأة المتوسطة العمر ، فنظرت إلى نبيل وابتسمت ، وقالت شيئا للفتاة الصغيرة خرجت — على أثره — من الغرفة . وإن هى إلا برهة حتى دخلت أربع فتيات . وكن فاتنات فى زيهن القومى (الكيمونو) ، وشعورهن السوداء اللامعة المقصوصة بمهارة . وكن صغيرات القدود، ملتفات الأعواد ، مستديرات الوجوه ، ضاحكات العيون . وانحنين — حين دخلن — حتى كادت جباههن أن تمس الأرض، وتمتمن بتحيات مهذبة . وكان حديثهن كشقشقة الطيور !.. ثم تقدمن وجثون — كل اثنتين إلى جانبى أحد الرجلين — وأخذن يغازلنهما برقة وحلاوة . وسرعان ما لف الكابتن

بريدون ذراعيه حول الخصرين النحيلين . وراح الجميع يتحدثون فى أتم آيات السرور ! .. وخيل لنبيل أن فتاتى الكابتن كانتا تسخران منه ، لأن أعينهما البراقة تحولت نحوه بخبث ، فاحمر وجهه . ولكن الفتاتين الأخريين التصقتا به ، وراحتا تتحدثان إليه باليابانية ، وكأنه يفهم كل كلمة تقولانها . ولاحتا سعيدتين إلى حد أثار ضحكه .. وكانتا شديدتى العناية به ، فأمسكتا له القدح ليرتشف الشاى منه دون أن يتكبد مشقة حمله فى يده ، وأشعلتا له سيجارة ، ومدت إحداهما يدا بضة صغيرة لتتلقى الرماد فلا يقع على ملابسه ، وأخذتا تربتان وجهه الناعم ، وتنظران فى فضول إلى يديه الكبيرتين .. كانتا لعوبتين كالقطط ! .. وما لبث الكابتن أن قال : « حسنا ، أيهما تفضل ؟ .. اختر لنفسك ! » . فتساءل : « ماذا تعنى ؟ » .

— سأنتظر ريثما تحزم أمرك ، ثم أدبر أمر نفسى !

— لست أريد أيا منهما ، وسأعود لأنام .

— لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟ .. ما أحسبك خائفا ؟

— لا .. كل ما فى الأمر أننى لا أميل لذلك . ولكن لا تدعنى أقف فى طريقك ! .. اننى عائد إلى الفندق .

— إذا لم تكن راغبا فى شىء من هذا ، فلست أريده أنا الآخر . فإنما كنت أبغي أن أجاريك وأونسك !

وتحدث إلى السيدة المتوسطة العمر . والظاهر أن ما قاله حمل الفتيات على أن ينظرن إلى نبيل فى عجب طارىء .. وقد

ردت السيدة على الكابتن ولكنه هز كتفيه ، وهنا أبدت إحدى الفتيات ملاحظة جعلت الجميع يضحكون . فتساءل نبيل : « ماذا قالت ؟ » . وأجاب الكابتن مبتسما : « انها تعابثك لتستدرجك ! » . ولكنه مع هذا رمق نبيل فى استغراب . أما الفتاة ، فبعد أن أضحكتهم ، تحدثت مباشرة إلى نبيل . ولكنه لم يفهم شيئا ، اللهم إلا أن السخرية كانت ظاهرة فى نظراتها ، مما جعل وجهه يتضرج ، ثم يعبس . فما كان ليحب أن يكون موضع سخرية ، غير أن الفتاة ضحكت ، وألقت ذراعها حول عنقه .

وقال الكابتن : « هيا ، لننصرف ! » .. حتى إذا بلغا الفندق ، سأله نبيل : « ما الذى قالته الفتاة حتى جعلت الجميع يضحكون ؟ » . فأجاب : « قالت إنك .. بكر ! » . وإذ ذاك قال الشاب : « لست أرى فى هذا ما يدعو إلى الضحك » .

— وهل هذا القول صحيح ؟ — أظنه كذلك !

— ما عمرك ؟ — اثنان وعشرون عاما !

— وفيم انتظارك ؟ — إلى أن أتزوج !

فصمت الربان .. وعندما وصلا إلى نهاية الدرج ، مد يده وأومضت عينه عندما ألقى على نبيل السلام ، ولكن نبيل واجهه بنظرة صريحة ، صادقة ، لا اضطراب فيها .

* * *

وأبحرا بعد ثلاثة أيام . وكان نبيل الراكب الأبيض الوحيد فى السفينة . وكان يقبل على القراءة عندما يكون

الكابتن مشغولا . وكان يقرأ كتاب « أرخبيل الملايو » لادجار والاس — للمرة الثانية — فقد سبق أن قرأه وهو صبى . ومع ذلك فقد بدا كأنه جديد عليه ، واستأثر بكل اهتمامه . فاذا لم يكن الكابتن منصرفا إلى العمل ، فانهما كانا يلعبان الورق معا ، أو يجلسان على ظهر السفينة يدخنان ويتحدثان .

وكان نبيل نجل طبيب من الأرياف . ولم يكن فى استطاعته أن يتذكر فترة من حياته لم يهتم فيها بالتاريخ الطبيعى .. وعندما انتهى من الدراسة الثانوية ، ذهب إلى جامعة أدنبره ، فحصل فيها على درجة « البكالوريس » فى العلوم ، بمرتبة الشرف . وكان يسعى للحصول على وظيفة معيد فى علم الأحياء ، عندما قرأ فى مجلة « ناتشر » إعلانا عن وظيفة مساعد لأمين متحف (كوالا سولور) . وكان « أنجوس مونرو » — أمين المتحف — قد عاش فى (أدنبرة) مع عمه الذى كان تاجرا من أهل (جلاسجو) ، فأرسل هذا العم إلى « أنجوس » يطلب منه أن يجرب هذا الفتى ، وقال إن نبيل وإن كان مشغوفا بعلم الحشرات ، إلا أنه تدرب كثيرا على تحنيط الطيور والحيوانات ، وهى ناحية ورد فى الاعلان أنها مهمة . كما أرسل شهادات من مدرسى نبيل القدامى ، وقال أن الفتى يجيد لعب كرة القدم ، وأنه كان عضوا فى فريق جامعته ! .. ولم تنقض بضعة أسابيع حتى وصلت برقية بتعيين نبيل . وان هما إلا أسبوعان حتى سافر فعلا .

وسأل نبيل الكابتن : «أى نوع من الرجال المستر مونرو ؟»، فقال : « انه شخص طيب ، والجميع يحبونه ! » .

— لقد اطلعت على رسائله فى المجلات العلمية ، وقد نشرت له رسالة فى العدد الأخير من مجلة « ايبيس » .

— لست أدرى شيئا عن هــذا ، وكل ما أعرفه هو أن له زوجة روسية ، ولكنها غير محبوبة كثيرا !

— لقد تلقيت منه خطابا وأنا فى (سنغافورة) ، قال فيه إنه سيستضيفنى فترة ، ريثما أتمكن من الطــواف بالبلد ، وأتبين ما يمكننى عمله !

وكانت السفينة عندئذ تمخر النهر ، وشوهدت عند مصبه قرية للصيادين قائمة على أعمدة فى وسط الماء ، وقد اكتسى الشاطىء بالنخيل وأنواع أخرى من الأشجار ، امتدت وراءها غابة كثيفة ، وظهر فى الأفق شبح جبل يرتفع إلى الســماء الزرقاء .. وأثار نبيل هذا المنظر ، فأخذت ضربات قلبه تشتد وهو يستوعب هذه الصورة الرائعة بعينيه .. واستولت عليه الدهشة ، إذ كان يتوقع أن يرى أرضا محفوفة بالأسرار ، ولكنه لم يكن يتوقع أن يرى هذه السماء الزرقاء الصـافية ، ولا السحب البيضاء القليلة الظاهرة فى الأفق ، وكأنها أشرعة سفن ساكنة لا حركة فيها ، تتجلى تحت أشعة الشمس .. وكانت الأشجار الخضراء فى الغابة متألقة تحت الضوء الساطع، وقد تناثرت بيوت (الملايو) ذات السقوف المغطاة بالغــاب ، وقبعت فى أحضان أشجار الفاكهة . ورأى نبيل الأهالى فى قوارب صغيرة ، يجدفون وهم وقوف . ولم يخامره أى شعور بأنه اكتئاب ، بل شعر فى هذا الصــباح المشرق بالحــرية ، وأحس بالفضاء الواسع .. وهكذا استقبلته البلاد بترحاب

رائع ، وأدرك أنه سيكون سعيدا فيها . وألقى الكابتن بريدون — الذى كان واقفا فى مركزه فى السفينة — نظــرة ودية على الفتى الواقف تحته .. لقد أحبه خلال الأيام الأربعــة التى استغرقتها الرحلة .. صحيح أنه لم يكن يشرب الخمــر ، ولا كان يستسيغ النكتة ، ولكن جديته هذه كانت تنطوى على شىء جــذاب . فهو يرى كل شىء مهما وممتعــا . وهــذا — بطبيعة الحال — ما كان يحمله على ألا يجد فى النكتة متعة . ولكنه كان يضحك للنكتة — وإن لم يستسغها — لا لشىء إلا لأنه كان يشعر بأنك تنتظر منه ذلك ! .. وكان يضحك لأن الحياة عظيمة ، ويظهر الامتنان لكل شىء تقوله له ، ولو كان تافها .. فهو لا يطلب منك شيئا قط ، دون أن يقول : « أرجوك » ، وهو على الدوام يقول : « أشكرك » ، عندما تعطيه هذا الشىء! .. وكان وسيما ، وهذا ما لم يكن ينكره أحد ! .. ووقف نبيل ويداه على الحاجز ، يتطلع إلى الشاطىء وهو يمر أمامه .. كان طويل القامة — يبلغ مائة وثمانين سنتيمترا طولا — عريض المنكبين ، ذا شعر كستنائى مجعد له بريق غريب يشبه الذهب أحيانا ، عندما يسقط عليه الضوء .. وكانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان تبرقان دماثة ، وتعبران عن هنائه .. كما كان أنفه صغيرا ، وفمه كبيرا ، وذقنه توحى بقوة العزيمة ، ووجهه كبيرا إلى حد ما . ولكن أهم ما كان يجتذب الأنظار إليه هو جسمه — إذ كان ناصع البياض ، ناعمــا — واللون الوردى الذى تميزت به خداه .. وقصارى القول أن جسمه كان جميلا ، جديرا بأن يكون لامرأة . وكان الكابتن بريدون يقابله فى كل صــباح بنكتة لا تتغير : « هل حلقت لحيتك

اليوم ؟ » . فيمر نبيل بيده على ذقنه ، ويقول : « لا .. أظن أنها بحاجة إلى حلاقة ؟ » . فكان الربان يضحك دائما ويقول : « بحاجة إليها ؟! إن لك وجها كعجز الطفل !! » . وكان وجه نبيل يتضرج دائما ، وهو يتمتم متلعثما : « اننى أحلق لحيتى مرة فى الأسبوع ! » .

ولكن شكله لم يكن العامل الوحيد الذى كان يحمل الناس على حبه ، بل كانت هناك أيضا الصراحة والنشاط وغضارة الشباب ، التى كان يواجه بها الدنيا .. ومع كل ما كان عليه من عزيمة ، ومن وقار وجدية فى معالجة كل أمر ، ومن ميل إلى مناقشة كل نقطة تثار ، فقد كان فى أخلاقه شىء من بساطة عجيبة تشيع فى نفسك شعورا غريبا .. ولم يكن فى وسع « الكابتن » أن يدرك كنه هذا الشىء . فكان يقول لنفسه : « ترى أيرجع هذا الشىء إلى أنه لم يتصل قط بامرأة ؟ .. ياله من أمر عجيب ! .. ما كان من المعقول أن تتركه الفتيات وشأنه ، وقد أوتى هذه البشرة ! » .

ولكن السفينة « السلطان أحمد » كانت تقترب من منعرج فى النهر ، تظهر بعده (كوالا سولور) للعيان ، فقطعت الأعمال الضرورية على الربان تأملاته ، إذ اتصل بغرفة الآلات ، فاذا سرعة السفينة تنخفض إلى النصف .. وبدت (كوالا سولور) مستلقية على الشاطىء الأيسر للنهر : بلدة صغيرة بيضاء ، نظيفة .. وفوق تل — إلى اليمين — قامت القلعة وقصر السلطان . وهب نسيم داعب علم السلطان المرفوع على سارية طويلة ، فتحرك فى زهو .. وألقت السفينة مرساها وسط

النهر ، فصعد إليها الطبيب وضابط البوليس اللذان جاءا فى زورق الحكومة . وكان برفقتهما شخص طويل القامة ، نحيل الجسم ، فى ملابس بيضاء . ووقف الربان عند أول الممر ، فصافح الرجال الثلاثة ، ثم تحول إلى الأخير منهم ، وقال : « لقد أحضرت إليك الشاب سالما معافى مفعما بالأمل ! » . ونظر إلى نبيل وقال يقدم الرجل : « هذا هو مونرو ! » .

وبسط الرجل الطويل النحيل يده إلى نبيل ، وتفرس فيه بعين فاحصة ، فاحمر وجه نبيل قليلا ، وابتسم فانفرجت شفتاه عن أسنان جميلة ، وقال : « كيف حالك يا سيدى ؟ » .

ولم يبتسم مونرو بشفتيه وإنما بعينيه الرماديتين .. وكانت خداه غائرتين ، وله أنف أقنى وشفتان شاحبتان ، وبشرة لوحتها الشمس بسمرة شديدة .. وكان الاجهاد يبدو جليا على وجهه . ولكن مظهره كان ينم عن لطف مفرط . فسرعان ما شعر نبيل بالثقة به .. وقدمه الكابتن للطبيب وضابط البوليس ، واقترح أن يتناولوا معا شيئا من الشراب . وعندما جلسوا وأحضر الخادم زجاجات البيرة ، فخلع مونرو القبعة عن رأسه .. ورأى نبيل تحتها شعرا كستنائى اللون ، بدا الشيب يدب فيه .. كان الرجل فى الأربعين من العمر ، هادئا ، رزينا ، يمتاز بطابع عقلى عن الطبيب الحاد الحركة ، وضابط البوليس المزهو بنفسه .

وإذ ملأ الخادم أربعة أقداح بالبيرة ، قال الكابتن : « أن ماك آدم لا يشرب خمرا ! » . فقال مونرو : « هذا خير وأفضل . وأرجو الا تكون قد استدرجته فى طريق الإثم ! » .

فأومضت عين الربان وهو يجيب : « لقد حاولت ذلك فى سنغافورة ، فلم يحدث شىء ! » .

وبعد أن انتهى « مونرو » من شرب قدح البيرة التفت إلى نبيل وقال : « وبعد .. أنهبط إلى الشاطىء ؟ » .. وعهد بمتاع نبيل إلى خادم مونرو ، ثم هبط الرجلان إلى أحد الزوارق المحلية . وإذ بلغا البر قال مونرو : « أتحب أن تذهب رأسا إلى الدار ، أو أن تقوم أولا بجولة .. ان أمامنا ساعتين قبل موعد الغداء ! » . فقال نبيل : « ألا نستطيع أن نذهب إلى المتحف ؟ » .. فابتسم مونرو ابتسامة خفيفة نمت بجلاء عن اغتباطه . وكان نبيل خجولا ، ولم يكن مونرو ثرثارا بطبيعته ، ولهذا سارا فى صمت .. وعند النهر ، رأيا أكواخ الأهالى التى يعيش فيها أهل الملايو عيشتهم الأزلية التى لا تتغير .. وكانوا يعملون ، ولكن فى غير عجلة ، وإن أشعرك ذلك بنشاط عادى مشوب بالسعادة . كان ثمة ما يوحى بالحياة الرتيبة ، التى قوامها الولادة ، والموت ، والحب والأمور العامة التى لا غنى للبشر عنها ! .. ومرا بالأسواق والشوارع الضيقة ذات السقوف المقبوة (البواكى) ، حيث رأيا الصينيين يعملون ويأكلون ، ويتحدثون بأصوات عالية كعادتهم ، ويكدون ويكدحون ويناضلون إلى الأبد .

وقال مونرو : « إنها ليست مثل سنغافورة حقا ، ولكنى اعتقد على الدوام أنها بلدة بهيجة ! » . وكان يتحدث بلهجة أهدأ من لهجة نبيل ، وإن كانت اللكنة الاسكتلندية ظاهرة فيها ، مما أدى إلى ارتياح نبيل ، فما كان بوسعه ان يقصى

عن عقله أن إنجليزية الشعب الإنجليزى مشوهة ! .. وكان المتحف مبنى حجريا جميلا . وإذ اجتازا أبوابه ، اعتدل مونرو ونصب قامته بحركة غريزية .. وأدى الخادم الواقف لدى المدخل التحية ، فتحدث إليه مونرو بلغة الملايو ، مبينا له — على ما ظهر — أمر نبيل ، فقد التفت الخادم إلى الشاب وابتسم ، وأدى له التحية مرة أخرى . وكان الجو فى الداخل رطبا إذا قيس بحر الخارج . كما كان الضوء مريحا بعد الوهج الذى صادفاه فى الشوارع .

وقال مونرو : « أخشى أن يخيب ظنك ، فنحن لم نحصل على نصف ما كان ينبغى أن يكون لدينا ، وما كان يعوقنا إلى الآن سوى الافتقار إلى المال . وكان علينا أن نبذل ما فى وسعنا ، فأرجو أن تتساهل فى الحكم ! » .

وتقدم نبيل وكأنه سباح يغوص مطمئنا فى بحر ، خلال فصل الصيف .. وكانت المعروضات منظمة بشكل يدعو إلى الإعجاب ، لأن مونرو سعى إلى توفير الجو المسلى إلى جانب الناحية التعليمية : فكانت الطيور والوحوش والزواحف معروضة وقد أحيطت — على قدر الإمكان — بالأوساط الطبيعية التى تعيش فيها ، بشكل يوحى بوجود الحياة . وفقد نبيل خجله ، فراح يتحدث فى حماسة صبيانية عن هذا وذاك ، موجها سيلا لا نهاية له من الأسئلة ، وقد استبد به الاهتمام . ولم يشعر الاثنان بمرور الوقت ، حتى لقد دهش مونرو عندما نظر إلى ساعته . فما لبثا أن خرجا من المتحف ، واستقلا مركبتين من مركبات « الريكشة » إلى الدار .



وقاد مونرو الشاب الى غرفة الأستقبال ، فاذا فيها سيدة مستلقية على أريكة ، وهى تقرأ كتابا ..

وقاد مونرو الشاب إلى غرفة الاستقبال ، فاذا فيها سيدة مستلقية على أريكة ، وهى تقرأ كتابا .. ونهضت ببطء عند دخولهما الحجرة ، فقال مونرو : « هذه زوجتى .. أرجو أن لا نكون قد تأخرنا كثيرا يا داريا ! » . فابتسمت السيدة وقالت : «وفيم يهم هذا ؟ .. أهنـاك ما هو أقل قيمة من الوقت ؟ » .

ومدت السيدة يدها إلى نبيل – وكانت يدا كبيرة إلى حد ما – وصوبت إليه نظرة طويلة فاحصة ، ولكنها تنم عن ود . ثم قالت لزوجها : « أظنك كنت تربه المتحف ! » .

وكانت سيدة فى الخامسة والثلاثين ، متوسـطة الطول ، ذات وجه أسمر شاحب ، وعينين زرقاوين . وكان شعـرها – المفروق عند منتصف رأسها ، والمعقود عند أعلى عنقها – غير منسق ، وذا لون بنى شاحب عجيب . أما وجهها فكان كبيرا ، بارز عظام الوجنتين ، مكتنز الأنف بعض الشىء . ولم تكن جميلة ، ولكن حركاتها البطيئة كانت مقترنة بفتنة مثيرة . كما كان فى تصرفاتها تراخ جسدى لا يمكن لغير بليدى الاحساس أن يغفلوه ! .. وكانت ترتدى ثوبا قطنيـا أخضر اللون ، وتتحدث الإنجليزية بإجادة تامة ، وإن كانت تشوبها لكنة خفيفة .

وجلسوا يتناولون طعام الغداء ، وقد عاد الخجل إلى نبيل مرة أخرى . ولكن داريا لم تلحظ ذلك – على ما بدا – فراحت تتحدث بحرية وطلاقة .. سـألته عن رحلته وعن رأيه فى (سنغافورة) ، وحدثته عن الناس الذين سيلتقى بهم ، وقالت

ان مونرو سيأخذه ــ بعد ظهر ذلك اليوم ــ لزيارة المقيم ــ لأن السلطان كان متغيبا عن البلاد ــ ثم يذهب به إلى النادى حيث يقابل كل الناس ! .. واستقرت عيناها الزرقاوان عليه باهتمام ، وهى تقول : « لسوف تغدو شخصية معروفة ! » . ولم يكن من الصعب على أى شخص أقل ذكاء من نبيل أن يلاحظ أنها كانت تبدى اهتماما كبيرا بحجمه ، وفتوته ، وشعره اللامع المجعد ، وبشرته البديعة . فقد استطردت قائلة : « أنهم لا يميلون إلينا كثيرا ! » .

فقال زوجها : « هذا هراء ، وأنت حساسة أكثر مما ينبغى يا داريا ! .. كل ما فى الأمر أنهم إنجليز ! » .

ــ إنهم يرون أن من المضحك أن يكون « أنجوس » عالما ، ويظنون أن من الحطة أن أكون روسية .. ولكن هذا لا يهمنى ، فهم أغبى من رمانى حظى العاثر إلى المقام بينهم وأكثرهم تفاهة وضيق أفق !

ــ لا تزعجى « ماك آدم » فى لحظة وصوله .. لسوف يجدهم كرماء ذوى حفاوة !

وسألت ماك آدم : « ما اسمك الأول ؟ » . فأجابها : « نبيل » . وإذ ذاك قالت : « سأناديك به ، وعليك أن تنادينى باسم داريا ، لأننى أكره أن ينادونى باسم المسز مونرو ، فان هذا يجعلنى أشعر كما لو كنت زوجة وزير ! » .. واحمر وجه نبيل وارتبك . فقد ضايقه أن تطلب منه بهذه السرعة أن يرفع الكلفة فيما بينهما !

.. ومضت هى تقول : « بعض الرجال هنا ليسوا أشرارا ! » فقال مونرو : « انهم يؤدون أعمالهم على خير وجه ، وهذا ما جاءوا إلى هنا من أجله » .

ــ إنهم يصطادون ، ويلعبون كرة القدم والتنس والكريكيت ، وعلاقتى بهم على ما يرام .. أما النساء فلا سبيل إلى احتمالهن ، إذ أنهن غيورات وخبيثات وكسولات .. لا يستطعن التحدث فى شىء ، فاذا طرحت موضوعا أدبيا نظرن إليك بازدراء ، وكأنك شخص غير مهذب ! .. وماذا يملكن أن يتحدثن فيه ؟ .. انهن لا يهتممن بشىء . فاذا أنت تحدثت إليهن عن الجسد ، اعتبرنك وقحا ، وإذا تحدثت عن الروح توهمنك متحذلقا !

وابتسم مونرو وقال بروحه الكريمة السمحة : « لا تأخذن كلام زوجتى بحرفيته ، فان الجالية هنا كأية جالية أخرى فى الشرق ، فهم ليسوا أغبياء جدا ، ولا مهرة جدا ، وإنما هم ودودون رقيقو الحاشية ، وهذا ليس بالشىء القليل ! » . فقالت السيدة : « لست أريد الناس ودودين رقيقى الحاشية ، وإنما أريدهم ذوى حيوية وعاطفة .. أريدهم أن يعنوا بالبشر ، وأن يضفوا على الأمور الروحية أكثر مما يبدون من الاهتمام بكأس من الجن أو طعام مخلوط بالتوابل .. أريد أن يكون للفن والأدب مقام بينهم ! » ثم التفتت إلى نبيل فجأة ، وسألته : « هل لك روح ؟ » . فقال مرتبكا : « لست أدرى .. الواقع أننى لا أعرف ما تعنينه بهذا ! » .

ــ لماذا تضرج وجهك عندما وجهت إليك السؤال ؟ ..

لماذا تخجل من روحك ؟.. إنها أهم ما فيك ، فحدثنى عنها ، لأننى مهتمة بك وأريد أن أعرف !

وبدا لنبيل أن من المحرج أن يعامل بهذه الطريقة من شخص غريب تماما عنه .. أبدا لم يسبق له أن قابل مثيلا لهذه المرأة، فقد كان شابا جادا ، إذا وجه إليه سؤال صريح ، بذل جهدا للإجابة عنه ، وكان وجود « مونرو » هو الذى أربكه ! .. وقال لداريا : « لست أدرى ما تعنينه بكلمة روح .. إذا كنت تعنين كيانا غير مادى أو ذاتا غير مجسدة ، خلقها الخالق على حدة ، لتكون ذات ارتباط مؤقت بالجسم المادى ، فان إجابتى تكون بالنفى .. ويخيل إلى أن هذه النظرية القائلة بازدواج جوهر الشخصية الإنسانية لا يمكن لأى قادر على أن ينظر إلى برهانها نظرة هادئة ، أن يدافع عنها . أما إذا كنت من ناحية أخرى تعنين بالروح مجموعة العناصر الجسدية التى تؤلف ما نعرفه باسم شخصية الفرد ، فإنى إذن أقول أن لدى روحا بطبيعة الحال ! » .

فابتسمت داريا وقالت : « يا لك من رقيق ، وانك لمليح إلى درجة عجيبة ! .. لا ، إنما أعنى القلب بنزواته ، والجسد بشهواته ، والسرمدية التى فينا ! .. الا نبئنى ، ماذا قرأت فى رحلتك ؟ .. أم تراك اكتفيت بلعب التنس على ظهر الباخرة ؟ » .

ودهش نبيل لانتقالها من موضوع إلى آخر فجأة ، وكان خليقا بأن يستاء لولا البشاشة التى ظهرت فى عينيها ، وما كان فى طباعها من بساطة طبيعية خالية من الاصطناع .

وابتسم « مونرو » بهدوء لارتباك الشاب .. وعندما ابتسم ، أصبحت الخطوط الممتدة من جانبى أنفه إلى ركنى فمه عبارة عن غضون وتجعدات ! .. وقال نبيل : « لقد قرأت كثيرا لكونراد » . فتساءلت : « للمتعة أو لصقل عقلك ؟ » . فأجاب : « للأمرين معا ، فأنا معجب به إلى أبلغ حد ! » . وإذ ذاك طوحت داريا بذراعيها فى حركة احتجاج مبالغ فيها ، وصاحت : « هذا البولندى ؟ ! .. كيف تسمحون أيها الإنجليز لأنفسكم بأن يبهرها هذا المتلاعب بالألفاظ ؟ ! .. لقد اجتمعت فيه كل سطحية مواطنيه .. فأنت إذا تعمقت فى التفكير فى هذا السيل المتدفق من الكلمات ، والجمل التى تحمل أكثر من تأويل ، والبلاغة البراقة ، والعمق المصطنع ، فماذا تجد ؟ .. لن تجد غير شىء عادى تافه ! .. إنه أشبه بممثل من الدرجة الثانية ، يرتدى ثوبا شاعريا ، ويلقى كلمات من مسرحية لفيكتور هوجو ، فاذا أنت تقول — فى الدقائق الخمس الأولى — إنها بطولة .. ثم تترد روحك ، فتصيح : لا ، هذا زيف .. زيف .. زيف ! » .

وكانت تتكلم بعاطفة لم يعهدها نبيل من أحد المتحدثين فى الفن والأدب ، وقد شاع الاحمرار فى وجهها — الذى كان يفتقد اللون عادة — وأبرقت عيناها .. فقال نبيل : « ما من كاتب يعرف كيف يهيىء الجو ككونراد ، وفى وسعى أن أبصر الشرق وألمسه وأشم عبيره وأنا أقرأ له ! » .

— هراء ! ماذا تعرف عن الشرق ؟ .. سيقول لك كل امرىء إن كونراد ارتكب أفدح الأخطاء فيما ذكره عن الشرق ! .. سل أنجوس !

فقال مونرو : « من الطبيعى أنه لم يلتزم الدقة فى كل الحالات . فان (بورنيو) التى وصفها ليست هى (بورنيو) التى نعرفها . فلقد شاهدها من فوق سفينة تجارية ، ولم يكن دقيقا فى ملاحظة ما شاهده . ولكن هل لهذا قيمة ؟ .. لست أدرى لماذا يجب أن ندع الحقيقة تشوه الخيال ، ولست أظن أنه ينال من الكاتب أن يخلق من وحى روحه بلادا مظلمة ، غامضة ، ذات جو شاعرى ، وبطولة ! » .

فقالت السيدة : « إنك عاطفى يا عزيزى انجوس ! » .. ثم التفتت إلى نبيل وقالت : « يجب أن تقرأ لتورجنيف .. ويجب أن تقرأ لتولستوى .. ويجب أن تقرأ لدستويفسكى !» .

* * *

ولم يعرف نبيل كيف يحكم على « داريا » ، فقد تجاوزت المراحل الأولى للتعارف ، وعاملته — فى الحال — كأنه شخص عرفته خير معرفة طوال حياتها . وأدهشه هذا ، وحيره ، إذ لاح له أنه سلوك أرعن .. كانت غريزته قد اعتادت أن تتوخى الحذر عندما يلتقى بأى امرىء . ومع أنه كان ودودا ، إلا أنه لم يكن يميل إلى أن يتمادى فى الود قبل أن يتبين الطريق أمامه .. لم يكن يميل إلى أن يمنح أى شخص ثقته قبل أن يتأكد من أن هناك مبررا لذلك .. ولكنك لم تكن تستطيع أن تتمالك نفسك مع « داريا » ، إذ أنها كانت تنتزع ثقتك انتزاعا .. كانت تسكب المشاعر والأفكار التى يحتفظ بها أغلب الناس لأنفسهم ، مثلها فى هذا مثل المسرف الذى يلقى بقطع الذهب وسط حشد من الناس ! .. انها لم تكن تتحدث

ولا كانت تتصرف كما يفعل كل إنسان عرفه من قبل .. ولم تكن تبالى بما تقول ، بل كانت تتكلم عن الوظائف الطبيعية للحيوان الممثل فى الإنسان ، بطريقة جعلت الدم يتدفق إلى خديه ، فأثار بذلك سخريتها ، وقالت له : « يا لك من غر !.. أى عيب فى هذا الكلام ؟.. عندما أريد أن أتعاطى دواء مسهلا، فما الذى يمنعنى من أن أقول ذلك ؟ .. وعندما أعتقد أنك تريد دواء كهذا ، فما الذى يمنع أن أقول لك ذلك ؟ » .

— إنك على حق .. من الناحية النظرية !

وحملته على أن يحدثها عن والده وأمه وإخوته ، وعن حياته فى المدرسة وفى الجامعة . وحدثته عن نفسها .. كان والدها قائدا برتبة « جنرال » ، وقد قتل فى الحرب . وكانت أمها أميرة من أسرة « لوتشكوف » .. وكانوا فى روسيا الشرقية عندما استولى البلاشفة على السلطة ، فهربوا إلى (يوكوهاما)، وعاشوا فيها حياة بؤس وشقاء فباعوا جواهرهم وما استطاعوا أن ينجوا به من تحف .. وهناك ، تزوجت من مواطن لاجىء مثلها ، فلم تسعد معه ، ولم تلبث أن طلقت منه بعد عامين !.. وماتت والدتها ، ثم اضطرت — إذ غدت معدمة — إلى كسب عيشها بجميع السبل التى كانت تملكها .. فعملت فى هيئة أمريكية للغوث، وعملت كمدرسة فى إحدى مدارس الارساليات، واشتغلت فى مستشفى !

وغلى دم نبيل واشتد ارتباكه ، عندما حدثته عن الرجال الذين حاولوا استغلال فرصة ضعفها وفقرها . ولم تخف عنه شيئا من التفاصيل . فقال : « يا للوحوش ! » فأجابته

وهى تهز كتفيها : « آه .. كل الرجال على هذه الشاكلة ! »
.. وذكرت أنها دافعت ــ ذات مرة ــ عن فضيلتها بإشـــهار
المسدس ، ثم قالت : « لقد هددته ، وأقسمت أننى سأقتله
إذا تقدم خطوة واحدة منى .. ولو أنه تقدم لكنت قتلته
ككلب ! » . فهتف نبيل : « يا لله ! » .

ومضت تروى قصـــتها فقالت إنها قابلت « أنجوس » فى
(يوكوهاما) ــ وكان يقضى إجازته فى اليـــابان ــ فأسرتها
استقامته والخلق المهذب اللذان كانا ظاهرين بوضوح فيه .
وأعجبت برقته وحفاوته .. ولم يكن رجل أعمال ، وإنما كان
عالما ، والعلم أخ شقيق للفن . وقد كفل لها « أنجوس »
الســـلام والأمن . وكانت قد تعبت من اليابان ، فبـــدت لها
(بورنيو) أرضا محفوفة بالغموض .. وقد مضى على زواجها
من « أنجوس » خمس سنوات !

وأعطت نبيل روايات روسية ليقرأها .. أعطته : « آباء
وأبناء » ، و « آنا كارنينا » ، و « الأخوة كارامازوف » ..
وقالت : « هـــذه الكتب الثلاثة هى أثمن الذخـــائر فى أدبنا ،
فاقرأها ! .. انها أعظم روايات شهدها العالم ! » .. وكانت
ــ ككثير من مواطنيها ــ تتكلم وكأنما ليس فى العالم أدب آخر ،
وكأن عددا من الروايات والقصص ، وعددا من القصائد ، ونحو
ست من التمثيليات الجيدة ، قد جعلت كل ما أنتجه العالم
من أدب مجرد كم مهمل ! .. وهكذا سحرت نبيل وطغت
عليه .. وقالت له وهى تلقى إليه بنظرات رقيقة ناعمة :
« انك يا نبيل تشبه اليوشا (بطل الأخوة كارامازوف) ..

ولكنك اليوشا اســـكتلندى يتميز بالشـــك والفطنة اللتين
لا تسمحان لروحك .. لا تسمحان لما فى نفسك من جمال روحى
بأن يظهر ويتجلى ! » .

فقال بخجل : « ليس بى أى شبه باليوشا ! » .

ــ إنك لا تعرف من الذى تشبهه ، لأنك لا تعرف شيئا عن
نفسك ! .. لماذا تنصرف إلى دراسة التاريخ الطبيعى ؟ أمن
أجل المال ؟ .. لقد كان فى استطاعتك أن تكسب كثيرا من المال
لو انك اشتغلت فى مكتب عمك المحامى فى (جلاسجو) ! ..
اننى لأحس فيك بشىء غريب .. شىء سماوى ، حتى أننى
لأود أن أخر ساجدة عند قدميك ، كما فعل الأب زوســـيما
إذ ركع أمام ديمترى ، فى « الأخوة كارامازوف » .

فابتسم نبيل ، وإن اكتسى وجهه بالاحمـــرار ، وقـــال :
« أرجو ألا تفعلى ! » .

غير أن الروايات التى قرأها جعلته يراها أقل غـــرابة مما
كانت ، إذ هيأت حولها جوا مكنه من أن يكشف فيها عن خصال
ربما كانت غير مألوفة فى النساء اللواتى عرفهن فى اسكتلندا ــ
وهن أمه وبنات عمه فى جلاســـجو ــ ولكنهـــا كانت ميزات
شائعة بين كثير من شخصيات القصص الخيالية الروسية .
فلم يعد يعجب لحبها السهر والاسراف فى احتساء الشـــاى ،
والاستلقاء على الأريكة طول النهار تقريبا ، وإدمانها التدخين
.. كان بوسعها أن تظل أياما بطولها لا تفعل ســـوى ذلك ،
دون أن تسأم !.. كانت تنطـــوى على خليط من الخمـــول
والحيوية !.. وكثيرا ما كانت تقول ــ وهى تهز كتفيها ــ إنها

شرقية ، وما أصبحت أوربية إلا بمحض المصادفة . وكانت ذات بهاء خداع يوحى بأنها شرقية فعلا . وكانت مهملة للغاية ، فلم يبد أنها كانت تستنكر أن تتناثر أعقاب السجاير ، والصحف القديمة ، والعلب المعدنية الخاوية ، فى جنبات غرفة الجلوس. على أن نبيل خال أن فيها شيئا من « آنا كارنينا » ، فحول إليها العطف الذى شعر به نحو هذه المرأة المثيرة للاشفاق ، إذ فهم كبرياءها : فما كان من الشذوذ أن تنبذ سيدات الجالية اللاتى تعرف عليهن بعد ذلك — شيئا فشيئا — فاذا هن من عامة الناس .. كان عقلها أسرع تفكيرا من عقولهن ، وكانت أكثر ثقافة منهن ، كما أنها أوتيت — فوق ذلك — نوعا من الحساسية الجياشة التى كن يبهتن لها إلى درجة غير عادية، ومع أنها كانت فى المنزل ترتدى « السارونج » و « الباجو » — وهما زى نساء تلك الأصقاع — إلا أنها كانت إذا خرجت مع « انجوس » للعشاء ، تأنقت فى ثيابها بدرجة غير مألوفة هناك . وكانت تحب أن تظهر مفاتن صدرها الكبير وظهرها الجميل ، وكانت تصبغ خديها وتكحل عينيها كما تفعل الممثلات عندما يظهرن على المسرح ! .

ومع أن نبيل كان يغتاظ لتلك النظرات المشغوفة أو المهتاجة التى كان ظهورها يثيرها ، إلا أنه لم يكن يملك سوى أن يرى — فى قرارة نفسه — أن مما يرثى له أن تجعل من نفسها نهبا للأنظار ، وكانت تبدو عظيمة فى الواقع ، ولكنك كنت خليقا بأن ترى أنها ليست جديرة بالاحترام ، إذا لم تكن تعرفها !.. وكان فيها أمور لم يفهمها : فقد كانت ذات شهية عظيمة للأكل ،

وكانت تأكل أكثر مما كان يأكل هو وانجوس معا !.. ولم يكن فى وسعه أن يعتاد الصراحة التى كانت تتوخاها فى مناقشة الشئون الجنسية .. وكانت — من ناحيتها — ترى أن من المؤكد أنه كان على صلات بكثير من النساء فى مسقط رأسه وفى (أدنبره) ، ولهذا أخذت تلح عليه لكى يذكر لها تفاصيل مغامراته . ولكن دهاءه الاسكتلندى ساعده على أن يروغ من إلحاحها ويتهرب من أسئلتها . وكانت تضحك لهذا الاحجام . وكانت تفزعه أحيانا : فقد أخذ يألف الصراحة التى كانت تبدى بها إعجابها بشكله . ولم تكن تتحرك له نأمة عندما كانت تقول له إنه جميل أشبه بإله شاب من آلهة الشمال ، فقد كان الغزل ينحسر عنه كما ينحسر الماء عن ظهر بطة .. ولكنه لم يكن يحب منها أن تمر بيدها — وكانت يدا كبيرا ، ولكنها ناعمة جدا — على شعره ، وتتخلل أصابعها خصلاته برفق . ولم يكن يستسيغ تلك القبلة التى كانت تطبعها على خده وهى تبتسم !.. وحدث يوما أنها أرادت أن تشرب ، فبدأت تصب الماء فى كوب كانت على المائدة ، وإذا نبيل يسرع قائلا : « هذه كوبى ، وقد شربت فيها ! »

— وماذا فى هذا ؟.. إنك لست مصابا بالزهرى ، أليس كذلك ؟

— أنا نفسى أكره أن أشرب من كوب غيرى !

وكانت غريبة الأطوار فيما يتعلق بالسجائر كذلك . فقد حدث مرة أن كان معها ، فأشعل سيجارة ، ولكنها مدت يدها وأخذتها من فمه ، وقالت إنها تريدها . ثم شرعت تدخنها ،

وبعد أن جذبت منها نفسا أو اثنين ، اعادتها إليه وقالت إنها لم تعد ترغب فى مزيد . وكان طرف السيجارة الذى دفعته فى فمها قد اصطبغ بخضاب شفتيها ، فكره أن يدخنها ، ولكنه خاف أن تظنه فظا فى أنه ألقى بالسيجارة ، فأخذ يدخنها تاشمئزاز !.. وكثيرا ما كانت تطلب منه سيجارة ، فاذا قدمها إليها سالته أن يشعلها لها . وعندما يفعل ذلك ويمد يده بالسيجارة ، تفتح شفتيها لكى يضعها بينهما !.. ولم يكن بوسعه أن يمنع طرف السيجارة من أن يبتل من فمه ، فكان يعجب من انها كانت تطيق أن تضعها فى فمها بعد أن كانت فى فمه هو !.. وكان على يقين أن مونرو لا يستسيغ هذا . ولكنها ذهبت إلى درجة أن فعلت ذلك مرة أو مرتين فى النادى، فشعر نبيل إذ ذاك بأن لون وجهه أصبح قرمزيا ، وود لو أنها لم تكن على هذه العادات المستهجنة . ولكنه ظن أنها عادات روسية . ولم يكن فى وسع المرء أن ينكر انها خير رفيقة، فقد كان حديثها مثيرا إلى حد عجيب .. كان — من قبيل التورية — أشبه بالشمبانيا (التى ذاقها نبيل مرة واحدة ولم يستسغها) . ولم يكن ثمة ما تعجز عن الكلام فيه .. وما كانت تتحدث كالرجال ، فأنت حين تتحدث إلى رجل ، تعرف عادة ما سيقوله ، بعد أن تسمع أول حديثه ، أما مع «داريا» ، فما كان بوسعك أن تتنبأ بما توشك أن تقول . وكانت بديهتها رائعة ، فكانت تمنحك آراء ، وتوسع مداركك ، وتثير خيالك .. وقد شعر نبيل بحيوية لم يسبق له أن شعر بها ، وخيل إليه أنه يسير على قمم جبال ، وأن آفاق الروح غير محدودة

.. وأصبح يحس بنوع من الغبطة إذا ما فكر فى المجال العظيم الذى التقى فيه عقله بعقلها .. كانت هذه الأحاديث تجعل من اللذة الحسية المزهوة زبدا تافها !.. واستطاع أن يرى أن المرأة كانت أذكى من صادف من النساء — من وجوه عديدة — مع أن نبيل كان بطبيعته حذرا ، ونادرا ما كان يصدر رأيا — ولو فيما بينه وبين نفسه — ما لم يكن متأكدا منه !

وكانت إلى جانب هذا الذكاء زوجة « أنجوس مونرو » .. ومهما يكن من تحفظ نبيل إزاء « داريا » ، فانه لم يكن يشعر باى حذر من ناحية « أنجوس » !.. وكانت براعتها الفذة خليقة بأن تتضاءل ، إذا هى لم تفد من الإعجاب البالغ الذى كان يكنه لزوجها . فقد كان نبيل يترك نفسه على سجيتها فى حضرة « أنجوس » ، إذ كان يشعر نحوه بما لم يسبق أن شعر به نحو أى شخص آخر . فقد كان « أنجوس » عاقلا ، متزنا ، متسامحا إلى أقصى الحدود ، وهذا هو الطراز الذى كان نبيل يرجو أن يكونه عندما تتقدم به السن !.. كان قليل الكلام ، فاذا تكلم صدر فى حديثه عن عقل راجح . وكان حكيما ، ذا نكتة لاذعة يفهمها نبيل ، وتجعل من المزاح الإنجليزى الذى يصدر عن قلوب رواد النادى عبثا تافها !.. كذلك كان كريما ، صبورا ، له مهابة يستحيل على اى امرىء إزاءها أن يرفع الكلفة معه ، ولكنه لم يكن — مع هذا — متعجرفا ولا متكبرا ، وإنما كان صادقا ، وأمينا . ولم يكن إعجاب نبيل به كعالم يقل عن إعجابه به كرجل . فقد كان واسع التفكير ، دقيقا . ومع أن اهتمامه كان منحصرا فى

البحوث ، فقد كان يؤدى إجراءات العمل اليومية المألوفة فى المتحف بمواظبة وأمانة .

* * *

وكان فى تلك الفترة معنيا بالحشرات العضوية ويعتزم وضع رسالة فى مقدرتها على التوالد العذرى . وقد وقع حادث ذو علاقة بالتجارب — التى كان يقوم بها — كان له أثره البالغ فى نفس (نبيل) . فقد حدث يوما أن أفلت قرد صغير من وثاقه ، وأكل جميع اليرقات التى كانت التجارب تجرى عليها ، فأتلف الدليل الذى كان مونرو يعتمد عليه . وقد كاد نبيل أن يبكى عندما رأى هذا ، ولكن انجوس اكتفى بأن أخذ القرد وابتسم وربت عليه ، وهو يردد العبارة المأثورة عن اسحق نيوتن : « دياموند ! ديامونـد !.. إنك لا تدرى مدى ما أوقعت من تلف ! »

وكان يدرس التقليد والمحاكاة بين المخلوقات كذلك . وقد نقل إلى نبيل عدوى اهتمامه بهذا الموضوع المثير للجدل ، وطالما عقدا محادثات طويلة بشأنه . وقد دهش نبيل لغزارة معرفة أمين المتحف ، الذى بدا كالموسوعة ، مما جعل نبيل يخجل من جهله .. وعندما تحدث مونرو عن رحلاته إلى الريف ، ليجمع عينات من الحشرات لتجاربه ، اشتدت حماسة نبيل ، فقد كانت هذه هى الحياة الحقيقية ، فى رأيه .. حياة المتاعب والصعاب ، التى تقترن بالحرمان فى أغلب الأحيان ، وبالخطر فى بعض الأحيان ، والتى يتمثل الجزاء عنها فى نشوة الحصول على عينات نادرة — أو جديدة ، على الأقل — وفى جمال المناظر ، وتأمل الطبيعة ، وفى الشعور — فوق كل شىء —

بالحرية من كل قيد . وكان هذا الجزء من العمل هو الذى عين نبيل لمباشرته أساسا ، فقد كان مونرو منهمكا فى البحوث بحيث بات من العسير عليه أن يتغيب عن مركزه بضعة أسابيع فى الرحلة الواحدة ، كما أن داريا كانت ترفض على الدوام أن ترافقه ، لأنها كانت تشعر بخوف لا حد له من الغابة ، وكانت تذعر من الوحوش والأفاعى والحشرات السامة ، وكان مونرو لا ينفك يؤكد لها أنه ما من حيوان يؤذيها إلا إذا عاكسته أو أخافته . ولكنها لم تستطع — برغم هذا — أن تتغلب على خوفها الفريزى . ولم يكن يحب أن يفارقها ، إذ أنها لم تكن تهتم بالمجتمع المحلى ، وكان يعلم أن ابتعاده عنها يجعل الحياة فى نظرها مملة إلى حد لا يطاق . ولكن السيد كان شديد الاهتمام بالتاريخ الطبيعى ، وتواقا إلى أن يستكمل المتحف جميع الأحياء فى تلك البلاد . وكان على مونرو ونبيل أن يقوما معا برحلة ، حتى يتعلم نبيل كيف يمضى فى العمل . وقد مكثا أشهرا يدرسان خطط هذه الرحلة . وأخذ نبيل يتطلع إليها كما لم يتطلع إلى أى شىء فى حياته !

وكان — فى تلك الأثناء — قد تعلم لغة (الملايو) ، وألم إلماما سريعا بمختلف الهجمات التى قد تفيده فى رحلته .. كما كان يلعب التنس وكرة القدم .. وسرعان ما عرف كل شخص من أفراد الجالية الأوربية . وكان يطرح عنه العلم والقصص الروسية ، إذا ما نزل ميدان كرة القدم ، فينصرف إلى الاستمتاع بالملعب . وكان قويا وسريعا ونشيطا فى لعبه .

* * *



ولم يكن فى النية أن يقيم نبيل إقامة مستمرة مع مونرو . وقد كانت هناك استراحة رحيبة فى (كوالا سولور) ، ولكن القاعدة كانت تقضى بأن لا يقيم المرء فيها لأكثر من أسبوعين ، فكان الأعزاب يؤلفون جماعات تشترك كل منها فى دار واحدة ، إذ لم تكن لهم مساكن رسمية .. وعندما وصل نبيل ، لم يكن هناك مكان خال فى إحدى هذه الدور . ولكن حدث ذات مساء — بعد أن كان قد أقام فى البلاد أربعة أشهر — أن أخبره « وارنج » و « جونسون » ، بينما كانا يجلسان معه بعد مباراة فى التنس ، أن زميلا لهما فى الدار سيعود إلى بلاده ، وسألاه عما إذا كان يجب أن ينضم اليهما فى المسكن .. وكانا شابين فى مثل سنه ، ومن أعضاء فريق كرة القدم ، وقد مال إليهما نبيل . وكان «وارنج» يعمل فى الجمارك ، و «جونسون» فى البوليس . وقد ابتهج نبيل لهذه الفكرة ، وتقبلها على الفور ، فأبلغاه بنفقات هذه الإقامة ، واتفقا معه على يوم ينتقل فيه إلى الدار ، على أن يكون هذا اليوم بعد أسبوعين .

وأبلغ مونرو وزوجته بهذا النبأ فى وقت العشاء ، قائلا : « إنه لجميل منكما أن أبقيتمانى معكما هذه الفترة الطويلة ، ولكنى كنت على مضض . إذ فرضت نفسى عليكما .. كنت فى أشد حالات الخجل . أما الآن فلم يبق أمامى أى عذر ! » . فقالت داريا : « ولكننا نحب أن تقيم معنا هنا فلست بحاجة إلى عذر ما ! »

— ما أرانى أقيم هنا إلى ما لا نهاية !

— ولم لا ؟.. إن مرتبك ضئيل ، فما جدوى إنفاقه فى

المسكن والمآكل ؟.. ثم إنك لن تلبث أن تضيق بوارنج وجونسون لأنهما غبيان ، ولا يفكران فى شىء غير الانصات إلى « الجراموفون » ، واللعب !

وكان من المناسب حقا أن يعيش الإنسان بغير مقابل ، فقد كان يقتصد الشطر الأكبر من مرتبه . وكان بطبيعته ميالا إلى الاقتصاد ، ولم يعتد التبذير إذا ما لم تدع إليه ضرورة . ولكنه — برغم هذا كله — كان ذا أنفة ، فليس بوسعه أن يعيش على حساب الآخرين . وقد نظرت إليه « داريا » بهدوء ، وبعينين فاحصتين ، وقالت : « لقد ألفناك — أنا وأنجوس — وأعتقد أننا سنفتقدك . ويمكنك إذا أردت أن تدفع نفقات إقامتك معنا .. إنك لا تكبدنا شيئا ، ولكنى على استعداد لأن أتبين — من حساب الطاهى — المبلغ الذى تتكلفه، وتستطيع أن تدفعه إذا كان ذلك يهون عليك الأمور ! » . فأجاب بشىء من التردد : « إن إيواء غريب فى المنزل من الأمور المزعجة ولا بد ! » . ولكنها قالت : « ستكون إقامتك فى تلك الدار مزرية !.. ويالها من قاذورات ، تلك التى يأكلونها ! »

وكان صحيحا أن المرء يأكل عند آل مونرو وجبات لا يجد خيرا منها ، فى أى مكان آخر فى (كوالا سولور) ، وقد عرف نبيل هذا بالتجربة ، إذ تناول طعام عشائه مرات فى دور أخرى — منها دار المقيم — فلم يجد ما هو أفضل من طعام آل مونرو . إذ كانت « داريا » ذواقة للطعام ، حريصة على أن يكون الطاهى بارعا إلى أقصى درجة . فكان يطهو لها الأكلات الروسية التى تغرى بالإقبال عليها ، وكان حساء

الكرنب على مائدتها ، جديرا بأن يسير المرء خمسة أميال ليظفر بنصيبه منه .

وظل مونرو لا يقول شيئا . ولكنه ما لبث أن قال : « يسعدنى أن تبقى معنا . ومن المناسب أن تكون فى عين المكان الذى أكون فيه ، حتى إذا استجد شيء أمكننا أن نبحثه فى وقته .. ان وارنج وجونسون من خير الفتيان ، ولكنك قد تتبين — بعد أن تقضى معهما فترة من الزمن — أنهما محدودا الأفق ! » . فقال نبيل : « آه ، لا بأس إذن ، وسيسرنى البقاء. فالله يعلم أننى لا أريد أحسن من هذا .. كل ما فى الأمر أننى خشيت أن أكون قد أثقلت عليكما ! » .

وهطل المطر فى اليوم التالى ، واشتد إلى حد أصبح من المستحيل معه لعب التنس أو كرة القدم ، غير أن نبيل ارتدى — حوالى الساعة السادسة — معطفا واقيا من المطر — وذهب إلى النادى . ولم يكن هناك أحد غير المقيم ، الذى كان جالسا فى مقعد مريح ، يقرأ إحدى المجلات .. وكان يدعى «تريفليان» ويزعم أنه كان يمت إلى صديق « بيرون » الذى كان يحمل هذا الاسم . وكان طويل القامة ، بدينا ، أشيب الشعر ، ذا وجه كبير أحمر يشبه وجه الممثل الهزلى . وقد كان مغرما بالمسرحيات التى يؤديها الهواة ، وكان أعزب وإن اشتهر بأنه كان ولوعا بالفتيات ، ويحب تعاطى شراب « الجن » قبل العشاء ، ويدين بمنصبه هذا لصداقته للسلطان .. كما أنه كان لطيف المعشر ، محدثا لبقا ، لا يحب العمل كثيرا ، بل يحب أن يسير كل شيء فى يسر وسهولة دون أن يثير أحد أية

مشاكل . ومع أنه لم يكن كفءا ، إلا أنه كان محبوبا من الجميع ، لأنه كان لين العريكة ، مضيافا . والواقع أنه بهذا جعل الحياة مريحة أكثر مما لو أنه كان نشيطا وكفءا :

وإذ وقع نظره على نبيل ، أومأ إليه محييا وقال : « حسنا أيها الشاب ، كيف حال الحشرات اليوم ؟ » . فأجاب نبيل بلهجة جدية : « فى خير حال يا سيدى ! » .

وإن هى إلا بضع دقائق ، حتى دخل «وارنج» و «جونسون» وشخص ثالث ، كان موظفا حكوميا يدعى «بيشوب» . وسألوا نبيل أن يشترك معهم فى لعب « البريدج » ، ولكنه اعتذر . فذهب بيشوب إلى المقيم وسأله : « هل تتكرم بأن تكون رابعنا فى اللعب .. فليس فى النادى اليوم كثيرون » . فنظر المقيم إلى الآخرين ثم قال : « لا بأس . سأفرغ من قراءة هذا الموضوع ، ثم أنضم إليكم ، فابدأوا اللعب وكأننى معكم ، ولن أغيب أكثر من خمس دقائق ! » .. وسار نبيل إلى الرجال الثلاثة ، وقال لوارنج : « بهذه المناسبة ، أشكرك كل الشكر يا وارنج، ولكنى لن أستطيع الانتقال إلى داركم ، لأن مونرو وزوجته سألانى أن أستمر فى الإقامة معهما ! » .. وارتسمت على وجه «وارنج» ابتسامة عريضة وقال : « هذا عجيب ! » . فقال نبيل : « انه لطف بالغ منهما ، أليس كذلك ؟ .. لقد ألحا فى هذا ، حتى أننى لم أستطع الرفض ! » .

فقال بيشوب : « ما الذى قلته لك ؟ » . فأجاب وارنج : « لست ألوم الفتى ! » .. وكان فى مسلك الشابين شيء غريب لم يرق لنبيل . فقد بدا له أنهما كانا يتهكمان ، فاحمر وجهه

وصاح : « عم تتحدثان بحق الشيطان ؟ » . فقال بيشوب : « آه ، لا تغضب .. إننا نعرف صاحبتنا « داريا » ، ولست أنت أول شاب جميل الطلعة تستهويه ، ولن تكون الأخير !» .

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى كانت قبضـــة نبيل قد انطلقت كالبرق ، فأصابت وجه بيشوب ، فسقط على الأرض . وهب جونسون فطوق وسط نبيل ، لأنه كان قد فقد سيطرته على أعصابه ، وأخذ يصيح قائلا : « دعنى ، فسـوف أقتله ما لم يسحب ما قال ! » . وانتبه المقيم إلى الهرج ، فقام متثاقلا ، واتجه نحوهم ليستجلى الأمر وقال : « ما هذا ؟.. ما هذا ؟.. ماذا تلعبون أيها الأولاد ، بحق الجحيم ؟ » .. وبهت الجميع ، إذ كانوا قد نسوا وجوده ، وهو صاحب السـلطان عليهم . فتخلى جونسون عن نبيل ، واستجمع بيشوب نفسه ووقف ، وتجهم وجه المقيم وسأل نبيل : « ما معنى هـذا ؟.. هـل ضربت بيشوب ؟ » ، فأجاب : « أجل يا سيدى » . وعاد المقيم يسأله : « ولماذا ؟ » . وإذ أجاب : « لأنه فاه بعبارة تمس شرف سيدة » ، أبرقت عينا المقيم ولكنه استمر فى حديثـه قائلا : « وأية سيدة ؟ »

فرفع نبيل رأسه عاليا ، وانتصبت قامته ، وقال : « إننى أرفض الإجابة ! »

ولو لم يكن المقيم أطول من نبيل ببوصتين ، وأكبر منـه حجما ، لكان موقف الشـــاب أدعى للارهاب .. وقال المقيم لنبيل : « لا تكن غبيا ! » . فقال جونسـون : « انها داريا مونرو ! » . وإذ ذاك قال المقيم : «وماذا قلت يا بيشوب ؟» .

— لقد نسيت الكلمات التى اســتخدمتها ، ولكنى قلت ما معناه أنها شاركت عددا كبيرا من الشبان الفراش ، وعبرت عن ظنى بأنها لم تفلت فرصة لأن تفعل ذلك مع « ماك آدم » أيضـــا !

— إنه ظن ينطوى على أشد الاهانات ، ويحسن بك أن تعتذر إليه وتصافحه !

— لقد تلقيت لكمة شديدة ، ولن تلبث عينى أن تتورم .. وليلعننى الله إذا أنا اعتذرت عن صدق قلته !

— إنكَ من كبر السن بحيث تدرك أن مجرد صـدق قولك يجعله أبلغ إهانة . أما عن تورم عينك ، فيقال إن قطعة من اللحم النيىء تفيد فى مثل هذه الظروف !!.. وإذا كنت أضع رغبتى فى أن تعتذر ، فى قالب رجاء ، فليس هذا سوى مجاملة وتأدبا ، ولكنها فى الواقع أمر !

وسادت فترة من الصمت ، بدا المقيم خلالها متلطفـــا .. وما لبث بيشـــوب أن قال فى تجهم : « اننى أعتـذر عما قلت يا سيدى » . فقال المقيم : «والآن .. دورك يا ماك آدم !» .

— آسف لأننى آذيته يا سيدى ، وأعتذر أنا الآخر !

فقال المقيم : « فلتتصافحا ! » .. وتصـافح الشـابان فاستطرد المقيم قائلا : « لست أحب أن يتسع هذا الموضوع ، لأنه لن يكون سارا لمونرو الذى نحبه جميعا على ما أعتقـد . فهل أعتمد عليكم فى أن تعقلوا ألسنتكم ؟ » . فقاموا جميعـا

برؤوسهم . ومضى المقيم يقول : « والآن .. انصرفوا ، وابق أنت يا ماك آدم ، فانى أحب أن أزجى إليك بضع كلمات ! » ..

وعندما أصبح الاثنان وحيدين ، جلس المقيم وأشعل سيجارا لنفسه ، وقدم آخر لنبيل ، ولكن هذا اعتذر لأنه لم يكن يدخن غير السجائر .. وقال المقيم مبتسما : « انك شاب عنيف جدا ، ولست أحب أن يظهر الموظفون الذين تحت إمرتى بمثل هــذه المظاهر فى مكان عام » .

ــ إن المسز مونرو صديقة حميمة لى ، وقد أظهرت لى عطفا كبيرا ، فلست أطيق أن أسمع شيئا ضدها !

ــ إننى أخشى إذن أن تضطر إلى أن تنشىء لنفسك وظيفة جديدة تناسبك ، إذا بقيت هنا زمنا أطول .

فصمت نبيل برهة ، ووقف منتصــبا أمــام المقيم ، فارع الطول ، لا يشوب وجهه الجاد سوى أمارات الصــدق .. وطوح برأسه إلى الوراء فى تحــد ، وأظهر الانفعــال لكنته الأسكتلندية أوضح من المألوف ، وهو يقول : « لقد أقمت مع آل مونرو أربعة أشهر ، وأقسم لك بشرفى على أنه ــ فى النطاق الذى يمسنى ــ ليست هناك أية ذرة من الحقيقة فيما قاله هذا الوحش .. فلم تبد المسز مونرو لى معاملة يمكن أن تصفها بأنها منطوية على ود لا مبرر له ، ولم تظهر أية بادرة توحى إلى ــ بالقول أو بالفعل ــ بأن لديها أية فكرة غير بريئة ، وإنمــا كانت لى بمثابة الأم أو الشقيقة الكبرى ! » .. وظل المقيم يراقبه فى تهكم واستهزاء ، ثم قال : « يسعدنى جدا أن أسمع هذا فهو أحسن ما سمعته عنها منذ وقت طويل ! »

ــ أنت تصدقنى يا سيدى .. أليس كذلك ؟

ــ طبعا !.. وربما تكون قد أصلحتها !

ونادى المقيم الساقى ، فطلب منه كأسا من الجن ثم التفت إلى نبيل وقال : « هذا يكفى ، ويمكنك الآن أن تذهب إذا أردت ، ولكنى لا أريد المزيد من العراك ، فحذار ، وإلا أوقعك هــذا فى متاعب ! »

* * *

وعندما سار نبيل عائدا إلى دار مونرو ، كان المطر قد توقف عن الهطول ، وظهرت النجوم فى رقعة السماء المخملية ، وأخذت الفراشات تطير فى الحديقة وتنتقل بين الأزهار ، وتصاعد من الأرض دفء معطر .. مما كان يوحى إليك بأنك إذا توقفت عن السير استطعت أن تسمع حركة نمو الزرع الجميل .. وكانت زهرة الليل البيضاء تبعث فى الجو أريجا شذيا .

وكان مونرو يجلس فى الشرفة منهمكا فى نسخ بعض المذكرات على الآلة الكاتبة ، بينما استلقت « داريا » على مقعد طويل ، وراحت تقرأ .. وكان المصباح المعلق وراءها يلقى ضوءه على شعرها القاتم ، فيكسبه بريقا يبديه كالهالة !.. وعنــدما سمعت خطواته ، وضعت الكتاب جانبا ونظرت إليه وابتسمت ابتسامة مسرفة فى الود . وقالت : « أين كنت يا نبيل ؟ » . فأجاب : « فى النادى » . وعادت تقول : « وهل كان هنــاك أحد ؟ »

وكان المنظر عائليا مريحا ، وفى مسلك « داريا » دعة وطمأنينة يستحيل على الإنسان الا يتأثر بهما ، وقد انصرف كل من الزوجين إلى ما يهمه ، ومع ذلك فقد لاح أنهما متحدان ، وأن ائتلافهما طبيعى إلى حد لا يمكن لأى إنسان أن يتصور معه أنهما غير سعيدين !.. ولم يصدق نبيل كلمة واحدة مما قال بيشوب وما لمح به المقيم ، فقد كانت هذه أمورا لا يقبلها العقل ، وكان هو متأكدا — على أية حال — من أن ماساورهم من ريب نحوه كان بعيدا عن الحقيقة ، فلماذا لا يكون باقى الحديث غير حقيقى كذلك ؟ .. لقد كانت لهؤلاء الناس أفكار خبيثة ، وكانوا أشرارا ، ولهذا فهم يظنون أن كل شخص آخر على شاكلتهم !.. وشعر بألم فى مفاصل أصابعه ، ولكنه شعر أيضا بالاغتباط لأنه آذى بيشوب .. وتمنى لو يعرف من الذى بدأ إذاعة هذه الشائعة الخبيثة ، إذن لدق عنقه !

غير أن مونرو قطع عليه أفكاره ، معينا موعد الرحلة التى بحثا أمرها طويلا . وبدأ — بطريقته الدقيقة — يعد العدة للرحلة ، حتى لا ينسيا شيئا فى المحطة الأخيرة . وكانت الخطة التى رسمها تتمثل فى أن يمضيا فى النهر إلى أقصى ما يستطاع ، ثم يشقا طريقهما خلال الغابة ويسعيا وراء العينات على جبل (هيتام) الذى لا يعرفه الكثيرون . وكانا يتوقعان أن تستغرق الرحلة شهرين . وأخذت روح مونرو المعنوية ترتفع باقتراب موعد الرحيل . ومع أنه لم يكن يتحدث كثيرا — بل ظل هادئا متمالكا أعصابه — إلا أنه لم يكن من العسير على المرء أن يحكم من البريق الظاهر فى عينيه والنشاط الذى دب فى خطواته ،

بمدى تشوقه إلى البدء فى الرحلة .. وبينما كان فى المتحف فى صبيحة أحد الأيام ظهر عليه المرح ، وقال فجأة لنبيل ، بعد أن فرغا من بعض تجارب كانا يجريانها : « لدى أنباء سارة لك .. إن داريا ستأتى معنا ! »

— هل ستأتى حقيقة ؟.. أنه لأمر عظيم حقا !

واغتبط نبيل لهذا النبأ ، بينما قال مونرو :

— إنها المرة الأولى التى تمكنت فيها من إغرائها بمرافقتى . وكم نبأتها أنها ستسر وتستمتع بالترحال ، ولكنها لم تكن تصغى إلى !.. يا للنساء من مخلوقات شاذة !.. لقد يئست من إقناعها ، فلم أسألها المجىء فى هذه المرة ، ولكنها فاجأتنى فى الليلة الماضية برغبتها فى مرافقتنا !

فقال نبيل : « لشد ما أنا مسرور ! » . وأردف مونرو : « لم أكن أستسيغ فكرة تركها وحدها فترة طويلة . أما الآن ، فبوسعنا أن نبقى فى الرحلة أطول فترة نشاء ! » .

وبدأت الرحلة فى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام وقد استقلوا أربعة قوارب ، يقودها بحارة من أبناء الملايو . وكانت الحملة تتألف من خدمهم وأربعة من الصيادين ، من عشائر « الدياك » . وجلس البيض الثلاثة متجاورين تحت السقيفة — فى أحد هذه القوارب — بينما كان الخدم الصينيون و « الدياك » فى القوارب الأخرى . وقد اصطحبوا أكياسا من الأرز لمرافقيهم ، وأطعمة لأنفسهم ، وملابس ، وكتبا . وكل ما كان ضروريا لعملهم .. وما كان أسعدهم حين تركوا المدينة وراءهم ، فاستولى عليهم المرح ، وأخذوا يتحدثون ويدخنون ،

ويقرأون !.. وكانت حركة النهر مهدئة للأعصاب إلى حد رائع .. وتناولوا طعام الغداء على شاطىء مكسو بالحشائش والأعشاب ، حتى إذا كان الغسق ، ألقوا المراسى لقضاء الليل ، وقد ناموا فى دار طويلة ، واحتفل الأهالى بزيارتهم ، فقدموا شراب « العرق » ، وأقاموا حفلة راقصة يقصر عن وصفها الخيال !

وفى اليوم التالى ، أخذ مجرى النهر يضيق ، فزاد فى شعورهم بأنهم مقدمون على المجهول . أما النباتات التى حفلت بها حواف الشاطئين — وكأنها حشد من الناس المتحمسين تدفعهم من الوراء حشود أكبر — فقد فتنت نبيل إلى حد بهر أنفاسه عجبا وغبطة !.. حتى إذا كان اليوم الثالث ، انتقلوا إلى قوارب أخف وزنا ، إذ ازداد المجرى ضحلا والتيار اندفاعا . ولكن التيار اشتد ، فلم يعد فى طاقة البحارة أن يجدفوا ، بل استخدموا المدراة لتسيير القوارب ضد التيار بحركات قوية رائعة . وكانوا بين الحين والآخر يمرون بشلالات ، فينزلون إلى الشاطىء ، ويفرغون القوارب ، ثم يسحبونها خلال ممرات مملوءة بالصخور ..

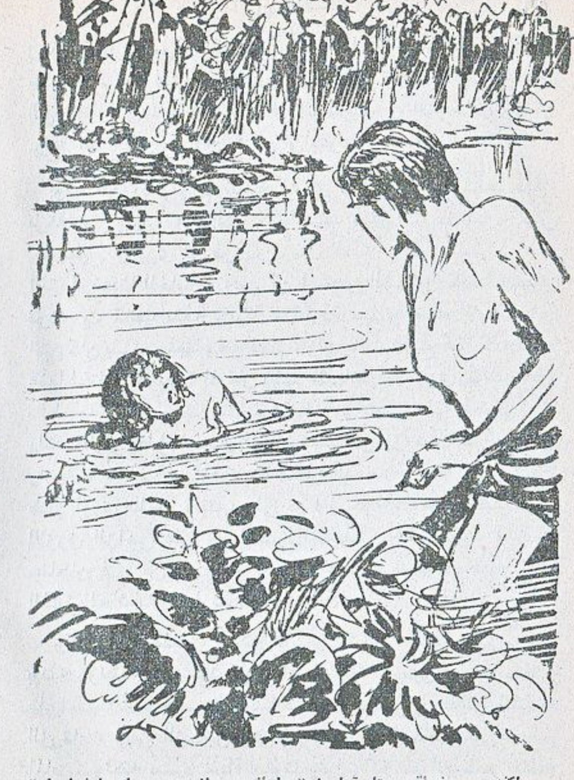
* * *

وفى اليوم الخامس بلغوا بقعة لم يتمكنوا بعدها من التقدم . وكانت هناك دار حكومية فقضوا فيها ليلتين ، قام خلالها مونرو باتخاذ الإجراءات اللازمة ليوغلوا فى داخل البلاد . فطلب حمالين لنقل متاعهم ، ورجالا ليبنوا لهم دارا عندما يصلون إلى جبل (هيتام) . وكان لزاما على مونرو أن يقابل

زعيم قرية مجاورة ، فرأى — اقتصادا فى الوقت — أن يذهب بنفسه إلى الزعيم ، بدلا من أن يستدعيه إليه . ولهذا ذهب إلى القرية فى فجر اليوم التالى لوصولهم ورافقه دليل واثنان من « الدياك » . وكان يتوقع أن يعود فى بضع ساعات .

وبعد أن ودع نبيل رئيسه ، رأى أن يستحم . وكانت هناك بركة غير بعيدة عن الدار ، ينساب فيها الماء صافيا ، حتى لتستطيع أن ترى كل ذرة من رمال القاع . وكان النهر فى هذه البقعة ضيقا للغاية ، حتى أن أشجار الضفتين كانت تتعانق فوقه .. كانت بقعة جميلة ، ذكرت نبيل بالبرك الاسكتلندية التى كان يستحم فيها وهو غلام ، وإن كانت — مع هذا — تختلف عنها اختلافا غريبا ، إذ كان يخيم عليها جو شاعرى، وإحساس بالطبيعة البكر ، مما ملأ قلبه بمشاعر تعذر عليه تحليلها .. ولقد حاول تحليلها — فى الواقع — ولكن رؤوسا أكبر سنا من رأسه ، عجزت عن تعرف كنه هذه السعادة ! .. وكان هناك طائر أزرق اللون ، يقف على فرع شجرة ، وقد انعكس لونه الأزرق الزاهى على ماء الجدول الشفاف . ثم طار ، فاذا له جناحان فى بريق الجواهر . والظاهر أنه فوجىء بظهور نبيل الذى خلع ثيابه ، وارتمى فى الماء !

وكان الماء عذبا ، ولكنه لم يكن باردا . فأخذ يضرب فيه بيديه ورجليه ، مستمتعا بحركة ساقيه القويتين . ثم استلقى على ظهره ، وأخذ يتطلع — خلال الأغصان — إلى السماء الزرقاء ، وإلى الشمس التى كانت ترسل أشعتها على سطح الماء . ولكنه سمع فجاة صوتا يقول : « ما أنصع بياض



ولكنه سمع فجأة صوتا يقول : « ما أنصع بياض جسمك يا نبيل ! »

جسمك يا نبيل ! » . فشهق وانتفض من استلقائه ، وغاص بجسمه فى الماء ، ثم استدار فرأى داريا واقفة على الشاطىء ! ..

وقال : « اسمعى .. ليست على جسدى ثياب ما ! » .

— إننى أرى هذا .. وإنه لأكثر متعة أن يستحم الإنسان بغير ملابس ! انتظر برهـة ، فانى آتيـة إليك ، إذ يلوح الاستحمام ممتعا !

وأخذت تخلع ملابسها ، فأسرع يشيح بوجهه . ثم سمع صوت ارتطام جسمها بالماء ، فضرب الماء مرتين أو ثلاثا ليبتعد فيفسح لها مكانا تسبح فيه بمنأى عنه . ولكنها سبحت نحوه وقالت : « أليس الشعور بالماء على الجسم لذيذا ؟ » .

وضحكت ، وفتحت كفها ناثرة الماء عليه ، فارتبك ولم يدر إلى أية ناحية يوجه نظره ، إذ كان من المستحيل عليه — فى هذا الماء الصافى — ألا يرى أنها كانت عارية من كل شىء . ولم يكن الأمر سيئا وهى فى الماء ، ولكنه لم يتمالك أن يفكر فى الصعوبة التى ستحف بمبارحة الماء . وبدا أن « داريا » كانت منتشية ، إذ هتفت : « لست أبالى بأن يبتل شعرى! » . ثم انقلبت على ظهرها ، وسبحت حول البركة بضربات قوية ، بينما كان نبيل يقول لنفسه إن خير ما يجب أن يفعله — عندما تغادر الماء — هو أن يوليها ظهره ريثما ترتدى ملابسها وتنصرف .. ثم يغادر الماء بعد ذلك .. ولكنها لم تكن شـاعرة بحرج الموقف — فيما بدا — فاغتاظ منها ومن مسلكها غير اللائق وقد ظلت تتحدث إليه وكأنها على البر فى كامل ملابسها ..

بل انها راحت تلفت انتباهه إليها ، إذ قالت : « هل يبـدو شعرى بشع المنظر ؟.. إنه من النعومة بحيث يغدو كذيول الجرذان إذا ما ابتل !.. أمسكنى من تحت كتفى لحظة ، ريثما أحاول أن أعقصه ! » .

— إنه لا بأس به ، ومن الخير أن تتركيه الآن .

— إننى أكاد أموت من الجوع ، فما رأيك فى تناول الفطور ؟

— إذا خرجت من الماء أولا ، وارتديت ملابسك ، فسأتبعك بعد دقيقة واحدة .

قالت : « حسنا » . وسبحت نحو الشاطىء بحركتين من ذراعيها . أما نبيل فقد حول نظره إلى ناحية أخـرى حتى لا يراها وهى تخرج عارية من الماء .. ولكنها لم تلبث أن صاحت : « لست قادرة على الخروج ، فتعال وساعدنى ! » .. فقد كان النزول إلى النهر سهلا ولكن الشاطىء كان عاليا، بحيث يتمين على المرء أن يرفع نفسه بأن يتشبث بغصن شجرة .. وقال نبيل : « لا أستطيع ذلك ، فليست على جسمى قطعة من الملابس » .

— أعرف هذا ، فلا تكن متزمتا كمواطنيك الاسكتلنديين ، بل اخرج إلى الشاطىء ، ومد إلى يدك لتساعدنى على الخروج!

ولم يكن هناك مفر من هذا ، فخرج نبيل وسحبها وراءه . كانت قد تركت ملابسها بجـوار ملابسـه ، فأخذت تجفف جسمها . ولم يسع نبيل إلا أن يحذو حذوها . ولكنه أدار لها ظهره من باب الكياسـة والذوق ، فقالت له : « الحق أن لك

جسدا جميلا للغاية ، فهو أبيض ، ناعم الملمس ، كأنه جسم امرأة !.. إنه لأمر عجيب أن تكون هذه الصفات مقترنة بمثل قوتك وفتوتك .. ثم أنك لم تؤت شعرة واحدة على صدرك !» .
فلف نبيل « السـارونج » — المئزر — حول خصره ، وسلك ذراعيه فى « الباجو » ، ثم سألها : « أعلى استعداد أنت ؟ » .

وظل نبيل بعد الفطور متجهما بعض الشىء .. لقد كانت « داريا » ممعنة فى صبغتها الروسية إلى أبعد مدى . وكان من الغباء أن تتصرف تصرفا كهذا ، لم يكن فيه شىء من الضرر — بطبيعة الأمر — ولكنه كان عين النوع الذى يحمل الناس على أن يظنوا فيها الظنون .. وأسوأ ما كان فى الأمر ، أنك لم تكن تملك أن تنبهها إلى الأمر بأية إشارة ، فانها ما كانت تفعل سوى أن تضحك منك . ولكن الواقع هو أنه لو كان قد قـدر لواحد من أولئك الرجال الذين فى (كوالا سولور) أن يراهما يستحمان سويا وهما عاريان ، لما أفلحت أية حجة فى إقناعه بأنه لم يحدث بينهما شىء غير لائق !.. وقد اعترف نبيل بينـه وبين نفسـه — وبطـريقته المنصفة — بأنه لا يملك أن يلوم أشخاصا كهؤلاء .. كان تصرفها أسوأ ما يكون ، فما كان من حقها أن تزج بشخصى فى مثل هذا المأزق .. وشعر بأنه مغفل، فقد كان المسلك مجافيا للياقة ، مهما يكن رأيك أو حجتك !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، شاهدا الحمالين آتين فى صـف طويل ، وقد حمل كل منهم نصيبه من الأمتعة فى سلة علقت على ظهره ، ووراءهم الخدم والأولاد والصيادون . فانضمـا

إلى هذا الموكب ، وسار الجميع فى طريق يمتد فوق الحواف السفلى للجبـل ، خلال وهاد ومرتفعات تكسـوها أعشاب طويلة . وكانوا يصادفون — بين فترة وأخرى — جداول ضيقة اجتازوها على جسور مصنوعة من الغاب . وكانت الشمس تلفحهم بحرارتها العنيفة . ووصلوا بعد ظهر ذلك اليوم إلى ظلال أجمة من أشجار الغاب ، فكانت متنفسا لهم بعد ذلك القيظ الشـديد . وكان منظـر الغاب رائعا وهو ينتصب فى رشاقة إلى ارتفاعات لا يكاد يصدقها العقل .. وأخيرا ، وصلوا إلى الغابة الكبرى : أشجار ضخمة تلتف حولها النباتات المتسلقة الغزيرة ، وقد تعانقت الفـروع والأغصان ، وخيمت عليهـا الرهبة !.. وشق القوم طريقهم خـلال الأعشاب والنباتات الكثيفة ، ضاربين وسط ظلام خفيف كظلام الغسق ، لا يحظون بلمحة من ضياء الشمس إلا بين آن وآخر ، خـلال الأغصان المتشابكة فوقهم .. ولم يروا إنسانا أو حيوانا ، لأن سـكان الغابة يجفلون عادة لأول صوت لوقع الأقدام ، فيختفون عن الأنظار ! .. وكانوا يسمعون الطيور فى أعالى الأشـجار ، ولكنهم لم يروا منها غير طائر « أبى الزهور » المغرد ، الذى يتنقل بين الشجيرات ويحط على الزهور ليداعبها ويغنى لها .

وما لبث القوم أن حطوا الرحال لقضاء الليل . فأعد الحمالون فرشا من الأغصان بسـطوا عليه قماشا واقيـا من البلل والرطوبة . وأعد الطاهى الصينى العشاء ، فلما انتهوا من تناوله ، تأهبوا للنوم .

وكانت هذه هى الليلة الأولى التى يقضيها نبيل فى غابة ، ولهذا لم يستطع النوم . فقد كان الظلام دامسا ، وأصوات الحشرات التى لا تحصى تكاد تصم أذنيه ، ولكنها كانت أشبه بصوت حركة المرور فى مدينة كبيرة .. صوت مسترسـل ، رتيب ، حتى لقد كان يخيل لنبيل — فى لحظات وجيزة — أنه صمت لا يعكره شىء .. فاذا ما سمع صرخة أطلقها قرد هاجمته أفعى ، أو صياح طائر من طيور الليل ، أوشك قلبه أن يقفز من صدره ، وداخله إحساس خفى ، بأن جميـع المخلوقات المحيطة بهم تراقبهم .. كان هناك صراع وحشى مسـتعر فى جوف الغابة ، وراء نار المعسكر ، بينما كانوا — هم البيض الثلاثة — ينامون على فراشهم المعد من أغصان الأشجار ، لا يملكون دفاعا عن أنفسهم .. كانوا وحيدين أمام أهوال الطبيعة. وكان مونرو بجواره ، وأنفاسه تتردد بهدوء خلال نومه العميق.

وهمست داريا : « استيقظ أنت يا نبيل ؟ » . فأجاب :

— أجل ! ماذا بك ؟

— إننى خائفة .

— ليس هناك ما يخيف .

— الصمت رهيب .. ليتنى لم أرافقكم !

وأشعلت سيجارة .. وما لبث النعاس أن استولى على نبيل ، ولكنه سرعان ما استيقظ على صوت نقر طير « نقار الخشب » وضحكته الرقيقة ، وهو يطير من شجرة إلى أخرى ، وكأنه يسخر منهم !

وبعد أن تناولوا فطورا سريعا – فى الصباح التالى – استأنفت الحملة سيرها . وكانت القردة تقفز بين الأغصان وتتجمع فى ندى الفجر المتساقط من أوراق الشجر ، وصرخاتها الغريبة أشبه بنداء الطير .. وبدد الضوء مخاوف « داريا » ، فإذا بها متيقظة الحواس ، مرحة ، بالرغم من أنها قضت ليلة لم تر فيها النوم . ومضى القوم يتسلقون الجبل حتى وصلوا بعد الظهر إلى مكان مناسب لإقامة معسكر ، وهنا قرر مونرو أن يقيم بيتا. وبدأ الرجال العمل ، فقطعوا بسكاكينهم الطويلة جريد النخيل وأغصان الشـــجيرات ، وسرعان ما أقاموا كوخا من غرفتين ، يرتفع عن الأرض فوق أعمدة من الخشب .. وكان نظيفـــا ، جديدا ، ناضر الخضرة ، زكى العبير .

ولم يكن مونرو وزوجته يشعران بالغربة فى أى مكان : هو بفضل قدم تعوده ، وهى لأنها ظلت سنوات تجوب العالم ، ولأنها أوتيت موهبة القطط فى إراحة نفسها أينما حلت . فان هو إلا يوم واحد ، حتى كانوا قد دبروا كل شىء ، واستقروا ، وأصبح لهم برنامج يومى لا يتغير . ففى الصـــباح الباكر ، كان نبيل ومونرو يخرجان – كل على حدة – لجمع العينات . أما فترة بعد الظهر ، فكانت تقضى فى تثبيت الحشرات فى صناديق ، والفراشات بين صفحات من الورق ، وتحنيط الطيور . حتى إذا حل الظلام ، راحا يتصيدان اليرقات . وكانت « داريا » تشغل بشئون البيت والخدم والحياكة والقراءة ، وتدخن ما لا حصر له من السجائر . ومرت الأيام بهيجة ، رتيبة ، ولكنهـــا حافلة بالأحداث . وكان نبيل مفتونا : ارتاد الجبل من جميع

نواحيه . وعثر فى أحد الأيام على أنواع جديدة من الحشرات العصوية ، فأطلق عليها مونرو اسم «كونيكيوليتا ماك آدم» .. وهذه هى الشهرة بعينها !.. وشعر نبيل – وكان عندئذ فى الثانية والعشرين من العمر – بأنه لم يعش سدى ، ولكن حدث – فى يوم آخر – أن كادت أفعى أن تقتله ، ولكنه نجا بأعجوبة .. لم يكن قد رآها نظرا لخضرة لونها ، ولم ينقذه من عدوانها سوى أحد الصيادين « الدياك » ، وكان يرافقه . فتعاون معه على قتلها ، ونقلاها إلى المعســـكر . وقد ارتجفت « داريا » عندما شاهدتها، فقد كانت تعانى من ذعر – يكاد يكون جنونيا – من وحوش الغابة . ولم تكن تبتعد عن المعسكر أكثر من بضع ياردات ، خوفا من أن تضل الطريق . وقد سألت نبيل – ذات ليلة – عندما كانوا جالسين يتناولون العشاء : « هل أخبرك أنجوس يوما كيف ضل الطريق ؟ » . فابتسم أنجوس وقال : « إنها لم تكن تجربة سارة » . وإذ ذاك قالت داريا : « خبره عنها يا أنجوس ! » .

* * *

وتردد أنجوس برهة ، فقد كانت تجربة يكره أن يتذكرها . ولكنه قال أخيرا : « كان ذلك منذ بضع سنوات ، وكنت قـــد خرجت ومعى شبكة صيد الفراشات . وأسعدنى الحظ فى ذلك اليوم ، إذ حصلت على عينات نادرة ، كنت أبحث عنها منذ زمن طويل . وبعد فترة من الوقت أحسست بأننى جوعان ، فعدت أدراجى . وسرت قليلا ، وهنا طرأ على بالى أننى قد سرت مسافة أبعد من المنطقة التى كنت أعرفها . وشاهدت

فجأة علبة ثقاب فارغة ، ففزعت إذ أدركت أنها عين العلبة التى ألقيتها عندما بدأت فى العودة . وهذا معناه أنى كنت أسـير فى دائرة ، فعدت إلى النقطة التى كنت فيهـا منذ سـاعة !.. ولم يسعدنى هذا بطبيعة الحال ، ولكنى فحصت المكان حولى، ثم بدأت السير من جديد . وكان الجو خانقا ، وقد نضح العرق جسمى .. وظننت أننى اهتديت إلى اتجاه المعسكر ، فأخذت أبحث عن الآثار التى طبعتها قدماى فى مجيئى . وخيل إلى أنى عثرت على علامة أو اثنتين، فانتعش الأمل فى نفسى، وواصلت السير .. وشعرت بظمأ شديد .. ومضيت فى سبيلى مهتديا ببعض النباتات والمعالم الأخرى . غير أنى أدركت فجأة أننى ضللت الطـريق ، إذ لم يكن من المعقول أن أكون قد سرت فى الطريق الصحيح هذه الفترة من الزمن دون أن أصـل إلى المعسكر !.. وأعترف أننى جزعت . غير أنه كان من الواجب أن أتمالك نفسى . فجلست ، وأخذت أفكر فى الموقف .. وكنت أتعذب من العطش ، وقد انقضى الظهر منذ وقت طويل ، ولم يبق على حلول الظلام غير ثلاث ساعات أو أربع . ولم أعجب بفكرة قضاء الليل فى الغابة . وكان الشىء الوحيد الذى هدانى إليه التفكير ، هو محاولة العثور على جدول . فإذا تتبعت مجراه أوصلنى إلى جدول أكبر ، ثم إلى النهر . ولكن هذا كان يقتضى ــ بطبيعة الحال ــ يومين أو ثلاثة أيام ، فلعنت نفسى لغفلتى !.. غير أنه لم يكن أمامى سـبيل آخر ، فعـاودت السير ، حتى إذا قدر لى أن أصادف جدولا ، استطعت أن أشرب وأروى عطشى على أية حال . ولكننى لم أعثر على قطرة ماء فى أية ناحية ، فبدأت أشعر بالخوف . ورأيت أننى سأظل

فى تجوالى هذا إلى أن أسقط إعياء .. وكنت أعرف أن فى الغابة كثيرا من الحيوانات الكاسرة ، وأننى هالك لا محالة إذا صادفت خرتيتا . وكان أدعى الأمور إلى جنونى ، أننى كنت أعرف أننى لم أكن أبعد عن المعسكر بأكثر من عشرة أميال ، فأرغمت نفسى على أن أظل متمالكا قواى العقلية .. وكان النهار قد بدأ يولى ، ويأخذ الظلام ينتشر فعلا فى أعماق الغابة .. وشعرت بالأسف لأنى لم أكن قد حملت معى بندقيـة فكنت أطلقتها ليسمعها من كانوا فى المعسكر فيعرفوا أنى ضـللت الطريق ويبحثوا عنى .. وكانت النباتات كثيفة حتى أنه لم يكن فى استطاعتى أن أرى الأشياء ، على بعد يزيد عن سـت أقدام .. وشـعرت ــ ولست أعـرف أكان ذلك بتأثير الأعصاب المرهفة ، أم لا ــ بأن هناك حيوانا يتسلل بجانبى ، فوقفت ، ووقف هو الآخر .. ومشيت فمشى هو !.. ومع أننى لم أستطع أن أرى شيئا، أو ألمح أية حركة بين النباتات ــ بل ولم أسمع صوت تكسر أى غصن ، أو احتكاك جسم بأوراق الشجر ــ إلا أننى كنت أعرف إلى أى مدى تستطيع هـذه المخلوقات أن تسير دون أن تحدث أى صوت .. وكنت متأكدا من أن شيئا ما يتعقبنى ، فأخذ قلبى يدق بعنف حتى ظننت أنه يكاد ينفجر ، وشعرت بخوف شديد ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من العدو إلا باستخدام كل ما لدى من قدرة على ضبط النفس . فقد كنت أعرف أننى أقضى على نفسى بالهلاك إذا عدوت ، إذ لم يكن ثمة معدى من أن أتعثر فى جذع شجرة فأسقط على الأرض ، وعندئذ ينقض الحيوان على .. ولو أننى عمدت إلى الجرى ، لما كان ثمة من يعلم غير الله إلى أين أذهب !..

وشعرت بأن على أن أتمالك قواى .. وأحسست بأننى أكاد أبكى . هذا فضلا عن ذلك العطش غير المحتمل ، الذى كنت أشعر به .. أبدا لم يتملكنى الخوف كما تملكنى إذ ذاك !.. وصدقنى إذا قلت إننى لو كنت أحمل مسدسا ، لأطلقته على رأسى . فقد كان الموقف رهيبا ، فلم أكن أصبو إلى أكثر من إنهائه . وكنت تعبا بحيث لم أعد أقوى حتى على الترنح !.. ولو كان لى عدو أصابنى بإساءة قاتلة ، لما تمنيت له العذاب الذى عانيته إذ ذاك !.. وفجأة ، سمعت صوت طلقتين ، فسكن قلبى !.. إذن فهم يبحثون عنى ؟!.. وهنا فقدت صوابى ، فرحت أعدو فى اتجاه الصوت وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. وسقطت على الأرض ، ولكنى نهضت واقفا ، وواصلت العدو ، وظللت أصرخ حتى خيل إلى أن رئتى ستنفجران .. وسمعت صوت طلق آخر ، أقرب من الطلقتين السابقين، فعاودت الصراخ .. وإذا بى أسمع صراخا يجيبنى، كما سمعت جلبة تدافع بعض الرجال خلال النباتات .. وسرعان ما رأيت نفسى محاطا بصيادين من « الدياك » ، أخذوا يشدون على يدى ويقبلونهما .. وكانوا يضحكون ويبكون فى وقت واحد ، فكدت أبكى أنا أيضا .. وسقطت فاقد الوعى ، ولكنهم أعطونى بعض الشراب . ولم نكن نبعد بأكثر من ثلاثة أميال عن المعسكر .. وكان الظلام حالكا عندما عدنا إليه !.. لعمرى ، لقد كانت تجربة جعلتنى أقرب ما أكون إلى الهلاك !»

وسرت فى جسد «داريا» رعشة قوية ، بينما أردف زوجها: « صدقانى إذا قلت إننى لا أود أن أضل طريقى فى الغابة مرة

أخرى ! » . فسأله نبيل : « وماذا كان يحدث لو أنهم لم يعثروا عليك ؟ » .

— أستطيع أن أخبرك بهذا : كنت أجن ! .. وإذا لم تلدغنى أفعى ، أو يهاجمنى خرتيت ، كنت أمضى متخبطا إلى أن أسقط إعياء .. أو أموت جوعا أو ظمأ .. ولا تلبث الوحوش أن تنهش جسمى ، وينظف النمل عظامى من البقايا التى تخلفها الوحوش !

وران عليهم — بعد هذا الحديث — صمت ممض !

* * *

وحدث بعد أن قضوا قرابة الشهر على جبل (هيتام) ، أن أصيب « نبيل » بالحمى ، برغم « الكينين » الذى حمله مونرو على أن يتعاطاه بانتظام ، ولم تكن الإصابة شديدة ، ولكنه حنق على نفسه لاضطراره إلى ملازمة الفراش .. وتولت داريا تمريضه ، فخجل من نفسه لأنه أتعبها . ولكنها لم تكن تصغى إلى اعتراضاته .. وكانت — فى الواقع — ذات كفاءة بالغة !.. وزاد من ضيق نبيل أن اضطر إلى أن يسمح لها بأن تؤدى له أشياء كان بوسع الخدم الصينيين أن يؤدوها عنها ، ولكنها ظلت ترعاه رعاية تامة . وعندما بلغت الحمى أقصى عنفوانها ، راحت تغسل جسمه بالماء البارد بقطعة من الاسفنج ، فكان يشعر لذلك براحة لا سبيل إلى وصفها ، ولكنه كان يشعر بحرج شديد كذلك . بيد أنها أصرت على أن تغسل له جسمه فى الصباح مرة ، وفى المساء أخرى . وكانت تقول له:

« إننى لم أمكث فى المستشفى البريطانى فى (يوكوهاما) ستة أشهر ، دون أن أتعلم أبسط مقتضيات التمريض .. على الأقل ! » .

وكانت تقبله فى فمه فى كل مرة ، بعد أن تنتهى من غسل جسمه . وكانت هذه مودة وتلطفا منها استعذبهما ، ولكنه لم يضف عليهما أهمية تذكر ، بل إنه تمادى إلى أكثر من ذلك ، فعلق على الأمر بدون حياء ، وهو شىء نادر منه . فقد سألها يوما : «هل اعتدت دائما أن تقبلى مرضاك ، فى المستشفى ؟» . فابتسمت وقالت : « أو لست تحب أن أقبلك ؟ » . وأجاب : « لا يضيرنى هذا » . فقالت بتهكم : « لعله يعجل بشفائك ! » .

وحلم بها فى إحدى الليالى ، فاستيقظ فجأة والعرق يكسو جسمه . وشعر بأن درجة حرارته هبطت ، وأن حاله قد تحسنت . ولكنه لم يهتم بذلك ، لأن ما رآه فى المنام ملأه بالخجل .. واستولى عليه الفزع ، لأن مجرد توارد هذه الأفكار على رأسه ــ ولو فى النوم ــ أثار أساه ، إذ أحس بأنه وحش فاسق !.. وكانت تباشير النهار قد بدأت تنبثق . وسمع « مونرو » يستيقظ فى الغرفة المجاورة ــ التى كان يشغلها وزوجته ــ وكانت داريا قد نامت فى ساعة متأخرة ، فحرص مونرو على ألا يزعجها .. وعندما مر بغرفة نبيل ، هتف به بصوت خافت : « هالو ! .. أمستيقظ أنت ؟ »

ــ أجل لقد عاودتنى النوبة ، ولكنى تحسنت الآن .

ــ حسن .. يحسن بك أن تبقى فى الفراش اليوم ، وستصبح غدا فى أكمل صحة .

ــ أرجو أن ترسل إلى « آه تان » بعد أن تتناول فطورك .

* * *

وسمع مونرو عندما غادر الدار .. ثم جاء الخادم الصينى ، فطلب نبيل منه ما كان يبغى . وإن هى إلا ساعة حتى استيقظت داريا، فجاءت إليه ، والقت بتحية الصباح . ولكنه لم يستطع التطلع إليها .. وقالت له : « سأتناول فطورى ، ثم آتى لأغسل لك جسمك » . ولكنه أجابها : « لقد اغتسلت .. استعنت بآه تان على ذلك » . فهتفت متسائلة : «ولماذا؟» . وكان جوابه : « إنما أردت أن أعفيك من هذه المشقة ! » .

ودنت من الفراش ، وانحنت لتقبله ، ولكنه حول رأسه بعيدا عنها ، وقال : « أرجو ألا تفعلى ! » . فتساءلت فى عجب : « ولماذا ؟ » . فتمتم : « أنه عمل سخيف ! » .. وتفرست فيه برهة وهى مأخوذة، ثم هزت كتفيها وتركته . ولكنها لم تتغيب كثيرا ، بل عادت إليه لترى ما إذا كان بحاجة إلى شىء . وإذا به يتظاهر بالنوم . فربتت على خده برقة ، ولكنه هتف بها : « بالله لا تفعلى هذا ! » .

ــ ظننتك نائما !.. ماذا بك اليوم ؟

ــ لا شىء !

ــ لماذا تعاملنى بجفاء ؟.. هل فعلت ما ساءك ؟

وأجاب باقتضاب : « لا » . ولكنها ألحت قائلة : « نبئنى بما هناك ! » ..

وجلست على الفراش ، وأخذت يده ، فحول وجهه نحو الحائط وقد بلغ منه الخجل حدا جعله لا يستطيع كلاما . ولكنه تمالك نفسه وقال : « يبدو أنك نسيت أننى رجل ، فماذا بك تعاملينني كصبى فى الثانية عشرة ! » .

وغمغمت : « آه ! » ، ثم سكتت . وأخذ وجهه يشتد احمرارا ، وقد غضب على نفسه واغتاظ منها .. كان خليقا بداريا أن تكون أكثر لباقة !.. ولم تلبث قبضتاه أن شدتا على الغطاء بعنف ، وقال : « اننى أعرف أن ليس لمسلكك أى معنى لديك ، وأنه ينبغى أن يكون كذلك لدى .. والحق اننى لا أرى له تأويلا ، عندما أكون مستيقظا ، ولكن المرء لا يستطيع شيئا مع أحلامه ، وإن كانت الأحلام دليلا على ما يدور فى العقل الباطن ! » .

ـــ هل حلمت بى ؟ .. وماذا لو كان هذا قد حدث فعلا؟.. لست أرى فيه أى ضير !

وحول وجهه ، ونظر إليها .. كانت عيناها تتألقان بريقا ، بينما كانت عيناه هو مفعمتين بالانقباض وتبكيت الضمير .. وقال لها : « انك لا تعرفين الرجال ! » . فانفجرت ضاحكة، وانحنت فوقه، وطوقت عنقه بذراعيها، وهى تقول : « أخبرنى أيها الحبيب عن حلمك ! » .. وفوجىء بحركتها هذه ، فكاد يجن ، ودفعها جانبا بعنف ، وقال : « ماذا تفعلين .. أمجنونة أنت ؟! » . وقفز من فراشه فقالت :

ـــ ألا تعرف أننى أحبك حب الجنون ؟

فهتف مبهوتا : « عم تتحدثين ؟ » . وجلس على جانب الفراش ، والارتباك ظاهر عليه بوضوح . فضحكت وقالت : « وماذا تظننى جئت أفعل فى هذا المكان المرعب ؟.. إنما جئت لأكون معك يا حبيبى !.. ألا تعلم أننى أموت رعبا من الغابة؟ .. اننى خائفة من أن تكون هناك أفاعى أو عقارب أو أى شىء آخر .. حتى فى هذا البيت ، ولكنى .. أعبدك ! » . فقال بحدة : « ليس لك أن تتحدثى لى هكذا ! » . فابتسمت قائلة : « لا تكن متزمتا ! » .. فقال متعجلا : « لنخرج من هنا ! » .

وخرج إلى الشرفة فتبعته . وألقى بنفسه على مقعد ، فجثت إلى جانبه وحاولت أن تمسك يديه ، ولكنه سحبهما قائلا : « أرى أنك لا بد مجنونة ، وأضرع إلى الله ألا تكونى قد عنيت حقيقة ما قلت ! » . فقالت مبتسمة : « بل أعنى كل كلمة قلتها ! » .. وضايقه أنها لم تبد أى إدراك لفظاعة اعترافها ، فقال : « أنسيت زوجك ؟ »

ـــ وماذا يهم من أمره ؟.. ان أنجوس لم يعد يهمنى فى شىء!

فظللت وجهه الناعم سحابة من العبوس وقال ببطء : « أخشى أن تكونى امرأة سوء ! » . فضحكت باستهزاء ، وقالت : « الأننى وقعت فى حبك ؟.. ما كان يجب أن تكون بهذا الجمال يا حبيبى ! » .

ـــ لا تضحكى برب السماء !

ـــ لا أستطيع ، فأنت مضحك .. ولكنى أعبدك مع هذا ! ..



إننى أحب جسمك الأبيض ، وشعرك اللامع !.. احبك لأنك جامد ، واسكتلندى ، ولا تعرف المجون !.. أحب قــوتك ، واحب شبابك !

***

وأومضت عيناها ، وتسارعت أنفاسها ، وانحنت فقبلت قدميه العاريتين ، فسحبهما بسرعة وهو يصيح محتجا ، فكاد فى حركته العنيفة أن يقلب المقعد ، وقال : « انك لمجنونة أيتها المرأة ، الا تشعرين بالخجل ؟ » .. وأجابته : « لا ! » .

ـــ ماذا تريدين منى ؟

ـــ الحب !

ـــ أى نوع من الرجال تحسبيننى ؟

فأجابت بهدوء : « رجل .. كبقية الرجال ! » .

ـــ وهل تظنين ، بعد كل ما فعله « أنجوس مونرو » معى ، أن بوســعى أن أكون ذلك الوحش اللعين الــذى يعبث مع زوجته ؟.. اننى معجب به أكثر من إعجابى بأى شخص آخر عرفته . فهو عظيم ، وهو يقدر بعشرة من أمثالى وأمثالك معا .. إننى لأوثر أن أقتل نفسى عن أن أخونه . ولست أدرى كيف تظنين أن بوسعى أن أقدم على عمل دنىء كهذا الــذى تريديننى عليه !

ـــ أواه يا عزيزى ، لا تتحدث بمثل هذا الهراء !.. بماذا يضره هذا ؟.. ما ينبغى لك أن تأخذ المسألة بهذا الجد ، فان

الحياة جد قصيرة ، ونحن أغبيــاء إذا لم نقتنص كل فرصــة يمكن أن نستخدمها للسرور !

ـــ لن تستطيعى بهذا الكلام أن تقلبى الخطأ صوابا !

ـــ لست أعرف شيئا عن هذا ، وما أرى إلا ان قولك موضع جدال !

فنظر إليها مذهولا .. كانت جالسة عنــد قدميه ، وهى متمالكة نفسها . وبدا أنها كانت مستمتعة بالموقف، غير شاعرة بما كان يشعر به من جدية !.. وما لبث أن قال : « أتعرفين أننى ضربت فتى فى النادى ، لأنه ألقى ملحوظة مهينة عنك ؟ » .

ـــ ومن هو ؟

ـــ أنه بيشو .

ـــ يا له من كلب قذر !.. وماذا قال ؟

ـــ قال إنك كنت على علاقات ببعض رجال !

ـــ لست ادرى لماذا لا يعنى الناس بشئونهم ؟.. ومع ذلك، فمن ذا الذى يأبه لما يقولون ؟.. انى أحبك ، ولم يسبق لى أن أحببت أحدا مثلك .. اننى لمجنونة فعلا بحبك :

ـــ هدئى من تهورك !.. اهدئى !

ـــ أسمع !.. عندما ينام « أنجوس » الليلة ، سآتى إلى غرفتك !.. أنه ينام كصخره ، فلا خطر يخشى منه :

ـــ لا تفعلى !

ـــ ولم لا ؟



فهتف : « لا ، لا ، لا ! » .. وشــعر بخوف شــديد .. وفجأة ، هبت « داريا » واقفة ، واندفعت نحو البيت!

* * *

وعاد مونرو عند الظهر ، فانهمك نبيل معه فى العمل خــلال فترة ما بعد الظهيرة .. واشتركت « داريا » معهما كما اعتادت أن تفعل أحيانا . وكانت مرحة حتى لقد ظن مونرو أنها بدأت تستمرىء الحياة فى هذه البقعة . وقد اعترفت فعلا بهـذا ، حينما قالت : « ان الحياة ليست رديئة إلى هذا الحد ، وانى لأشعر اليوم بالسعادة ! » .

وكانت تغيظ نبيل بقولها ، وهى تبدو كما لو كانت لا تفطن إلى أنه كان صامتا وكان يحـاول أن يبعد نظره عنها . وقال مونرو : « ان نبيل هادىء للغاية ، وأحسب أنه ما يزال يشعر ببعض الضعف ! » .

ـ لا .. ولكننى لا أشعر بميل كبير للكلام .

كان فى حيرة من أمره ، فقد كان يوقن من أن « داريا » قادرة على أن تفعل أى شىء . وتذكر ذلك التهـور الجنونى الذى اتسمت به « ناستاسيا فيليبوفنا » ـ بطلة قصة « الغبى » ـ فشعر بأنها قادرة على أن تتصرف هى الأخرى بتلك الرعونة التعسة .. ولقد رآها ـ أكثر من مرة ـ تحتد على الخدم الصينيين ، فعرف إلى أى مدى تفقد سيطرتها على أعصابها. ولم تكن المقاومة تؤدى إلا إلى إمعانها فى الحنق ، وما لم تحصل نورا على بغيتها ، فانهـا كانت تذهب فى الغضب إلى حـد

الجنون . ولكنها ـ لحسن الحظ ـ كانت تفقد فجأة اهتمامها بالشىء بعين السرعة التى تهفو بها إليه . ولو انك استطعت أن تحول انتباهها برهة ، لنسيت كل شىء عن هذا الشىء . وفى مثل هذه المواقف ، كان نبيل يزداد إعجابا بلباقة مونرو . وكان غالبا ما يشعر بسرور خبيث حين يشهد الدهاء الرقيق الذى يستخدمه مونرو ليهدىء من قوة غضبها النسوى .. وكان سخط نبيل عليها يزداد بقدر حبه لمونرو .. لقد كان قديسا رفعها من وهاد المهانة والادقاع ، ليتخذها لنفسه زوجة . فهى تدين له بكل شىء ، إذ حماها باسمه ، فاكتسبت الاحترام .. ولعل ابسط عرفان بفضله كان كفيلا بأن يجعل من المستحيل عليها أن تكن فى نفســها أفكارا كالتى عبـرت عنها فى ذلك الصباح !.. ولقد كان من العادى أن تصـدر المراودات الجريئة عن الرجال ، فهذه شيمتهم !.. أما إقدام النساء على ذلك فكان أمرا يثير الاشمئزاز .. وهكذا شعر نبيل بأن حياءه وعفته قد خدشا ، وأن العاطفة الجامحة التى رآها فى وجهها ، والإيماءات غير المحتشمة ، قد أذهلت احتشامه !

وساءل نفسه : أتراها ستنفذ حقيقة وعيدها ، وتأتى إلى غرفته ؟.. ولم يخطر له أنها ستجرؤ على هذا . ولكن ما إن حل الليل وذهب الجميع إلى أسرتهم ، حتى شعر بجـزع شديد حرمه النوم !.. واستلقى على الفراش وجعل يصغى. ولم يكن يعكر السكون غير صيحات رتيبة تصدر عن قنبرة.. وكان يسمع ـ خلال الجدار المبنى من سعف النخيل ـ صوت تنفس مونرو المنتظم . وفجأة ، فطن إلى أن هنـاك من كان

يسترق الخطى إلى غرفته .. وعرف أنها « داريا » ! .. وكان رأيه قد استقر على ما ينبغى أن يفعل . فقد صاح بصوت عال : « أهذا أنت يا مونرو ؟ » .

وتوقفت داريا فجأة .. واستيقظ مونرو . وقال نبيل : « هناك شخص فى غرفتى ، وقد ظننته إياك ؟ » . فقالت داريا : « لا تنزعجا .. أنا هذا الشخص ! .. لم أستطع النوم ففكرت فى تدخين سيجارة فى الشرفة » . فقال مونرو : « آه، أفهذا كل شىء ؟.. حذار أن تصابى ببرد ! » . واجتازت داريا غرفة نبيل وخرجت إلى الشرفة . ورآها الشاب تشعل سيجارة ، ثم سمعها ــ بعد برهة ــ تأوى إلى فراشها .

ولم يرها فى صباح اليوم التالى ، لأنه خرج ــ قبل أن تستيقظ ــ ليستأنف جمع العينات . وتعمد ألا يعود إلا وهو واثق من أن مونرو قد عاد إلى البيت . وتجنب الانفراد بها إلى أن حل الظلام ، ونزل مونرو ليضع شباكا لصيد اليرقات . فلما أصبحا وحيدين ، همست داريا فى صوت غاضب : «لماذا أيقظت أنجوس فى الليلة الماضية ؟ » .. فهز كتفيه ، وواصل عمله دون أن يجيب . وعادت تتساءل : « هل خفت ؟ » . فأجاب : « لقد أوتيت قدرا من الحشمة ! » .

ــ أوه !.. لا تكن مغرورا .

ــ لخير أن أكون مغرورا ، عن أن أكون خنزيرا قذرا !

ــ اننى أكرهك !

ــ إذن فدعينى وشأنى .

ولم تجب ، وإنما صفعته ، فاحمر وجهه ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة !.. وعاد مونرو ، فتعمدا أن يتظاهرا بالانهماك فى عملهما .

وظلت داريا بضعة أيام لا تتحدث إلى نبيل إلا فى أوقات الأكل ، وفى المساء ، وقد حرصا ــ بغير اتفاق سابق ــ على إخفاء ما طرأ على علاقتهما من توتر . غير أن الجهد الذى بذلته لتخرج عن صمتها لم يكن ليخفى على أى شخص آخر أكثر شكا من « أنجوس » . ولم تكن تتمالك أن تحتد أحيانا على نبيل .. وكانت تمازحه ، ولكن شيئا من الوخز كان يخالط مزاحها ! .. وكانت تعرف كيف تكشف قلة درايته ، ولكنه كان حريصا على ألا ترى هذا فيه . وداخله شعور بأن ما كان يبديه من انبساط كان يغيظها !

* * *

وفى أحد الأيام ، عاد نبيل من جمع العينات . وكان قد حرص على ألا يصل إلى البيت إلا فى آخر دقيقة ممكنة قبل موعد الغداء . ولكنه دهش عندما وجد أن مونرو لم يكن قد عاد بعد . فسألها : « أين المستر مونرو ؟ »

ــ إنه لن يجىء ، فقد بعث برسالة قال فيها إن المكان الذى يوجد فيه ، مكان جميل ، وانه لن يعود قبل هبوط الليل !

وكان مونرو قد خرج فى الصباح قاصدا إلى قمة الجبل ، لأن الأماكن المنخفضة لم تمكنه من الحصول على نتائج طيبة

فيما كان يجرى من بحوث على الحيوانات الثديية ، فخطر له أن يبحث عن مكان أعلى — تتوفر فيه المياه — فينقل إليه المعسكر .. وتناول نبيل وداريا غـداءهما فى صـمت ، حتى إذا فرغا منه ، دخل الشاب البيت ، فأتى بصـندوق جمـع العينات وبالقبعة . ولم يكن من عادته أن يخرج فى فترة ما بعد الظهر . فسألته داريا بحدة : « إلى أين تذهب ؟ »

— سأخرج .

— ولماذا ؟

— لأننى لا أشعر بتعب ما ، وليس ثمة شىء آخـر أفعله بعد الظهر .

وفجأة انفجرت باكية وقالت : « كيف يتسنى لك أن تكون قاسيا إلى هذا الحـد ؟.. آه ، من القســوة أن تعاملنى هكذا ! » . فتساءل وهو يطل عليها من علياء قامته ، وقـد حمل وجهه المليح — الذى نم عن شىء من الصـلابة — أمارات الحيرة : « ماذا فعلت ؟ » .

— لقد كنت فظيع القسوة .. اننى لا أستحق أن أتعذب هكذا ، مهما يكن ذنبى ! لقد فعلت كل شىء ممكن من أجلك ، فنبئنى بأى شىء كان بوسـعى أن أفعله ولم أفعله عن طيب خاطر .. لشد ما أنا تعيسة !

فتململ فى وقفته .. كان فظيعا أن يسمعها تقول ذلك . ولقد كان يزدريها ويخشاها ، ولكنه مع هذا ظل يكن لها ذلك القدر من الاحترام الذى كان يشعر به على الدوام نحوها ،

لا لأنها سيدة فحسب ، وإنما لأنها زوجة أنجــوس مونرو كذلك !.. ومضت تبكى دون أن تستطيع ضبط نفسها .. ولحسن الحظ ، كان الصيادون « الدياك » قد خرجوا مع مونرو فى الصباح ، ولم يبق فى المعسكر غير الخدم الصينيين الثلاثة، الذين ناموا — كعادتهم بعد الغداء — فى المكان المخصص لهم ، على خمسين ياردة من الدار . ومن ثم فقد كانا وحيدين! .. وقال نبيل أخيرا : « لست أبغى أن أشقيك ، ولكن الأمر كله سخيف ، ومن الغباء أن تقع ســيدة مثلك فى حب فتى مثلى . ان الأمـر يحـرجنى . اليس لديك شىء من ضـبط النفس ؟! » .

— آه يا إلهى !.. ضبط النفس !

— أعنى انك إذا كنت تهتمين بى حقا ، لما رغبت فى أن تجعلى منى هذا المخلوق السافل . أما من قيمة لما يضــعه زوجك فينا من ثقة مطلقة ؟.. إن مجرد تركه إيانا وحيدين — كمـا نحن الآن — خليق بأن يجعلنا نتشبث بشرفنا . انه لا يؤذى ذبابة ، ولن أستطيع أن أحترم نفسى إذا خنت هذه الثقة !

فرفعت نظرها فجأة وقالت : « ما الذى يحملك على الظن بأنه لا يرتضى أن يؤذى ذبابة ؟.. أن كل هــذه الزجاجات والصناديق مليئة بحيوانات لا أذى منها ، وقد قتلها جميعا !» .

— لمصلحة العلم !.. إن هذا أمر آخر !

— يا لك من غبى !.. غبى !

— إذا كنت غبيا ، فهذا ليس ذنبى .. فلماذا تضايقيننى ؟



ــ اتظننى كنت راغبة فى أن اقع فى حبك ؟

ــ يجب أن تخجلى من نفسك !

ــ أخجل ؟!.. ما هذا الغباء ؟.. يا إلهى ، ماذا فعلت حتى جعلتنى أدوس قلبى من أجل حمار عنيد مثلك !

ــ إنكِ تتكلمين عما فعلته من أجلى ، فماذا فعل مونرو من أجلك ؟

ــ إن مونرو يضـجرنى حتى الموت .. لقد برمت به .. سئمته حتى الموت !

ــ إذن فأنا لست الأول ؟!

كان منذ اعترافها الغريب ــ بحبه ــ يتعذب بالشك .. الشك فى أن ما قاله أولئك الرجال فى (كوالا سولور) لم يكن خلوا من الحقيقة .. لقد كان يرفض أن يصدق كلمة واحدة مما قالوا ، بل إنه ظل ــ حتى الآن ــ عاجزا عن أن يحمـل نفسه على التفكير بأن فى وسعها أن تكون بمثل هذا الفجور !.. كان من الفظيع حقا أن يفكر فى أن « أنجوس مونرو » كان يعيش فى جنة المغفلين ، وهو الرجل الرقيق ، الكبير الثقـة بالناس !.. لا ، ما كان من المحتمل أن تكون على مثل هـذا القدر من السوء ، ولعلها قد أساءت فهمه !

وابتسمت خلال دموعها ، وقالت : « طبعا ، لست الأول .. كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من الغباء ؟.. أواه يا عزيزى ! لا تكن متزمتا إلى هذا الحد !.. اننى أحبك ! » .

شعورها نحوه كان لونا من الشذوذ .. جنونا قد يستطيعان إذن فالأمر حقيقى ! .. لقد حاول أن يقنع نفســه بأن أن يعملا معا على مغالبته ، فاذا بها .. مجرد عابثة مستهترة! .. فقال لها : « أو لا تخشين أن يعرف مونرو الحقيقة ؟ » .. ولم تعد تبكى . فقد كانت تهوى التحدث عن نفسها ، فخامرها شعور بأنها قد تستطيع أن تغرى نبيل بالاهتمام من جـديد بها . فقالت : « يخيل إلى أحيانا أنه يعرف .. إن لم يكن بعقله فبقلبه ، إذ أنه أوتى ما للمرأة من غريزة ، وما للمرأة من حس مرهف . بل إننى كنت أوقن أحيانا من أنه يشك ، وقـد أحسست فى عذابه بلون عجيب من التســامى الروحى !.. وكم خيل إلى أنه فى ألمه يجد لذة وقورة لا حد لها ! .. فهناك - كما تعلم - نفوس تشعر بفرح طاغ فى الأسى والعذاب ! » .

ولم يستطع نبيل صــبرا على هــذه المغالطات ، وقال : « يا للفظاعة ! .. إن عذرك الوحيد هو أن تكونى مجنونة ! » .. وكانت قد أصبحت أكثر ثقة بنفسها ، فرمتــه بنظـرة جريئة ، وقالت : « ألا ترانى جذابة ؟.. كم من الرجال راونى كذلك !.. ولا بد أنك عرفت فى اسكتلندا عشرات من النساء، ولكنهن لم يكن بديعات الحسن مثلى ! » .. وراحت تنظر فى خيلاء إلى جسمها الجميل المغرى . فقال نبيل : « اننى لم أعرف أية امرأة إطلاقا ! » . فسألته منكرة : « ولم لا ؟ » .

***

وبلغت منها الدهشة مبلغا جعلها تقفز واقفة على قدميها، ولكنه هز كتفيه ، ولم يجد من نفسه قدرة على أن يخبرها

بمدى اشمئزازه من مثل هذه الفكرة ، وبمدى ما كان يراه من دناءة الحب العرضى العابر ، الذى كان زملاؤه فى جامعة (أدنبره) يقبلون عليه . فقد كان يشعر بغبطة روحية لنقائه وطهره .. كان يعتبر الحب مقدسا ، وكانت العملية الجنسية تثير اشمئزازه واستنكاره ، ولا يجد لها مبررا سوى إنجاب الأطفال وقداسة الزواج . ولكن «داريا» ظلت تتفرس فيه وهى مسمرة فى وقفتها ، وقد تهدجت أنفاسها . وفجأة ، صاحت ــ وهى تبكى ــ صيحة متهدجة ، مفعمة بالتهلل ومشوبة برغبة جامحة . وألقت بنفسها على ركبتيها راكعة ــ على الأرض ــ وهى تهتف : « اليوشا !.. اليوشا ! » . وأخذت تبكى وتضحك فى آن واحد .. وانحنت حتى أصبحت مكورة عند قدميه ، وقد انبعثت من حلقها أصوات لا تكاد تشبه الأصوات الآدمية . وسرت رعدة شديدة فى أوصالها ، هزت جسمها هزا ، وكأنما مسها تيار كهربائى شديد .. ولم يدر نبيل أهذه نوبة من الهستيريا ، أو هى نوبة صرع ، فصاح بها : « كفى عن هذا ! .. كفى ! » .

واحتواها بين ذراعيه القويتين ، وأجلسها على المقعد . حتى إذا حاول أن يتركها، لم تمكنه من ذلك ، بل ألقت ذراعيها حول عنقه فطوقته ، وكست وجهه بالقبلات !.. وأخذ يناضل لينأى عنها ، وأشاح بوجهه ، ووضع يده بين وجهها ووجهه ليقى نفسه ، ولكنها عضت يده فجأة ، وغرست أسنانها فيها !.. وشعر بألم شديد . وبدون وعى أو تفكير ، انتزع يده وانهال عليها بضربة عنيفة ، وصاح : « يا لك من شيطانة ! » .



وانحنت حتى أصبحت مكورة عند قدميه ، وقد انبعثت من حلقها أصوات لا تكاد تشبه الأصوات الآدمية ..

وأرغمتها حركته العنيفة على التخلى عنه . وأخذ يتأمل يده .. كانت قد عضته فى الجانب المكسو باللحم من راحته ، فأخذ الدم ينزف منها ، ولمعت عيناها ، إذ بدأت تشعر بيقظة وحيوية !.. وعاد يقول : « حسبى هذا منك ... اننى خارج ! » . فقفزت واقفة ، وقالت : « سآتى معك ! » . وارتدى القبعة ، وتناول أدوات الصيد ، واستدار دون أن ينبس بكلمة ، وقفز الدرجات الثلاث المؤدية إلى الخارج . ولكنها تبعته فقال : « اننى ذاهب إلى الأدغال » . فهتفت : « لست أبالى ! » . فقد نسيت ــ وسط الرغبة الجامحة التى استولت عليها ــ خوفها الشديد من الغابة ، ولم تعد تبالى بالأفاعى ولا بالوحوش الكاسرة، ولم تعد تعبأ بالأغصان التى تؤذى وجهها ولا بالنباتات المتسلقة التى تتعلق بقدميها!

وكان نبيل قد قضى شهرا يرتاد هذا الجزء من الغـــابة ، فعرف كل شبر فيه . وقال لنفسه انه سيلقنهـــا درســـا لن تنساه ، فشق طريقه ــ وسط النباتات ــ بخطوات واسعة .. فتبعته وهى تتعثر ، ولكن عزيمتها كانت قوية . واندفع وقد أعماه الغضب ، فاندفعت وراءه . وراحت تخاطبه دون أن يصغى إلى قولها : توسلت إليه أن يشفق عليها ، وأخذت تندب مصيرها .. وتذللت ، وبكت ، وعصرت يديه عصرا .. وحاولت أن تتملقه ، والكلمات تتدفق من شفتيها كجدول لا ينقطع . كانت كالمجنونة !.. وأخيرا ، وصـــلا إلى بقعـــة منبسطة ، فوقف فجأة ، واستدار نحوها ، وقال : « هذا مســـتحيل . لقد تعبت ، وعنـــدما يعـــود « أنجـــوس »

سأبلغه أننى سأرحل ، وسوف أعود إلى (كوالا سولور) صباح غد ، ومنها أرحل إلى بلدى ! » .

ــ لن يدعك تذهب ، إذ أنه يحتاج إليك ، وهو يعتقد ألا غنى له عنك !

ــ لست أحفل بهذا ، وسألفق له حجة !

وتساءلت : « وما هى ؟ » . فأساء فهم مقصدها ، وقال : « آه ، لا حاجة بك إلى أن تخافى ، فلن أقول له الحقيقة .. بوسعك أن تحطمى قلبه إذا شئت . أما أنا ، فلن أقـــدم على هذا ! » .

ــ إنك تعبده ، أليس كذلك ؟.. هذا الشـــخص الفـــاتر البليد الحس !

ــ انه بمائة من أمثالك !

ــ سيكون من البديع أن أقول له إنك رحلت لأننى لم أذعن لك إذ راودتنى عن نفسى !

وجفل .. وتفرس فيها ليعرف ما إذا كانت جادة فى هذا . وقال : « لا تكونى غبية ، فما أراك تعتقدين أنه سيصدق ذلك، لأنه يعرف أن هذا لا يمكن أن يصدر عنى البتة ! » .

ــ لا تغال فى ثقتك !

وكانت تتحدث بغير مبالاة ، وبغير ما غرض سوى مواصلة المحاجة . ولكنها رأته خائفا ، فدفعتها غريزة القسوة إلى أن تفيد من هذا الموقف . وقالت : « أتنتظر رحمة منى ؟!..

لقد أذللتنى إلى درجة لا تطاق ، وعاملتنى كما لو أننى كنت مخلوقا قذرا ، وأقسم لو أنك فكرت فى الرحيل لذهبت رأسا إلى أنجوس وقلت له انك انتهزت فرصة غيابه وحاولت اغتصابى ! » .

ــ أستطيع أن أنكر هذا الاتهام ، وليس لديك شهود ، ولن يكون هناك سوى أقوالك وأقوالى !

ــ أجل ، ولكن كلمتى ستكون هى الفيصل ، ويمكننى أن أبرهن على ما أقول !

ــ ماذا تعنين ؟

ــ إن الكدمات تظهر بجسمى بسرعة ، وبوسعى أن أريه الكدمة التى نتجت من ضربك إياى .. فضلا عن الجرح الذى فى يدك ! .. فكيف تعلل علامات الأسنان فيها !

فنظر إليها مشدوها وقد شحب وجهه ، وساءل نفسه : كيف يستطيع تبرير وجود الكدمة والجرح حقا ؟!.. لو كان الدافع لهذا هو الدفاع عن النفس ، لأمكنه أن يقول الحق ، ولكن هل يصدقه أنجوس ؟.. انه يعبد زوجته « داريا » ، ومن ثم فهو سيرجح قولها على قوله .. فأى جحود منكر فى مقابل كل ما أبداه مونرو من كرم ، وأى غدر فى مقابل مثل الثقة التى أودعه مونرو إياها ! .. لسوف يحسبه عربيدا قذرا ، وسيكون على حق ، من وجهة نظره !.. وحز فى قلبه التفكير فى أن مونرو ــ الذى كان نبيل على استعداد لأن يجود بحياته من أجله ــ قد يسىء الظن به . وأحس بتعاسة جعلت الدموع تتبادر إلى عينيه ، برغم ما فى ذلك من نبو عن

الرجولة .. ورأت داريا انكساره فطربت ، وأيقنت أنها بدأت ترد إليه ما كلفها من تعاسة وشقاء .. وأصبح فى قبضتها وتحت سيطرتها ، فاستعذبت انتصارها !.. وفى غمرة المها ضحكت فى نفسها لفرط غبائه ، ولم تعرف فى تلك اللحظة أكانت تحبه أم كانت تكرهه !.. وسألته : « والآن .. هل تكون طيبا ؟! » .

وشهق .. وبدافع من رغبة غريزية طارئة للهرب من هذه المرأة الفظيعة ، دار على عقبيه ، وجرى بأقصى ما وسعه من سرعة . واندفع موغلا فى الغابة كحيوان جريح ، لا يستبين وجهته ولا طريقه ، حتى تقطعت أنفاسه . فوقف وهو يلهث ، وأخرج منديله ، فمسح العرق الذى كان يتساقط على عينيه فيعميهما . وخارت قواه ، فجلس ليستريح ، وهو يقول لنفسه : «يجب أن أحترس ، وإلا ضللت الطريق» .

وما كان هذا أقل المتاعب التى قد يصادفها ، ولكنه تذكر أن لديه بوصلة صغيرة ، وأنه يعرف الوجهة التى يجب أن يتجه إليها . وبدأ السير .. وأخذ يرقب طريقه ، ويسائل نفسه ــ فى الوقت ذاته ــ عما ينبغى أن يفعل .. كان موقنا من أن « داريا » ستنفذ وعيدها ! .. وكان من المقرر أن يبقوا ثلاثة أسابيع أخرى فى هذا المكان اللعين ، فما كان ليجرؤ على الرحيل ، وما كان ليجرؤ على البقاء !.. وكان عقله فى دوامة ، فرأى أن المسلك الوحيد ، هو أن يعود إلى المعسكر ، وأن يفكر فى الأمر بهدوء !

وبعد ربع ساعة ، وصل إلى بقعة عرفها ، فان هى إلا ساعة حتى كان قد وصل إلى المعسكر ، فارتمى على مقعد ..

كان كل تفكيره منصرفا إلى « أنجوس » ، وكان قلبه يدمى عطفا عليه ، وقد وضحت له الآن جميع الأمور التى كانت غامضة ، وتكشفت فى ومضة من ومضات الغريزة المريرة ، فعرف لماذا كانت نساء (كوالا سولور) يقفن موقفا عدائيا من « داريا » ، ولماذا كن ينظرن إلى «أنجوس» نظرات غريبة، ويعاملنه بعطف مشوب بسخرية .. ولقد كان نبيل يعتقد ان هذا راجع إلى أن « أنجوس » كان رجل علم ، فكان يبدو — فى أنظارهن — أحمق ، سخيفا بعض الشىء .ولكنه أدرك الآن أن ذلك إنما كان راجعا إلى إشفاقهن عليه ، برغم إيمانهن بغبائه !.. فقد جعلت منه « داريا » أضحوكة الجميع . وإذا كان هناك رجل لا يستحق سوء المعاملة من زوجته ، فقد كان هذا الرجل هو « مونرو » ! ..

وشهق نبيل فجأة وارتجف ، فقد طرأ على فكره خاطر فجائى . هو أن « داريا » لم تكن تعرف الطريق خلال الغابة ، وقد نسى — فى غمرة كربه الشديد — الجهة التى ذهبا إليها ، فماذا يحدث لها إذا ضلت الطريق ؟.. لسوف تصاب بالرعب !.. وتذكر القصة الرهيبة التى رواها له « أنجوس » عن ضلاله فى الغابة . وكان أول إيحاء غريزى شعر به ، هو أن يعود ليبحث عنها ، فاستوى واقفا على قدميه . وإذا بسخط عنيف يتملكه ، فقال لنفسه : « لا ، لأدعها ترجع بنفسها ، فقد ذهبت بمحض إرادتها ، ولتبحث الآن بنفسها عن طريق عودتها .. انها امرأة فظيعة ، تستحق كل ما قد تصادفه ! » .. ورفع نبيل رأسه فى تحد ، وارتسمت على

جبينه الناعم علامات النقمة ، وشد قبضتيه يستجدى الشجاعة .. وأخيرا استقر على رأى : سيكون من الخير لأنجوس ألا تعود !

وجلس ثانية . وأخذ يحاول سلخ جلد حيوان صغير ، ولكن الجلد كان رقيقا للغاية ، وكانت يدا نبيل ترتجفان برغم محاولته أن يركز اهتمامه فى هذا العمل .. وكانت أفكاره تضطرب بعنف — وكأنها يرقات فى مصيدة — فلم يستطع السيطرة عليها !.. ترى ما الذى كان يحدث الآن فى الغابة ؟ .. ماذا فعلت عندما تركها ؟

وأخذ — بين الفترة والأخرى — يرفع رأسه متطلعا إلى الفضاء بالرغم منه ، وكأنه كان يتوقع أن تظهر « داريا » فى الساحة الخارجية ، وتسير بهدوء فتدخل المنزل .. وشعر بأنه لا يستحق أى لوم ، فهذه كانت يد الله !.. وارتجف إذ بدأت السحب تتجمع فى السماء ، وحل الليل بسرعة .. وما لبث مونرو أن وصل بعد حلول الظلام بقليل ، فقال إذ دخل المنزل . « لقد جئت فى الوقت المناسب ، فلسوف تهب عاصفة هوجاء ! » .

وكان فى خير حالاته ، فقد عثر على سهل فيه مياه كثيرة ، ويطل على منظر رائع للبحر . كما عثر على فراشتين أو ثلاث فراشات نادرة الوجود ، وعلى سنجاب طائر . وبدأ يعد الخطط لنقل المعسكر إلى ذلك المكان الذى تبين له انه حافل بالأحياء الحيوانية .

وأخيرا دلف مونرو إلى داخل البيت لتغيير حذائه الثقيل ، ولكنه لم يلبث أن عاد بسرعة وسأل : « أين داريا ؟ » .. وحاول نبيل أن يكون طبيعيا ،فتساءل هو الآخر « أليست فى غرفتها ؟ »

ــ لا .. ربما نزلت إلى مأوى الخدم .

وهبط درجات السلم ، ونادى « داريا » ، ولكنها لم تجب. فنادى الخدم ، وسرعان ما أقبل خادم صينى ، فقال إنه لم يكن يعلم شيئا عنها ، وأنه لم يرها بعد الغداء .. فعاد مونرو وهو يتساءل فى دهشة : « أين يحتمل أن تكون ؟ » . وسار إلى الساحة الخلفية للبيت ، وأخذ يناديها ، ثم قال لنبيل : « ليس من المعقول أن تكون قد خرجت ، فليس هناك مكان تذهب إليه . متى رأيتها آخر مرة يا نبيل ؟ » .

ــ إننى خرجت بعد الغداء لأجمع عينات ، لأن الجمع لم يكن ــ فى الصباح ــ على ما يرام ، وبهذا رأيت أن أجرب حظى بعد الظهر .

وهتف مونرو فى قلق : « أمر غريب ! » . وأخذا يبحثان عنها حول المعسكر .. وظن مونرو أنها ربما وجدت لنفسها مكانا مريحا ، فنامت فيه . واشترك الجميع فى البحث عنها .. وبدأ مونرو يشعر بالخوف والقلق ، فقال : « من المستحيل أن تكون قد خرجت للرياضة فضلت الطريق فى الغابة ، فما سبق لها أن سارت إلى أكثر من مائة ياردة من المنزل ، أو هذا ما أعرفه عنها أنا ــ على الأقل ــ مذ جئنا إلى هنا ! »

وشاهد نبيل الرعب المتجسم فى عينى « مونرو » فنكس رأسه . وعاد مونرو يقول : « يحسن بنا أن ننادى الجميع ونشرع فى البحث ، فمن المؤكد أنها لم تذهب بعيدا ، كما أنها تعرف أن خير ما يفعله الإنسان إذا ضل فى الغابة ، أن يبقى فى مكانه وينتظر حتى يأتى إليه من يبحثون عنه .. يا لها من مسكينة ! .. لسوف تجن من الخوف ! » .

ونادى الصيادين ، وطلب من الخدم الصينيين ان يحضروا المصابيح ! . وأطلق مسدسه كإشارة لداريا . ثم انقسم الجميع إلى فريقين ، أحدهما بقيادة مونرو ، والآخر بقيادة نبيل . وسلك الفريقان الطريقين الوعرين اللذين شقوهما فى غدوهم ورواحهم خلال الشهر الذى أقاموه فى المعسكر . واتفقوا جميعا على أن يطلق الفريق الذى يعثر على «داريا» ثلاث رصاصات سريعة متتابعة .

وانطلق نبيل واجما ، مكفهر الوجه ، ولكن ضميره كان مستريحا . وخيل إليه أنه يحمل فى يديه مرسوم العدالة الإلهية ، فقد كان يعلم أنهم لن يعثروا على « داريا » . وتلاقى الفريقان .. ولم تكن ثمة حاجة إلى النظر فى وجه مونرو ، فقد كان شارد الفكر . وشعر نبيل بنفسه كالجراح الذى يرغم على إجراء جراحة خطرة بغير مساعدين ولا أدوات ، فى سبيل إنقاذ شخص يحبه .. وهو موقف يحتم عليه أن يكون حازما !

وقال مونرو : « من غير المعقول أن تكون قد ابتعدت كل هذه المسافة ، فعلينا أن نعود فنفتش الغابة فى نطاق ميل من البيت . ولننقب فى كل شبر منها ، فان التفسير الوحيد للموقف هو أنها ارتعبت ، أو أغمى عليها ، أو لدغتها أفعى ! »

ولم يعقب نيل .. وبدأوا البحث من جديد ، فساروا فى صفوف ، يفتشون بين النباتات . وأطلقوا الصيحات ، كما كانوا يطلقون رصاصة — بين آونة وأخرى — ثم يصغون إلى رد . وحومت طيور الليل ، ثم فرت مذعورة من المصابيح .. وكانوا يشهدون من آن لآخر ما يخيل إليهم أنه حيوان — كغزال أو دب أو خرتيت — وهو يهرب من أصواتهم !

وثارت العاصفة فجأة .. فهبت ريح عاتية ، وأرعدت السماء ، وشق البرق ظلام الليل ، وكأنه صرخة امرأة برح بها الألم . وأخذت الومضات « المعذبة » تظهر بسرعة خاطفة ، الواحدة فى أعقاب الأخرى ، وكأنها راقصات من الجن تتمايل فى هوس وجنون .. وتكشفت أهوال الغابة وكأنما كان القوم فى يوم الحشر .. وظل الرعد يقصف فى السماء ، ويدوى فى هزيم بعد هزيم ، وكأنه موجات كبيرة تتدافع على شواطىء الخلود .. ورنت هذه الأصوات المخيفة فى الفضاء ، فكان للصوت حجم ووزن .. وهطل المطر وتدفق سيولا عارمة ، فتهاوت الصخور والأشجار الضخمة ، وتدحرجت من أعلى

الجبل .. وكانت الضوضاء عالية مخيفة ، وتملك الذعر الصيادين « الدياك » من الأرواح الغاضبة التى تتكلم وسط العاصفة . ولكن مونرو حثهم على مواصلة البحث .

وظل المطر يهطل طول الليل ، ولم يتوقف الرعد ولا البرق حتى بزغ الفجر ، فعادوا إلى المعسكر يرتجفون .. وكانت ثيابهم قد ابتلت ، وأضناهم الجهد والتعب . حتى إذا فرغوا من فطورهم ، أراد مونرو أن يواصل البحث الميئوس منه ، ولكنه أدرك الا أمل يرتجى ، وأنهم لن يروا « داريا » بعد ذلك على قيد الحياة . فارتمى فى إعياء .. وكان وجهه شاحبا ، يحمل أمارات الضنى والعذاب .. وهتف فى أسى ولوعة : « يا للطفلة المسكينة ! .. يا للطفلة المسكينة ! »





جبان..!

(خيط من الدم الأصفر)



كان القاربان يتقدمان فى يسر وسهولة ، منسابين مع التيار ، يسبق أحدهما الآخر ببضع ياردات ، وقد استقله الرجلان اللذان كانا يشعران بالغبطة والارتياح ، إذ اطمأنا إلى أنهما سيقضيان الليل فى منزل متمدين ، بعد رحلة استغرقت سبعة أسابيع قضياها على الأنهار ..

وكان « ايزارت » يعيش فى (بورنيو منذ الحرب ، ولهذا لم تكن بيوت « الدياك » — أهل العشائر المحلية — ولا ولائمهم بالغريبة عنه ، أما « كامبيون » فمع أنه كان جديدا على البلاد وقد استمرأ فى البداية هذه الجدة وما بعثت فيه من شعور بالاستغراب ، فانه أصبح فى أشد الشوق إلى مقعد يجلس عليه ، وفراش ينام فيه .. فقد كان « الدياك » بالغى الحفاوة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول إن ثمة أسبابا للراحة فى دورهم ، كما كانت ثمة رتابة مملة فيما كانوا يقدمونه للضيف ، فسرعان ما يتطرق الملل إلى نفسه . ذلك لأن زعيم القرية كان يتقدم فى كل مساء — عند وصول الرحالتين إلى المرفأ — حاملا علما ، وقد رافقه علية القوم . فيستقبلون القادمين ويقودونهما إلى المنزل « الطويل » ، وهو فى الواقع قرية أقيمت على عمد تحت سقف واحد ، لا سبيل إلى دخولها إلا بتسلق جذع شجرة شدت — بطريقة بدائية — على شكل درجات سلم . وكان الجميع يسيرون فى موكب خلال هذه القرية ، بين دق الطبول وقرع اللوحات النحاسية ، وقد اصطفت على جانبى الطريق حشود من القوم ذوى

البشرة السمراء ، جالسين ، متربعين ، يتطلعون فى صمت تام إلى مرور الضيفين !

وكانت الأرض مفروشة بحصير نظيف ، ليجلس عليه الضيفان . وكان الزعيم لا يلبث أن يحضر دجاجة حية ، فيمسكها من ساقيها ، ويلوح بها ثلاث مرات فوق رأسيهما ، ثم ينادى الأرواح بصوت عال ، داعيا إياها أن تشهد .. بينما كان القوم يتوافدون جالبين البيض وشراب « العرق » . ثم تتقدم فتاة صغيرة جدا ، مستحيية ، فى بهاء الزهور ، وإن شاعت فى وجهها الجامد الملامح قداسة كهنوتية ، فتحمل كأسا تقدمها إلى الرجل الأبيض ، وتحملها إلى شفتيه ، فيشرب منها حتى يفرغ جميع محتوياتها فى جوفه ، فترتفع — إذ ذاك — الأصوات مهللة . ويشرع الرجال فى الرقص ، واحدا بعد آخر ، كل بالطريقة التى يهواها ، وهو يحمل درعه ورمحه ، ويدور الرقص على قرع الطبول ودق الألواح النحاسية .. حتى إذا انتهى هذا العرض ، اقتيد الضيفان إلى إحدى الغرف المؤدية إلى الشرفة الطويلة ، حيث تجرى الحياة العامة فى القرية . وهناك ، كانا يجدان طعام العشاء معدا ، فتأخذ الفتيات فى إطعامهما بالملاعق الصينية . وإذ يبدأ الشراب يعبث بالعقول ، يأخذ الجميع فى الحديث ، ويظلون كذلك إلى ساعة مبكرة من الصباح !

* * *

وها قد انتهت زيارتهما للقرية ، فغادراها فى الفجر متجهين إلى الشاطىء . وكان النهر — إذ ذاك — ضحلا للغاية ، ومياهه

تجرى فى صفاء وبريق فوق القاع المكسو بالحصباء ، وقد مالت الأشجار عليه وتشابكت حتى لم تكن تظهر من السماء غير شقة زرقاء اللون . ولم يلبث النهر أن اتسع ، فلم يعد الرجال يستعملون المدراة فى تسيير الزورق ، بل أخذوا يستخدمون المجاديف . وظهرت الأشجار وأعواد الغاب والنباتات كأنها باقات ضخمة من ريش النعام ، كما ظهرت أشجار ذات أوراق ضخمة ، وأشجار ذات أوراق شبيهة بالريش كأشجار السنط ونخيل جوز الهند ، وقد نمت سيقانها الطويلة نموا غزيرا وحشيا . وكانت تقوم — هنا وهناك — شجرة ذاوية عارية : قضت عليها صاعقة ، أو ماتت لتقادم العهد عليها ، فإذا بياضها يلوح ناصعا إذا قيس بكل الخضرة الناضرة المحيطة بها .. كما كانت تقوم — هنا وهناك — الأشجار التى كانت تتنافس على سيادة الغابة : أشجار طويلة ، تتطاول فوق المستوى العادى للأدغال .. وكانت هناك — أيضا — الطفيليات : فبين تقاطع أى فرعين تنمو باقات ضخمة من الأوراق الخضراء اليانعة ، أو نباتات متسلقة ذات أزهار تحجب أوراق الشجرة المنتشرة وكأنها خمار عروس .. وهى تلتف أحيانا حول جذع طويل ، فكأنها غمد بديع ، أو كأنها أذرع مزدهرة تمتد من فرع إلى آخر .. وكان ثمة شىء يبهر النفس فى ذلك النماء الضارى المتوثب .. كان يمثل الجراة الوافرة التى اتسمت بها البداوة المتمردة بين خلق الله !

وأخذ النهار يولى ، ولم تعد حرارة الجو مرهقة . وألقى « كامبيون » نظرة على ساعة معصمه الفضية القديمة . ووجد

أنه لن يمضى وقت طويل حتى يصلوا إلى مقصدهم ، فسأل رفيقه : « أى نوع من الرجال هتشينسون هذا ؟ » .

— لست أعرفه ، وأعتقد أنه من نوع بالغ الطيبة .

وكان هتشينسون هذا هو المقيم العام ، الذى كانا يزمعان أن يقضيا الليل فى داره .. وقد أرسلا أحد الأهالى فى قارب صغير ليبلغه بوصولهما . فأردف « كامبيون » قائلا : « أرجو أن يكون لديه بعض الويسكى ، فقد شربت من العرق ما يكفينى طول الحياة ! » .

وكان « كامبيون » مهندس مناجم ، قابله السلطان فى (سنغافورة) — وهو فى طريقه إلى إنجلترا ، فلما وجده بلا عمل ، عهد إليه بالذهاب إلى (سمبولو) ليرى ما إذا كان من الممكن العثور على أى معدن ذى فائدة . وأرسل إلى «ويليس» المقيم العام فى (كوالا سولور) تعليماته لتقديم جميع التسهيلات لكامبيون ، فعهد « ويليس » به إلى « ايزارت » لأنه كان يتكلم لغة الملايو ولغة « الدياك » — وهى اللغة الوطنية — وكأنه من أهلهما .. وكانت هذه ثالث رحلة يقومان بها فى داخل البلاد ، وقد آن لكامبيون أن يعود ليقدم تقريره ، فكان لزاما عليهما أن يلحقا بالسفينة « السلطان أحمد » ، التى كان من المنتظر أن تمر بمصب النهر عند الفجر — بعد يومين — عسى أن يساعدهما الحظ فيصلا إلى (كوالا سولور) بعد ظهر اليوم ذاته .. وكانا مغتبطين بعودتهما إليها ، فهناك التنس والجولف والنادى بما فيه من موائد « البلياردو » وأطعمة لا بأس بها ، وأسباب الراحة التى توفرها المدنية . وكان « ايزارت » فرحا

لأنه سيلقى صحبة أخرى غير « كامبيون » . وقد نظر إليه بطرف عينه يتأمل جسمه الضئيل ، ورأسه الكبير الأصلع .. ومع أنه كان فى الخمسين من العمر – يقينا – فقد كان قويا صلبا ، ذا عينين زرقاوين براقتين سريعتى الحركة ، وشاربين كثين أشيبين قصيرين .. وكان نادرا ما يظهر بغير غليونه القديم يعض عليه بأسنانه المتكسرة التى زال لونها .. ولم يكن نظيفا ولا أنيقا ، بل كان سرواله القصير « الخاكى » رثا ، وقميصه ممزقا . وكان يضع على رأسه قبعة مهشمة من الفلين .

ولقد خرج « كامبيون » يضرب فى الأرض وهو فى الثامنة عشرة من العمر ، فزار جنوب إفريقيا والصين والمكسيك .. وكان رفيقا مسليا ، يجيد رواية أية قصة ، كما كان على استعداد لأن يشرب الخمر ويعاود الشراب مع كل امرىء يقابله ! .. وقد ارتبط الاثنان بعلاقات طيبة ، وإن لم يشعر « ايزارت » بألفة تامة معه .. فمع أنهما كانا يتمازحان ويتضاحكان ويسكران معا ، إلا أن « ايزارت » شعر بأنه لم يكن ثمة تقارب وثيق بينهما ، وبأن علاقتهما لم تتجاوز المعرفة، برغم ما سادها من ود . وكان مرهف الشعور بما يحدثه من أثر فى نفوس الآخرين ، وقد شعر بأن البهجة – التى كان « كامبيون » يبديها – كانت تخفى وراءها بعض الفتور ! .. وكذلك استطاعت العينان الزرقاوان البراقتان أن تلما بفكرة شاملة عنه ، وقد ضايق « ايزارت » أن يؤلف « كامبيون » فكرة عنه ، لا سيما وأنه لم يعرف هذه الفكرة ونوعها ، كما

ضايقه احتمال ألا يكون هذا الرجل البسيط الهزيل قد كون لنفسه فكرة طيبة عنه . فقد كان تواقا إلى أن يكون محبوبا وموضع إعجاب .. كان يحب أن يكون « شخصية محبوبة »، وأن يغالى الناس فى تصور مكانته ، حتى يستطيع أن يرفض صداقتهم ، أو يمنحهم صداقته وكأنه يتكرم بها عليهم .. كانت أمنيته أن يكون معروفا للجميع بلا استثناء ، وما كان يقعده عن محاولة ذلك سوى الخوف من الصد .. وكان يمضه أحيانا أن يشعر بأن إفاضته فى التلطف والتودد كانت تدهش أولئك الذين كان يبديها نحوهم !

ولم يكن – للمصادفة – قد التقى بهتشينسون من قبل ، وإن كان قد عرف – فى الواقع – كل شىء عنه ، كما كان هتشينسون يعرف – بدوره – كل ما يتعلق به .. وربما كان لهما أصدقاء عديدون مشتركون يستطيعان التحدث عنهم لو قدر لهما أن يلتقيا .. ثم ان هتشينسون كان قد تلقى علومه فى (ونشستر) ، وقد اغتبط ايزارت إذ كان بوسعه أن يقول لهتشينسون أنه كان فى كلية « هارو » !

ودار الزورق حول منحنى فى النهر ، فظهرت فجأة الدار قائمة على ربوة بارزة . وإن هى إلا بضع دقائق حتى ظهرت مرساة وقف عليها لفيف من الأهالى ، وشخص فى ثياب بيضاء، وقد راحوا يلوحون للقادمين .

وكان « هتشينسون » طويل القامة ، قوى البنية ، أحمر الوجه ، يوحى مظهره إليك بأن تتوقع أن تجد فيه شخصا خفيف الظل ، واثقا من نفسه . ولكنك لا تلبث أن تدهش إذ

تكتشف أنه حيى خجول !.. وبعد أن صافح ضيفه ، قدم ايزارت نفسه ، ثم قدم كامبيون إليه ، فقادهما إلى الطريق المفضية إلى الدار . وظهر أنه كان يحاول جاهدا أن يبدو ودودا ، بيد أنه لم يكن من المتعذر على أحدهما أن يتبين أنه كان يجد مشقة فى أن يبتكر مادة للحديث .. وأخذهما إلى الشرفة فوجدا مائدة عليها كؤوس وزجاجات الويسكى والصودا ، فجلسوا جميعا فى مقاعد طويلة مريحة . وإذ شعر « ايزارت » بأن الارتباك البسيط الذى كان هتشينسون يشعر به — عادة — نحو الأغراب قد ازداد ، أخذ يسهب فى الحديث والمرح ، وبدأ يتكلم عن معارفهما المشتركين فى (كوالا سولور) ، وسرعان ما نجح فى أن يذكر — بطريقة غير ملحوظة — معلومات توحى بأنه كان فى كلية « هارو » ثم قال : « أظنك كنت فى ونشستر . أليس كذلك ؟ » . فأجابه هتشينسون : « بلى » .

— هل تعرف « جورج باركر » ؟ .. لقد كان فى فرقتى فى الجيش ، وكان أيضا فى كلية ونشستر .. وربما كان أصغر منك سنا !

وشعر « ايزارت » أن وجودهما فى هاتين المدرستين بالذات يعد رابطة بينهما .. رابطة أبعدت كامبيون عنهما ، الذى كان من الجلى أنه لم يحظ بهذه الميزة !.. وشربوا كأسين أو ثلاث كؤوس من الويسكى ، وإن هو إلا نصف ساعة ، حتى كان « ايزارت » ينادى مضيفه باسم « هتشى » ، وتحدث كثيرا عن « فرقته » ، وعمن توثق الود بينه وبينهم من

الضباط الذين زاملوه فيها . وذكر اسمين أو ثلاثة أسماء لا يمكن أن تكون غير معروفة لدى هتشينسون ، وإن كان أصحابها من فئة من الناس لم يكن من المحتمل أن يكون كامبيون قد تعرف إليها . ولم يتورع عن أن يوجه إليه سخرية متوارية متعمدة ، عندما ادعى معرفته بشخص ممن تحدث عنهم ، فقد قال كامبيون : « بيلى ميدوز ؟ .. لقد عرفت شخصا يدعى بيلى ميدوز فى (سينالوا) ، وكان ذلك منذ عدة سنين ! » . فقال ايزارت مبتسما :

— لا أظن أنه نفس الشخص ، فان « بيلى » الذى أعنيه من النبلاء ، إنه « اللورد ميدوز » ، الذى يملك جيادا للسباق ، ألا تذكره ؟.. إنه صاحب الجواد « سبرينج كاروتس » .

واقترب وقت العشاء .. وبعد أن اغتسلوا واستبدلوا ثيابهم ، شربوا قدحين من « الجن » .. ولم يكن هتشينسون قد ذهب إلى (كوالا سولور) منذ سنة تقريبا ، ولم ير رجلا أبيض منذ ثلاثة أشهر ، فكان تواقا إلى أن يسرف فى الترحيب بضيفيه . ولم يكن يملك أن يقدم لهما نبيذا ، وإنما كانت هناك كميات كبيرة من الويسكى . واحضر لهما بعد العشاء زجاجة غالية من « البندكتين » ، فازداد مرحهم ، وأسرفوا فى الضحك والحديث . وبدأ « ايزارت » يبرز فى المجال ، وخيل إليه انه لم يحب — من قبل — شخصا اكثر مما أحب « هتشينسون » ، فأخذ يلحف فى دعوته أن يزوره فى (كوالا سولور) بأسرع ما كان يستطيع . وأوحى شيء من الخبث إلى « ايزارت » أن يستبقى « كامبيون » بعيدا عن الحديث ، لكى يضعه فى

مكانه ، كما نأى هتشينسون عن محادثته بحكم خجله وحيائه. فما لبث كامبيون أن ابدى رغبته فى أن يأوى إلى فراشـــه ، بعد أن أكثر من التثاؤب . فاقتاده هتشينسون إلى غرفته . وعندما عـــاد إلى ايزارت قال له : « الا تريـد الذهاب إلى الفراش الآن ؟ »

ــ لا ، وحياتك ! .. لنتناول كأسا أخرى !

وجلسا يتبادلان الحديث .. وبدأت الخمر تلعب برأسيهما . وإذ ذاك ذكر « هتشينسون » لضيفه أنه كان يعاشر إحـدى فتيات الملايو ، وقد أنجب منها طفلين ، ولكنه طلب منهـم الا يظهروا خلال مقام كامبيون !.. وأردف ، وهـو يمد النظـر نحو الباب الذى أدرك ايزارت أنه يؤدى إلى مخدع المضيف : « احسبها نائمة الآن ، ولكنى أحب أن ترى الطفلين ، وسأفعل ذلك فى صباح غد »

وهنا انبعث عويل خافت ، فقام هتشينسون واتجـه إلى الباب ، وهو يقول : « لقد استيقظ الشيطان الصغير ! » . وفتح الباب ، ودخل الغرفة .. وبعد برهة ، ظهر وهو يحمل طفلا بين ذراعيه ، ووراءه امرأة تتبعه .

وقال لايزارت : « لقد بدأت أسنانه تشق طريقها للظهور .. وهى تتعبه وتؤرقه ! » .. وكانت المرأة ترتدى الســارونج (وهو مئزر يرتديه الرجال والنساء على الســواء فى جـاوة والملايو) ، وسترة بيضاء خفيفة . وكانت حـافية القدمين ،

صغيرة السن ، ذات عينين ســوداوين جميلتين . وعنـدما تحدث « ايزارت » إليها ، ابتسمت له ابتسامة مشرقة تفيض بهجة ، ثم جلست وأشعلت سيجارة ، وأخذت تجيب ــ بدون حرج ، ولكن بلا إسراف ــ عن الأسئلة التى أخذ يوجهها إليها بأدب وكياسة . وسألها هتشينسون عمـا إذا كانت تحتسى كأسا من الويسكى معهما ، فرفضت . وعندما عـاود الرجلان الحديث بالإنجليزية ، جلست ساكنة تتأرجح برفق فى مقعدها ، وقد استغرقت فى أفكار هـادئة ما كان بوسـع أحد أن يتنبأ بها !

وقال هتشينسون : « إنها فتاة طيبة للغاية ، تتولى العناية بالبيت ، ولا تضايقنى فى شىء . وهذا بطبيعة الحال هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعمل فى مكان كهذا ! » . فقال ايزارت: « اننى ــ شخصيا ــ لا أقدم على شىء كهذا ، فلا بد للإنسان ــ فى النهـاية ــ من أن يرغب فى أن يتـزوج ، وإذا كان فى ماضيه مثل هذا الشىء ، فانه يغدو مصدرا للكثير من الحرج!»

ــ ولكن .. من ذا الذى يريد الزواج ؟.. يالها من حياة لسيدة بيضاء !.. اننى لا أجسر قط ان اسـأل أية سـيدة بيضاء أن تعيش هنا ، مهما يكن الثمن !

ــ إنها بطبيعة الحال مسألة مزاج .. وإذا قدر أن يكون لى أولاد ، فيهمنى أن تكون أمهم من البيض !

فغض هتشينسون نظره ، وأخذ يتفرس فى الطفل الأسمر اللون ، الذى كان يحمله بين ذراعيه . وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وقال : « من الطريف حقا أن تعرف إلى أى

مدى ستحبهم ، فليس من المهم أن يكونوا سودا أو بيضا ما داموا أبناءك ! » .

والقت المراة نظرة على الطفل ثم نهضت قائلة انها تبغى أن تحمله إلى الفراش . فقال هتشينسون : « ارى من المناسب أن نذهب جميعا إلى النوم ، فالله وحده يعلم فى اية ساعة نحن الآن ! » .

* * *

وذهب « ايزارت » إلى غرفته ، ففتح النوافذ التى كان خادمه « حسن » — الذى رافقه فى رحلته — قد أغلقها ، وأطفأ الشمعة حتى لا يجتذب ضوؤها البعوض ، ثم جلس إلى النافذة ، وأخذ يتطلع إلى الظلام الهادىء ، وقد أوحى إليه الويسكى الذى شربه أنه كان يقظا ، متنبها كل الانتباه، وليست به رغبة فى أن يأوى إلى فراشه . وقام فخلع ملابسه ، وارتدى « السارونج » وأشعل سيجارة من تبغ « المانيلا » ، وقد اختفت علامات البشر من وجهه . فان رؤية هتشينسون وهو ينظر فى شغف إلى الطفل الذى أنجبه من امراة غير بيضاء ، عكر عليه هدوء باله ! .. وقال يحدث نفسه : « لم يكن لهما اى حق فى أن ينجبا أبناء ، فلن تكون لهؤلاء الأبناء أية فرصة فى الدنيا ! .. ابدا ! » .

ومر بيديه على ساقيه العاريتين من الثياب ، المكسوتين بالشعر . وارتجف قليلا ، ولا غرو ، فقد حاول كثيرا أن ينمى هاتين الساقين ، ولكنهما ظلتا دائما أشبه بعصا المكنسة ، حتى لقد بات يكرههما ، ويشعر على الدوام بما فيهما من

عيب .. كانت اشبه بسيقان أبناء تلك البلاد .. بل انهما — فى الواقع — الساقان اللتان خلقت الأحذية الطويلة من أجلهما . ولذلك كان يظهر بمظهر طيب جدا ، إذا ما ارتدى الزى الرسمى . فقد كان طويل القامة ، قوى البنية ، يزيد طوله على ست أقدام ، وكان ذا شاربين حالكى السواد . وشعر أسود .. أما عيناه السوداوان ، فكانتا جميلتين كثيرتى الحركة .. وكان مليح الشكل ، وقد أدرك ذلك حقا ، كما كان حسن الملبس ، واسع الثياب مهدلها عندما تقتضى « المودة » ذلك بالثياب المهدلة ، وأنيقا عندما يقتضى الظرف أن تكون ثيابه محبوكة حول جسده !

ولقد أحب الجيش ، فكانت صدمة قوية له أن انتهت الحرب، ولم يتسن له البقاء فى صفوفه .. وكانت مطامعه بسيطة . فقد كان يرجو دخلا يبلغ الفى جنيه فى العام ، ويتوق إلى إقامة حفلات العشاء الفخمة ، وأن يذهب إلى الحفلات والمآدب وهو فى الزى العسكرى .. وكان يصبو إلى الإقامة فى لندن !

وكانت والدته تعيش هناك فى الواقع ، وهى التى كانت تعرقل خططه !.. إذ كان يحار فى أمر تقديمها للمجتمع إذا قدر له أن يخطب الفتاة التى كان يتطلع إلى الزواج بها ، وهى من أسرة طيبة ، وتملك بعض المال .. وكان أبوه قد توفى منذ زمن طويل ، وقد قضى الفترة الأخيرة من حياته مقيما — أى حاكما — فى أقصى ولاية من ولايات الملايو . ولهذا كان « ايزارت » واثقا من أنه ما من أحد فى (سمبولو) يعرف شيئا عن أمه .. ومع ذلك ، فقد كان يعيش فى ذعر ، خشية أن

يصادفها أحد فى لندن ، فيكتب إلى القوم فى (الملايو) ، ويذيع
أنها كانت « مولدة » .. من أب أبيض وأم من بنات تلك
الأصقاع !.. ولقد كانت حسناء عندما تزوجها والد « ايزارت »
— الذى كان مهندسا فى خدمة الحكومة — ولكنها أصبحت
عجوزا بدينة ، شيباء الشعر ، تقضى يومها فى خمول ، ولا
تكف عن التدخين ! ..

ولقد كان « ايزارت » فى الثانية عشرة عندما توفى والده ،
وكان — عندئذ — يستطيع التحدث بلغة الملايو بطلاقة تفوق
طلاقته فى الإنجليزية ! .. وقد أبدت إحدى عماته استعدادها
للتكفل بنفقات تعليمه ، فسافر إلى إنجلترا .. ورافقته أمه ،
التى اعتادت أن تقيم فى مساكن مفروشة ، فكانت غرفها
مقبضة للنفس ، شديدة الحر ، لكثرة ما كانت تحشد فيها من
ستائر شرقية ، وأدوات للزينة مصنوعة من فضة الملايو ..
وكانت الأم على شقاق دائم مع صاحبات المساكن التى
تستأجرها ، بسبب ما كانت تنثره حولها من بقايا السجاير فى
كل مكان . وكان ايزارت يكره طريقتها فى المصادقة ، فقد
كانت تتمادى فى الألفة فترة من الزمن ، إلى درجة تثير
الدهشة ، ثم يدب الفتور ، وبعد شجار عنيف ، تغادر المنزل
إلى سواه !

وكانت أفلام السينما متعتها الوحيدة ، فكانت تذهب إلى
دور السينما فى جميع أيام الأسبوع .. وكانت ترتدى — فى
مسكنها — ثوبا رخيصا ، كثير الزركشة والنقوش . أما إذا
خرجت ، فكانت ترتدى — فى غير أناقة ولا نظافة — ثيابا ذات

ألوان صاخبة ، مما كان يثير كمد ابنها الأنيق ، فكان يتشاجر
معها كثيرا . ولا عجب فقد كانت تستنفد صبره !.. كان
يخجل منها ، ولكنه — مع هذا — كان يشعر نحوها بحنان
رقيق عميق ، فكأنما بينهما رابطة مجسدة ، تتجاوز مجرد الشعور
العادى بين الأم والابن ، ولهذا فقد كانت — برغم سيئاتها التى
أقضت هناءه — هى الشخص الوحيد فى العالم ، الذى يرتاح
إليه ارتياحا تاما !

ونظرا للمركز الذى كان والده يشغله ، ولمعرفته هو بلغة
الملايو — لأن والدته كانت تحدثه بها على الدوام — فانه
عمد حين وجد نفسه بلا عمل أو منصب ، إلى السعى للالتحاق
بخدمة سلطان (سمبولو) . وقد أصاب نجاحا فى هذه
الخدمة ، وفى المجتمع الذى يقيم هناك . إذ كان يجيد العابا
كثيرة ، وكان قويا ورياضيا مبرزا ، وقد عرض فى استراحة
(كوالا سولور) الكؤوس التى ظفر بها فى مسابقات العدو
والقفز فى كلية « هارو » ، وقد أضاف إليها بعد ذلك كؤوسا
أخرى ظفر بها فى مباريات الجولف والتنس .. وكان بفضل
ما حوته جعبته من أحاديث شيقة ، النجم اللامع فى المآدب
والحفلات .. وكانت بشاشته عاملا فى تصريف الأمور ، وكان
خليقا — بعد كل هذا — بأن يكون سعيدا ، ولكنه فى الواقع
كان بائسا شقيا !.. ولقد كان يتوق أن يكون من الشخصيات
المعروفة المحبوبة . ولكن هاجسا راح يوحى إليه — فى إلحاح
كان فى هذه اللحظة أقوى منه فى أية لحظة من قبل — بأن
الشهرة الشعبية قد أفلتت منه . وكان يخشى أن يكون أهل
(كوالا سولور) قد عرفوا — ولو بمحض المصادفة — أن فى

عروق هذا الشخص الذى يقابل بالترحيب فى كل مكان ، دما من بلادهم !

وكان يعلم تماما ما ينبغى أن يتوقعه لو أنهم عرفوا ذلك ، فلن يقولوا عندئذ إنه مرح ودود ، بل سيقولون إنه عادى إلى أقصى حد .. وسيقولون كذلك انه مهمل ، وغير كفء ، كغيره من المولدين .. ولسوف يسخرون منه عندما يتحدث عن الزواج بسيدة من البيض ! .. يا له من إجحاف وغبن !.. أى فارق هذا الذى تحدثه هذه القطرة من الدم المحلى التى تجرى فى عروقه ؟!.. ان هذه القطرة بالذات ستحملهم على ان يكونوا على الدوام متحفزين ، انتظارا للفشل المرتقب فى اللحظة الحرجة . فان كل امرىء كان يوقن من أنه لا يمكن الاعتماد على الخلاسيين ، ومن ثم فقد أخذ يتوقع أن يتخلوا عنه ، عندما تحين هذه اللحظة ، إن آجلا أو عاجلا !.. كان يعرف ذلك ويوقن منه ، ولكنه راح يسائل نفسه ، فى تلك الليلة : ألا يكون فشل الخلاسيين راجعا إلى أن الفشل كان منتظرا منهم ؟! .. يا لهم من بؤساء مساكين ، لم تتح لهم أية فرصة !

وصاح ديك بصوت عال ، فانتبه « ايزارت » إلى أن الوقت قد مضى به بعيدا .. وبدأ يشعر بالبرد ، فأوى إلى مرقده .

وعندما أحضر له « حسن » الشاى — فى الصباح التالى — كان يشعر بصداع حاد . وعندما ذهب إلى حجرة المائدة لتناول الفطور ، لم يقو على أن يلقى نظره على شرائح اللحم

والبيض الموضوعة أمامه .. وكان هتشينسون — هو الآخر — فى حال غير طيبة ، فقال وهو يبتسم ليخفى تعبه : « أحسب أننا جعلنا من ليلة الأمس ليلة ليلاء ! » . فهتف ايزارت : « اننى أشعر كأننى فى جحيم ! » .. وهنا قال هتشينسون : « سأفطر بقدح من الويسكى والصودا » . ولم يكن ايزارت وهو يقبل على التهام اللحوم بشهية طيبة !

وقال كامبيون فى سخرية : « يا الله يا ايزارت ! .. لشد ما يبدو خيشوماك أسمرين !.. أبدا لم أر فى حياتى مثل هذه السمرة العجيبة ! » . فتضرج وجه ايزارت ، إذ كان اسمرار لونه نقطة حساسة بالنسبة له . ولكنه أرغم نفسه على أن يطلق ضحكة ، مظهرا البهجة ، وقال :

— الواقع أن لى جدة أسبانية ، واذكر أننى عندما كنت فى « هارو » ، تشاجرت مع أحد الصبية وضربته ضربا مبرحا لانه نعتنى بأنى « مولد » !

فقال هتشينسون : « انك أسمر اللون ! .. هل سألك أحد من الملايو عما إذا كان يجرى فى عروقك دم محلى ؟ » . فأجاب ايزارت متضاحكا : « أجل .. لعنة الله على جرأتهم !» .

* * *

وفى الصباح ، أقلع قارب بأمتعتهما ليسبقهما إلى مصب النهر ، وليخبر ربان السفينة « السلطان أحمد » — إذا قدر أن تصل قبل الموعد المقرر لها — أنهما كانا فى طريقهما إلى السفينة وكان على ايزارت وكامبيون أن يقلعا فورا ، حتى يصلا إلى

المكان الذى كان مقررا أن يقضيا الليل فيه ، قبل أن تمر موجة المد ، وهى موجة من مياه المد تندفع فى بعض الأنهار – بسبب خاصية فى الأرض – وكان النهر الذى يبحران فيه يتعرض لمثل هذه الموجة . وكان هتشينسون قد أبلغهما عنها فى الليلة الماضية .. وقد أبدى كامبيون – الذى لم يسبق له أن رأى شيئا كهذا – اهتماما كبيرا بأمرها . فقال هتشينسون: « انها من خير الموجات فى بورنيو ، وهى جديرة بالمشاهدة !» .

وابلغهما كيف أن الوطنيين يترقبون عادة اللحظة التى تأتى فيها الموجة فيمتطونها لتنقلهم بسرعة رهيبة تخطف الأنفاس خطفا . وقال لهما انه قام بهذه التجربة مرة واحدة . ثم أردف : « لن أعاود التجربة مرة أخرى ، فقد أخرجنى الرعب الذى شعرت به عن وعيى ! » .

وقال ايزارت : « لكم أود أن أجرب ذلك مرة ! » .

– إنها مثيرة إلى حد بالغ ، ولكن صدقونى إذا قلت إنكما إذا كنتما فى أحد القوارب المحلية ، ولم يعرف الوطنى الذى يقوده اللحظة المناسبة التى تهب فيها الموجة ، فانها لا تلبث أن تدهمكما وتلقى بكما فى تيار عارم . وعندئذ لا تكون هناك أية فرصة للنجاة !.. وفى رأيى أن المجازفة بالتعرض لها ليست من الرياضة فى شىء !

فقال كامبيون : « اننى اجتزت فى حياتى عددا كبيرا من الشلالات ! »

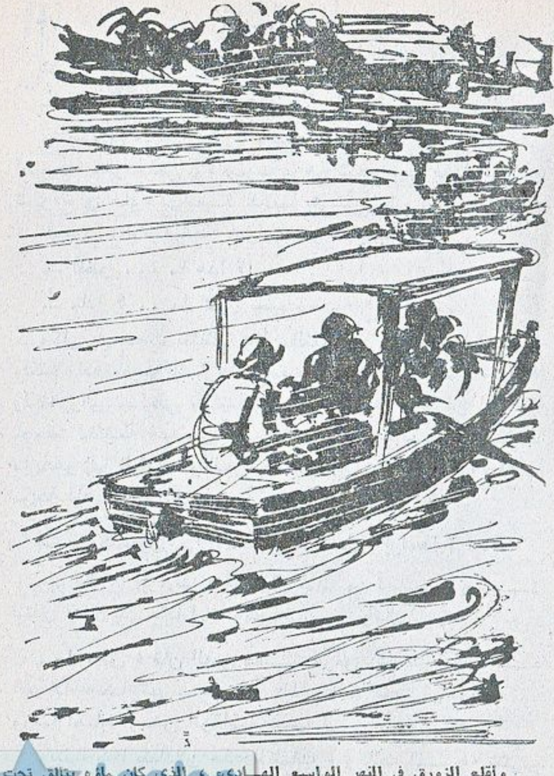
– كل الشلالات تعد تافهة إذا قيست بهذه الموجة . وما

عليك إلا أن تنتظر لتراها !.. انها من افظع ما عرفت !.. ألا تعلم أن مالا يقل عن عشرة من الأهالى يغرقون فى الموجة التى تدخل هذا النهر ، فى كل عام ؟

وجلسوا على مقاعد مريحة فى الشرفة ، حيث قضوا الشطر الأكبر من فترة الصباح . ثم أخذهما هيتشنسون فأراهما دار المحكمة . وأديرت كؤوس « الجن » بعد ذلك ، فشربوا كأسين أو ثلاثا .. وانتعش ايزارت ، فلما مد الطعام – فى النهاية – شعر بشهية رائعة .. وكان هتشينسون يطنب فى امتداح « الكارى » الذى يطهى فى الملايو ، فما ان وضعت الأطباق الساخنة – التى كان البخار يتصاعد منها – حتى أقبل الضيفان عليها ، وراحا يأكلان بشراهة .. وألح هتشينسون عليهما بالشراب ، وهو يقول : « ليس أمامكما – خلال الرحلة – غير النوم ، فلماذا لا تسكران ؟ » .

ولم يكن يطيق أن يتركهما يفارقانه بهذه السرعة ، فما كان أجمل أن يجتمع – بعد هذه الفترة الطويلة التى قضاها فى هذه البلاد – برجلين من البيض ويتحدث إليهما ، ولهذا راح يتلكأ فى الأكل ، ويلح عليهما فى تناول مزيد من الطعام . وقال لهما إنهما لن يجدا فى البيت الطويل – الذى ينزلان فيه خلال الرحلة – غير طعام تافه ، وغير شراب العرق فقط .

واقترح كامبيون مرة أو مرتين أن يشرعا فى الرحلة ، ولكن هتشينسون كان يستمهله مؤكدا له أن هناك متسعا من الوقت .. وكذلك فعل « ايزارت » ، إذ كان قد أحس بالسعادة والطمأنينة . وبعث هتشينسون فى طلب زجاجة



وأقلع الزورق فى النهر الواسع الهادىء ، الذى كان ماؤه يتألق تحت حرارة شمس بعد الظهر الساطعة ..

« البندكتين » الثمينة .. وكانوا قد شربوا بعضا منها فى الليلة السابقة ، فرأى أن يأتوا عليها معا قبل أن يغادراه !

وعندما رافقهما ــ فى النهاية ــ إلى النهر ، كانوا جميعا فى منتهى المرح ، ولم يكن أى منهم ثابت القدمين !.. وكانت تقوم فى وسط الزورق سقيفة ، وقد فرش هتشينسون حصيرة تحتها .. أما البحارة فكانوا من المسجونين ، وقد جىء بهم من السجن ليبحروا بالرجلين الأبيضين ، وقد ارتدى كل منهم مئزرا « سارونج » قذرا ، عليه علامة السجن . ووقفوا ممسكين بالمجاديف فى انتظار الراحلين .. وبعد أن صافح « ايزارت » و « كامبيون » هتشينسون ، تهالكا على الحصير !.

***

وأقلع الزورق فى النهر الواسع الهادىء ، الذى كان ماؤه يتألق تحت حرارة شمس بعد الظهر الساطعة ، فكأنه نحاس مصقول براق . وكان فى إمكانهما أن يريا من القارب ضفة النهر ــ على البعد ــ بأشجارها الخضراء المتشابكة . وشعر الاثنان بالنعاس ، ولكن « ايزارت » وجد متعة غريبة فى أن يقاوم قليلا ذلك التثاقل الذى أخذ يدب فى جسمه ، وقد استقر عزمه على ألا يدع النوم يغلبه قبل أن ينتهى من تدخين السيجارة المصنوعة من طباق « المانيلا » . وأخيرا ، كاد عقب السيجارة أن يحرق أصابعه ، فقذف به فى البحر ، وقال : « سأنعم بإغفاءة بديعة ! » .

فسأله كامبيون : « وما رأيك فى موجة المد ؟ »

ـ آه ، لا بأس !.. لا داعى لأن نضايق نفسينا بهذا !

وتثاءب فى صوت عال ، وشعر بأن مفاصله قد ثقلت حتى أصبحت كالرصاص .. ومرت برهة شعر فيها بخدر لذيذ ، ثم راح فى غفوة لم يعد خلالها يشعر بشىء !.. ولكن « كامبيون » أيقظه فجأة ، وأخذ يهزه صائحا :

ـ انظر ... ما هذا ؟

ـ ماذا ؟ .. ما الذى تتساءل عنه ؟

وكان يتحدث بتثاقل ، لأن النوم كان ما يزال يغالبه ، ولكنه تابع بعينيه إشارة « كامبيون » .. ولم يسمع شيئا ، ولكنه رأى ـ على مسافة ليست بالقريبة ـ قمتين أو ثلاثا لموجات متتابعة ، يلاحق بعضها بعضا .. ولم يكن فى منظرها ما يدعو إلى الخوف أو الجزع ، فقال ايزارت : « أوه .. أظنها موجة المد ! » .

فسأله كامبيون : « وماذا ترانا فاعلين إزاءها ؟ »

ولم يكن « ايزارت » قد أفاق تماما من نعاسه ، فابتسم للقلق الذى بدا جليا فى صوت كامبيون ، وقال له :

ـ لا تقلق ، فان الذين معنا يعرفون كل شىء عن هذه المسألة ، كما أنهم يعرفون كل المعرفة ما يجب أن يعملوه .. وربما أصابنا بعض الرذاذ فحسب !

وبينما كانا يتبادلان هذه الكلمات ، وكانت الموجة تقترب بسرعة كبيرة ، وقد سمع لها هدير كهدير بحر غاضب . ورأى

ايزارت أمواجا أكبر بكثير مما كان يتصور ، فلم يرتح إلى منظرها . وشد حزامه حول خصره ، حتى لا ينزلق سرواله (بنطلونه) القصير إذا تأرجح الزورق ..

ولم تكد تنقضى لحظة ، حتى داهمتهم الموجة .. كانت أشبه بجدار ضخم من الماء ، لاح أنه يرتفع شامخا فوقهم .. ولعل ارتفاعه كان يبلغ عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ، ولكنك لم تكن تستطيع قياسه إلا بالنسبة إلى فرعك ! .. وتبدى بجلاء أنه لا سبيل لأى زورق إلى أن يقاوم هذا الطوفان الجارف !

واندفعت الموجة الأولى فغمرتهم وأغرقتهم جميعا ، وملأت نصف الزورق بالماء .. وجاءت الموجة الثانية فى أعقاب الأولى مباشرة ، فلطمتهم !.. وأخذ البحارة يصرخون ويحركون المجاديف بجنون . وصاح مراقب الدفة مصدرا أمرا ، غير أن البحارة كانوا عاجزين فى وسط هذا السيل الطاغى ، وكان من المفزع لهم حقا أن يروا كيف كانوا يفقدون بسرعة كل سيطرة على الزورق .. فقد حولت قوة المياه اتجاه الزورق ، فأصبح فى وضع مستعرض فى النهر ، ثم حملته معها على قمة الموجه .. واقتربت موجة ضخمة أخرى ، ثم اندفعت نحوهم بقوة ، فغمرتهم . وبدأ الزورق يغرق ، فخرج « ايزارت » و « كامبيون » من تحت السقيفة ، حيث كانا مستلقيين ، وقد شعرا ـ على حين غرة ـ بأن الزورق راح يميد تحت أقدامهما ..

ووجدا نفسيهما يصارعان المياه ، وهى تحيط بهما وتدفعهما بقوة . وكان أول خاطر تبادر لذهن « ايزارت » هو أن يسبح

فى اتجاه الشاطىء ، ولكن خادمه « حسن » صاح به أو ناشده أن يتشبث بالقارب .. وحذا الجميع حذوه .

وصاح كامبيون ، يسأل ايزارت . « أأنت بخير ؟ »

فأجابه ايزارت قائلا : « أجل ، وها أنذا أنعم بالاستحمام !.»

* * *

وظن أن اضطراب الماء سينقطع — بعد أن مرت موجة المد، سارية فى النهر — وأنهم لن يلبثوا بعد بضع دقائق أن يخرجوا مرة أخرى إلى مياه هادئة . وقد نسى أنهم كانوا — فى الواقع — محمولين على قمة موجة المد الكبرى ، وقد أخذت الأمواج — التى أثارها اندفاعها — تتدافع نحوهم ، وتهاجمهم بعنف . فتشبثوا بحافة الزورق ، وبالقاعدة التى كانت السقيفة تقوم عليها . ثم مرت موجة أكبر ، فضربت القارب بقوة جعلته ينقلب ويهوى فوقهم . وأفلتت قبضاتهم ما كانوا يتشبثون به ، فراحوا يتخبطون .. وبدا لهم أنه لم يعد أمامهم غير قاع الزورق المقلوب يستطيعون التعلق به ، ولكنه كان أملس ، وكأنه مطلى بالشحم ! .. وقد حاول « ايزارت » عبثا أن يتشبث به . ولكن يديه كانتا تنزلقان عن هذا السطح الأملس ..

واستمر القارب ينقلب على كل جانب ، فأمسك ايزارت بحافته باستماتة .. ولكنه شعر به ينزلق من قبضته . وأخيرا نجح فى التعلق بالسقيفة . ومضى الزورق فى تقلبه ، وهو يدور ببطء .. وحاول مرة أخرى أن يمسك بأسفله ، ولكنه

كان يدور بانتظام رهيب !.. وظن أن السبب فى هذا راجع إلى أن الجميع كانوا يتعلقون بجانب واحد منه ، فحاول أن يحمل البحارة على الانتقال إلى الجانب الآخر ، ولكنه لم يستطع أن يحملهم على فهم الموقف ، فكان كل واحد منهم يصرخ ، وكانت الأمواج تنقض عليهم فى زئير رهيب مرعب !.. وكلما انقلب الزورق فوقهم ، كان ايزارت يندفع إلى جوف الماء ، ولا يرتفع إلا عندما تتيح له حافة الزورق وسقيفته فرصة التشبث بأى منهما ..

كان نضالا رهيبا !.. وكادت أنفاسه تنقطع ، وشعر بأن قواه أخذت تخور .. وكان يعرف أنه لم يكن يستطيع الصمود طويلا ، ولكنه مع هذا لم يشعر بخوف ولا جزع ، إذ أن التعب كان قد بلغ منه مبلغا لم يعد معه يهتم بما يحدث !

وكان « حسن » بجانبه ، فما لبث ايزارت أن أبلغه أن التعب قد برح به ، وأنه كان يرى أن خير ما يمكن عمله هو الاندفاع نحو الشاطىء ، إذ أنه لم يكن يبدو بعيدا بأكثر من ستين ياردة . ولكن حسنا ناشده ألا يفعل ذلك .. وكانوا ما يزالون محمولين على هذه الأمواج الصاخبة العارمة .. وظل الزورق يدور ويدور ، وهم يتخبطون فوقه ، وكأنهم سناجب فى قفص ! .. وابتلع « ايزارت » كمية كبيرة من الماء ، وشعر بأنه أوشك أن يهلك !

ولم يكن فى مقدور « حسن » أن يقدم له أية مساعدة ، ولكن وجوده كان مدعاة لاطمئنانه . فقد كان ايزارت يعرف

أن هذا الفتى قد ألف الماء طول حياته ، وأنه لهذا كان سباحا قويا .

وشعر ايزارت ـ لدقيقة أو دقيقتين ـ أن قاع الزورق ظل إلى أسفل، فلم يدر سبب هذا ، ولكنه تمكن ـ فى هذه الحالة ـ من التشبث بحافة الزورق . ويالها من لحظة عظيمة ، استطاع فيها أن يتنفس !.. وشاهد عندئذ قاربين صغيرين يقلان بعض أهل الملايو . وكانا محمولين على هذه الأمواج ، وقد مرا كلمح البرق ، فصاح ركاب زورق ايزارت يطلبون النجدة ، ولكن الملايويين أشاحوا بوجوههم ومضوا فى طريقهم .. ولقد رأوا الرجلين الأبيضين ولكنهم لم يشاءوا أن يزجوا بأنفسهم فيما قد يعود عليهم بمتاعب .. وكان من المؤلم حقا أن يريا هؤلاء الناس يمرون بهما ويتركونهما دون ان يهتما بسلامتهما !

وعلى حين فجأة ، عاد الزورق يدور ، ويدور ، ويدور ببطء .. وعاد الزحف ، والافلات ، والتسلق ، تتكرر فى إرهاق وضنى مؤلمين .. ولكن الفترة القصيرة التى كان ايزارت قد قضاها متشبثا بحافة القارب ـ دون كفاح ـ ساعدته كثيرا ، وأطالت من فترة نضاله الجديد .. وشعر ـ مرة أخرى ـ بأن أنفاسه تتقطع ، وأحس بصدره يكاد ينفجر .. ونفدت قواه ، ولم يعد يدرى ما إذا كان قد بقى منها ما يمكنه من السباحة إلى الشاطىء ..

وعلى حين غرة ، سمع صرخة .. وتبين صوت كامبيون يصيح قائلا : « ايزارت، النجدة !.. النجدة ! » .

وكانت صرخة ألم هدت أعصاب ايزارت .. وأخذ يردد فى نفسه : « كامبيون !.. كامبيون ! » .. وماذا يهمه من أمر كامبيون ؟! .. واستولى عليه الخوف .. خوف حيوانى أعمى ، أشاع فيه قوة جديدة . وإذا هو لا يجيب النداء والاستصراخ ، وإنما قال لحسن : « ساعدنى ! أنقذنى !.. أسرع ! أسرع ! »

وفهم حسن جلية أمره فى الحال .. وبمعجزة ما ، ظهر أحد المجاديف بالقرب منهما ، فأمسك به حسن ، ودفع به إلى « ايزارت » . ثم وضع يده تحت ذراع « ايزارت » ، وابتعدا عن الزورق .. وكان قلب « ايزارت » يدق بعنف ، وأنفاسه تنبعث بعناء . وأحس بضعف بالغ .. وأخذت الموجات تلطمه فى وجهه .. وبدأ الشاطىء وكأنه على بعد سحيق ، فلم يخالجه رجاء فى أن يستطيع الوصول إليه ..

وفجأة ، صاح الخادم قائلا إنه استطاع أن يلمس قاع النهر، مبشرا بأنهما بلغا بقعة ضحلة ، فأنزل ايزارت ساقيه ، ولكنه لم يشعر بشىء تحته .. وتحول يسبح ويضرب الماء بذراعيه بضع ضربات واهنة، وعيناه مركزتان لا تتحولان عن الشاطىء. وعاد يجرب حظه مرة أخرى ، فأنزل ساقيه ومدهما فى الماء . وإذ ذاك شعر بقدميه تغوصان فى طمى كثيف . وامتلأ قلبه فرحا وحمدا . وأخذ يتقدم ويخوض الماء متخبطا ، وإذا الشاطىء على قيد ذراع منه . وغاصت ساقاه فى الطمى إلى ركبتيه . فناضل مستيئسا لكى يخرج من هذه المياه القاسية .

وأخيرا ، وجد أمامه بقعة مسطحة من الأرض ، مكسوة بحشائش طويلة ، فارتمى وحسن عليها .. واستلقيا برهة بلا حراك ، وكأنهما ميتان ، وقد كساهما الطمى الأسود من قمتى راسيهما إلى أدنى أقدامهما !

* * *

ولكن عقل ايزارت لم يلبث أن بدأ يعمل من جديد . وإذا بوخز أسى مفاجىء يهز كيانه .. لقد غرق « كامبيون » ! يا له من أمر مروع ! .. ولم يدر كيف سيتسنى له أن يشرح هذه النكبة عندما يعود إلى (كوالا سولور) .. لسوف يوجه إليه اللوم ، إذ كان ينبغى له أن ينتبه إلى موجة المد ، والمويجات التى تثيرها ، فيأمر قائد الدفة بأن يحول الزورق إلى الشاطىء عندما رأى هذه الموجات مقبلة .. ولكن ذلك لم يكن خطأه ، وإنما كان خطأ قائد الدفة الذى كان يعرف النهر خير معرفة . فلماذا ــ بحق السماء ــ لم يخطر له أن يخرج إلى بر الأمان ؟.. وكيف كان بوسعه أن يتوقع أنه فى الإمكان امتطاء هذا السيل العرم ؟!

وأخذت ركبتا « ايزارت » ترتجفان عندما تذكر جدار المياه الضخم الذى داهمهم . ورأى لزاما عليه أن يعثر على الجثة ، وأن يأخذها إلى (كوالا سولور) .. ولم يكن يدرى ما إذا كان أحد من البحارة قد غرق كذلك .. وبلغ من ضعفه أنه لم يستطع حراكا ، ولكن حسنا كان قد قام ونفض الماء عن « السارونج » ، وأخذ ينظر إلى النهر ، ثم تحول بسرعة إلى ايزارت وقال :

ــ سيدى .. هناك قارب يقترب !

ولكن الحشائش الطويلة حالت دون أن يرى ايزارت شيئا . فاكتفى بأن قال لحسن : « نادهم ! » .

وغاب حسن عن النظر واتجه نحو جذع شجرة كانت تميل على الماء ، فتسلقه ، وأخذ يصيح ويلوح بيديه . وما لبث « ايزارت » أن سمع ــ فى النهاية ــ أصواتا .. كانت أصوات حديث سريع بين الخادم وركاب القارب ، ثم عاد حسن فقال لايزارت :

ــ لقد شاهدونا عندما انقلب الزورق بنا ، فعادوا إلينا حالما مرت موجة المد .. انهم يقولون إن هناك بيتا طويلا على الجانب الآخر ، فاذا عبرنا النهر معهم قدموا لك « السارونج » والغذاء .. ويمكننا أيضا أن ننام هناك !

على أن ايزارت شعر ــ لبرهة ــ بانه لم يعد يستطيع أن يطمئن على نفسه مرة أخرى ، وسط هذه المياه الغادرة . وأخيرا سأل الخادم :

ــ وما أمر السيد الأبيض الآخر ؟

ــ إنهم لا يعرفون عنه شيئا .

ــ إذا كان قد غرق ، فعليهم أن يبحثوا عن جثته !

ــ هناك قارب آخر خرج إلى عرض النهر .

ولم يعرف ايزارت ما كان ينبغى أن يفعل ، فقد كان مشتت الحس والحركة . ووضع حسن ذراعه تحت إبطه ورفعه



ووضع حسن ذراعه تحت ابطة ورفعه وأوقفه على قدميه . ثم سعى به وسط الحشائش الكثيفة ..

وأوقفه على قدميه . ثم سعى به وسط الحشائش الكثيفة ، متجها إلى حافة الماء . وهناك ، رأى « ايزارت » القارب الصغير الذى كان يستقله اثنان من « الدياك » . وكان النهر قد عاد إلى هدوئه ، بعد أن مرت الموجة الكبرى . وما كان لإنسان أن يتصور أن هذا السطح الهادىء كان منذ لحظات اشبه ببحر مصطخب !

وأعاد الرجلان « الدياك » على مسمع « ايزارت » ما قالاه للخادم حسن .. ولم يكن فى ميسور ايزارت أن يحمل نفسه على الكلام ، إذ كان يشعر بأنه لن يتمالك أن يجهش بالبكاء ، إذا هو حاول أن ينبس بكلمة واحدة !

وساعده حسن فى الصعود إلى القارب ، فأخذ الوطنيان يجدفان . وشعر ايزارت بأنه فى أشد الحاجة إلى ما يدخنه ، ولكن سجايره وعلبة الثقاب كانت مبتلة فى جيبه .. وخيل إليه أن طريق عبور النهر لا يكاد ينتهى !.. وكان الليل قد حل ، فلما وصلوا إلى الضفة الأخرى ، كانت النجوم المبكرة تشع فى السماء . ونزل « ايزارت » إلى الشاطىء ، فأخذه أحد الرجلين « الدياك » وذهب به إلى المنزل الطويل . أما حسن ، فأخذ المجداف الذى تركه الرجل ، وانطلق بالقارب — بمعونة الرجل الآخر — إلى عرض النهر .

***

وجاء رجلان أو ثلاثة رجال وبعض الأطفال لاستقبال « ايزارت » . وما لبث أن تسلق صاعدا إلى المنزل ، وسط أصوات مختلطة انطلقت بالحديث فى آن واحد ، فكأنه كان فى

برج بابل . حتى إذا تسـلق السلم ، اقتيــد ـــ وسط آيات الترحيب والتعليقات المثيرة ـــ إلى المكان الذى كان شبان القرية ينامون فيه عادة . وفرشت الحصائر المصنوعة من الخيزران بسرعة ، فأعد منها فراش ألقى « ايزارت » بنفسه عليه .

وأحضر له احد الموجودين دنا من العرق ، فشرب جرعة كبيرة ، نزلت جوفــه وكأنها لهب من نار ، بعــد أن كوت حنجرته . ولكنها مالبثت أن بعثت الحرارة فى قلبه . ثم خلع ملابسه ، وارتدى « الســارونج » الذى قدمه له أحد الحضور ولمح ـــ بمحض المصادفة ـــ القمر الأصفر اللون ، وقد بزغ على شكل هلال ارتكزعلى ظهره، فبعث مرآه الغبطة والسرور فى نفسه .. ولم يتمالك أن يفكر فى انه كان من المحتمــل ان يكون الآن جثة طافية على النهر ، يسحبها المد معه !.. وخيل إليه أن القمر لم يبد له يوما بمثل الجمال الذى تراءى له اذ ذاك !

وبدأ يحس بالجوع ، فذهبت إحدى النسوة إلى الغرفة لتعد له الأرز . وكان قد تمالك نفسه فى تلك الأثناء ، وشرع يفكر من جديد فى الايضاحات التى سيقدمها فى (كوالا سولور) .. ورأى انه لم يكن لأى إنسان أن يلومه لأنه نام فى القــارب .. ولسوف يؤكــد لأولى الأمر انه لم يكن مخمــورا ، ولن يتردد هتشينسون فى أن يظاهــره على ذلك !.. ثم ، كيف كان له أن يتصور أن يكون قائد الدفة بمثل هذا الغباء ؟!.. إن المسألة كلها كانت مجرد سوء حظ !

ومع ذلك فانه لم يكن يستطيع التفكير فى « كامبيون » دون ان يشعر برجفة !

وأخيرا ، قدم إليه طبق من الأرز . وبينما كان يهم بتناوله، دخل رجل مهرولا ، وهو يصيح قائلا : « لقد حضر الســيد الأبيض ! » .. فأمسك ايزارت عن الطعام ، وهتف أخوذا : « أى سيد ؟! »

وقفز واقفا .. وسمع هرجا عند المدخل ، فخطا نحوه . وبرز حسن من الظلام مهرولا صوبه . وعندئذ سمع صوتا يقول :

ـــ ايزارت ! .. أانت هنا ؟

ذلك كان صوت « كامبيون » الذى تقدم منه وهو يقول :

ـــ حسنا !.. ها نحن قد اجتمعنا مرة أخرى . لقد كان منظــرا جميلا ، والله .. أليس كذلك ؟ .. الظاهر أنك قــد استرحت واستردت جأشك وهدوءك .. وهذا ما ســوف تفعله بعد جرعة من الشراب !

وكانت ملابسه المبتلة ملتصقة بجسمه .. كما كان ملطخــا بالطمى ، مشعث الهيأة . ولكنه كان فى خير حالاته النفسية ! .. وعاد يقول :

ـــ لم أكن أعلم إلى أى مكان كانوا يقودوننى . وكنت قد روضت نفسى على أننى قد أضــطر إلى أن أقضى الليل على ضفة النهر .. وقد ظننت انك غرقت !

فقال له ايزارت : « هاك بعض العرق ! »

ووضع كامبيون شفتيه على الدن وشرب . ثم غص حلقه، فأخذ يدمدم لحظة ، عاود بعدها الشرب . ثم قال : « ياله من شراب قذر ، ولكن ما أشد مفعوله ! » .

ونظر إلى ايزارت فى ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنانه المهشمة ، الحائلة اللون ، وقال :

ـــ يبدو لى أيها العزيز أن الاستحمام قد يفيدك وينعشك !

ـــ سأستحم فيما بعد !

حسنا ! .. وكذلك سأفعل أنا الآخر ، فأرجو أن تطلب منهم إحضار « سارونج » لى ! .. ولكن كيف قدر لك أن تنجو من النهر ؟

ولم ينتظر جوابا ، وإنما مضى فى حديثه قائلا :

ـــ لقد ظننت أننى انتهيت ، ولكنى مدين بحياتى إلى هذين الشهمين !

وأشار إلى اثنين من المسجونين « الدياك » ، تبين ايزارت أنهما كانا ضمن بحارة الزورق .. واستطرد كامبيون فى حديثه:

ـــ كانا معلقين على ذلك القارب المنكود ، كل منهما إلى أحد جانبى القارب . ولم يكن فى ميسورى إذ ذاك أن أصمد دقيقة أخرى ، فأشارا إلى . وفهمت أنهما أرادا أن يقولا إنه كان فى إمكاننا أن نجازف فنحاول الوصول إلى الضفة ، ولكنى لم أكن أعتقد أن لدى القوة الكافية ، فما شعرت فى حياتى قط بمثل هذا الضعف . ولست أدرى كيف دبرا ما فعلا ، وإنما الذى

ادريه هو انهما حصلا ـــ بطريقة مّا ـــ على الحصيرة التى كنا مستلقيين عليها ، وعمدا إلى لفها فجعلا منها عمودا .. والحق انهما شهمان ، فلست أدرى لم لم ينجوا بنفسيهما دون أن يشقيا بأمرى ؟ ! .. ولكنهما أعطيانى الحصيرة ، فخيل إلى أنها حزام إنقاذ ضعيف لا يصلح .. غير أننى رأيت بعينى صدق المثل القائل بأن الغريق يتشبث بأية قشة ! .. فلقد تشبثت بالحصيرة فعلا ، بينما أحاط الرجلان ، وأخذا يجرانى إلى الشاطىء بكل حيلة وسعتهما !

❋ ❋ ❋

وكان الخطر الذى نجا منه « كامبيون » قد أشاع فيه انفعالا ، وأطلق لسانه بالثرثرة . ولكن « ايزارت » لم يكن يصغى إلى ما يقول ، وإنما هيأ له خياله أنه كان يسمع من جديد ، تلك الاستغاثة الحافلة بالذعر والهلع ، التى أطلقها كامبيون مستنجدا ، وهما فى النهر .. وكان الصوت واضحا ، وكأنه ما يزال يدوى فى الفضاء المحيط به ، فشعر « أيزارت » بالرعب ودب الفزع الأعمى فى جميع أوصاله ! .. وكان كامبيون ما يزال ماضيا فى الحديث ، فساءل ايزارت نفسه : أتراه كان يتحدث ليخفى حقيقة ما كان يجول بأفكاره ؟ ..

وتطلع إلى العينين الزرقاوين محاولا أن يقرأ المعانى المستترة وراء هذا السيل المتدفق من الكلام .. وأخذ يسائل نفسه : أفكان فى العينين وميض قاس ، أم كان فيهما شىء من السخرية اللاذعة ؟ .. وهل كان « كامبيون » يعرف أن « ايزارت » قد هرب منه ، وتخلى عنه ، وتركه يلاقى مصيره وحيدا ؟

وتضرج وجهه ، ولكنه حاول أن يقتنع نفسه بأنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئا ما . ففى لحظة كهذه ، لا يفكر الإنسان إلا فى نفسه ، وليأخذ الشيطان الآخرين ! .. ولكن ما الذى سيقوله المسئولون فى (كوالا سولور) ، إذا أبلغهم كامبيون أن ايزارت هجره ؟ ! .. لقد كان من واجبه أن يبقى ، وقد أصبح يود من صميم قلبه لو أنه كان قد بقى .. ولكن حكم الظرف ــ إذا ذاك ــ كان اقوى من نفسه ، فلم يستطع البقاء .. فهل يلومه احد ؟! .. لا يمكن لأى شخص رأى هذا السيل العرم المخيف ، أن يلومه !

وقال لكامبيون : « إذا كنت جوعان مثلى ، فمن الخير أن تشاركنى هذا الأرز ! » .

واكل كامبيون بنهم ، أما ايزارت فانه لم يلبث ــ بعد أن ملأ فمه مرة أو مرتين ــ أن تبين أن شهيته للأكل قد ولت .. وكان كامبيون يواصل الحديث ، فأخذ ايزارت يصغى فى شك .. وشعر بأنه يجب أن يكون يقظا متنبهـا ، فشرب المزيد من العرق . وبدأ يشعر بأنه مخمور قليلا .

ولم يلبث ايزارت أن قال : « لسوف أتعرض لضجة لعينة عندما نصل إلى كوالا سولور ؟ » .. فقال كامبيون : « لست أدرى ما الذى يجعلك تتوقع هذا ! » .

ــ لقد كلفت بأن أعنى بك وأرعاك ، ولن يرى المسئولون أنها كانت براعة منى أن أعرضك لأن توشك على الغرق .

ــ لم يكن ذلك خطأك ، وإنما هو خطأ قائد الدفة المغفل اللعين .. ثم ان أهم ما فى الأمر ــ مع ذلك ــ هو أننا نجونا ..

يا إلهى !.. لقد ظننت مرة أننى هلكت ، فصرخت أناديك .. ولست أدرى ما إذا كنت قد سمعتنى أم لا !

ــ لا . لم اسمع شيئا ، فقد كانت هناك ضجة كبيرة .. اليس كذلك ؟

ــ لعلك كنت قد تمكنت من الافلات قبل ذلك .. فلست أعرف متى قدر لك أن تفلت !

وتطلع إليه ايزارت بحدة . وخيل إليه أن فى عينى «كامبيون» نظرة غريبة ، فقال : « لقد كان ثمة ارتباك شديد .. ورحت أغوص وأطفو . ثم ألقى خادمى بمجداف إلى ، وأوحى إلى بأنك كنت على ما يرام .. بل قال لى إنك خرجت إلى الشاطىء!»

وأمسك « ايزارت » عن الكلام ، وقــد فطن إلى أمر : المجداف ؟ ! .. كان من الواجب عليه أن يعطى المجـداف لكامبيون ، وأن يطلب إلى حسن ــ وهو السباح القوى ــ أن يقدم له المساعدة ! .. ولكن ، أكان الوهم هو الذى أوحى إليه مرة أخرى أن كامبيون كان يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة ، وهو يتكلم ؟

وقال ايزارت : « وددت لو أننى كنت أكثر نفعا لك ! » .

ــ آه ، إننى موقن من أنك كنت فى موقف لا يتيح لك سوى العناية بنفسك !

* * *

وأحضر الزعيم إليهما كؤوس العــرق ، فشربا معا قدرا كبيرا . وبدأ رأس ايزارت يدور ، فاقترح أن يذهبا للنوم . وكان ثمة فراشان قد أعدا لهما ، وبسطت فوقهما كلتان ..

وكان لابد لهما من أن يقلعا مع الفجر ، ليستكملا رحلتهما النهرية .. وكان فراش كامبيون مجاورا لفراش ايزارت ، فإن هى إلا دقائق معدودات ، حتى سمع هذا غطيط الأول ، إذ استغرق فى النوم منذ اللحظة التى استلقى فيها على فراشه! .. فى حين راح شباب المنزل الطويل ، والسجناء — ملاحو الزورق — يقضون شطرا طويلا من ليلهم فى السمر .

وشعر « ايزارت » بألم فظيع فى رأسه ، ولم يستطع أن يفكر فى أمره ! .. وعندما أيقظه حسن مع بزوغ الفجر ، خيل إليه أنه لم ينم .. وكانت ملابسهما قد غسلت وجفت ، ومع ذلك فقد كانا فى مظهر رث مزر ، عندما سارا فى الطريق الضيق المؤدى إلى النهر ، حيث كان الزورق فى انتظارهما ..

وسرعان ما أقلع بهما الزورق يتهادى .. وكان الصباح جميلا ، وتلك المساحة الممتدة أمامهما من الماء الهادىء ، تلمع تحت ضوء البكور .. فهتف كامبيون : « يا إلهى ، ما أجمل أن يكون المرء على قيد الحياة ! »

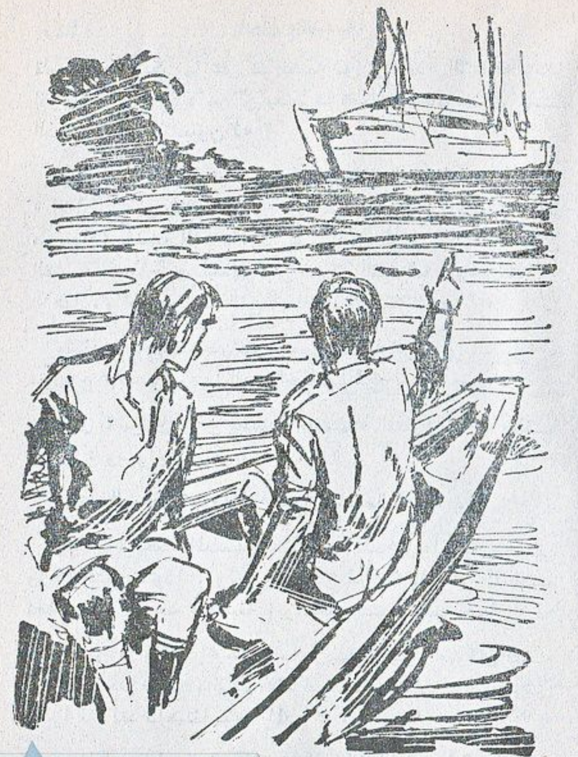
وكان مشعثا ، نامى اللحية .. وراح يعب الهواء فى أنفاس طويلة ، وقد انفرج فمه بعض الشىء ، حتى لتستطيع أن تدرك من منظره أنه كان يجد فى استنشاق الهواء لذة ضافية ، ومن ثم فقد راح يستنشقه فى نهم وقوة ليملأ به رئتيه ، وقد بدا مبتهجا بمنظر السماء الزرقاء ، وأشعة الشمس الوضاحة ، وخضرة الأشجار اليانعة !

وشعر « ايزارت » نحوه بحقد ، إذ داخله يقين بأن خلقه كان — فى هذا الصباح — مغايرا لما كان عليه من قبل . ولم

يكن « ايزارت » يدرى ما ينبغى عليه أن يفعل ! .. وتمنى لو أنه استطاع أن يلوذ برحمة كامبيون ! .. لقد سلك مسلكا خسيسا مزريا ، ولكنه ندم على ذلك ، وبات على استعداد لأن يجود بكل شىء فى سبيل أن تتاح له فرصة جديدة ! .. ومع أن أى امرىء غيره ما كان ليفعل سوى ما فعل هو ، إلا أنه أيقن من أن « كامبيون » خليق بأن يقضى عليه قضاء مبرما ، لو أنه كشف عما حدث منه ! .. إنه — إذ ذاك — لن يستطيع البقاء فى (سمبولو) ، وسيغدو اسمه ملطخا بالوحل فى (بورنيو) ومستعمرات المضايق .. إنه لو اعترف لكامبيون ، لكان بوسعه — يقينا — أن يحصل منه على وعد بأن يعقل لسانه . ولكن .. أترى كامبيون يبر بالوعد حقا ؟! ..

وأخذ يتأمله : لقد كان رجلا ضئيل الجسم ، مراوغا ، متقلبا ، فكيف يركن إليه ؟ .. وفكر « ايزارت » فيما قاله « كامبيون » فى الليلة السابقة .. إنه لم يقل الحقيقة فى الواقع ، ولكن منذا الذى يستطيع أن يعرف ذلك ؟ .. أو ، منذا الذى يستطيع — على أية حال — أن يثبت أنه لم يكن يعتقد — مخلصا ، صادقا — أن كامبيون كان قد نجا وصار فى مأمن ؟ ..

ومهما يقل كامبيون فلن يكون هناك غير كلامه ليعارض كلام « ايزارت » ، وفى إمكان هذا أن يضحك من أقوال كامبيون ، وأن يهز كتفيه ، وأن يقول إن كامبيون قد فقد صوابه ، فلم يكن يدرى عم يتكلم ! .. ثم إنه — فوق هذا — لم يكن موقنا من أن كامبيون لم يصدق روايته ، فما عاد —



وصاح كامبيون فجأة : « ها هى ذى ! » فنظر ايزارت حوله .. كان القارب قد بلغ مصب النهر ..

فى هذا الصراع الرهيب فى سبيل الحياة ـ يملك أن يوقن من شىء !.. وكان يشعر برغبة قوية تغريه بالعودة إلى الموضوع، ولكنه خشى أن يثير شك كامبيون ، إذا هو فعل ذلك . ومن ثم فقد كان من الواجب عليه أن يحفظ لسانه ، فقد كانت فى ذلك فرصته الوحيدة للنجاة .. حتى إذا عاد إلى « كوالا سولور » ، حرص على أن يكون هو البادىء برواية القصة !

وقال كامبيون : « لو أننى وجدت شيئا أدخنه ، لاكتملت سعادتى الآن ! » .

ـ سنستطيع أن نجد بعض السجاير الرديئة ، على ظهر السفينة .

ـ ياللبشر من مخلوقات جائرة !.. لقد فرحت ـ فى بادىء الأمر ـ لأننى على قيد الحياة ، فلم أفكر عندئذ فى شىء آخر ، ولكنى بدأت الآن آسف على ضياع نقودى وصورى وأدوات الحلاقة !

وصاغ ايزارت الفكرة التى كانت تقبع فى مؤخر رأسه ولكنه ظل ـ طيلة الليلة السالفة ـ يأبى السماح لها بالتسرب إلى عقله الواعى .. فاذا بها تتخذ هذا الشكل .

« ودت من الله لو أنه كان قد غرق ، فكنت ـ إذ ذاك ـ أغدو فى أمن وسلامة ؟!

* * *

وصاح كامبيون فجأة : « ها هى ذى ! » .

فنظر ايزارت حوله .. كان القارب قد بلغ مصب النهر . ورأى الباخرة « السلطان أحمد » تنتظرهما ، فغاص

قلبه عندما تذكر ما كان قد نسيه من أن لهذه السفينة ربانا إنجليزيا ، وانه لابد من أن يعرف قصة مغامرتهما . فما الذى سيقوله كامبيون له ؟

وكان ربان السفينة يدعى « بريدون » ، وقد اعتاد « ايزارت » أن يلتقى به كثيرا فى (كوالا سولور) . وكان رجلا صريحا ، خفيف الروح ، ذا شاربين أسودين . وإذ رأى القارب ، صاح بهم يحثهم على سرعة التجديف ، وهو يقول : « هيا .. أسرعوا ، فاننى فى انتظاركم منذ الفجر ! »

ولكنه بهت لمنظر صاحبينا حين صعدا إلى ظهر السفينة ، فقال . « عجبا .. ما الذى أصابكما ؟ » .

فقال كامبيون وهو يبتسم ابتسامته الماكرة : « أعطنا شرابا ، وسوف تسمع كل شىء ! »

فهتف الربان مشوقا : « هيا .. تعاليا ! » .

وجلسوا تحت المظلة ، وعلى المائدة زجاجة ويسكى وزجاجات الصودا . وأصدر الربان أمرا ، فان هى إلا بضع دقائق حتى أقلعت السفينة ، وانبعث ضجيج محركاتها .

وشعر « ايزارت » بأن عليه أن يقول شيئا . وكان فمه جافا إلى حد فظيع ، برغم الشراب الذى احتساه .. وقال أخيرا : « لقد داهمتنا موجة المد ! » .

ــ يا إلهى هل حدث هذا حقا ؟.. إنكما لسعيدا الحظ لأنكما لم تغرقا . فماذا حدث ؟

وكان يوجه الخطاب إلى « ايزارت » لأنه كان يعرفه . ولكن كامبيون هو الذى تولى الرد ، بينما ظل ايزارت يصغى فى انتباه !..

وتحدث كامبيون ــ بضمير الجمع ــ عندما روى الجزء الأول من القصة . ولكنه ما لبث أن استخدم ضمير الفرد عندما وصل فى حديثه إلى اللحظة التى سقطوا فيها إلى الماء .. وبعد أن كان يتحدث عما « كنا نفعله » ، أصبح يتحدث عما « جرى لى » ، مغفلا « ايزارت » فى هذا الجزء من القصة .. ولم يدر ايزارت أيرتاح إلى هذا أم ينزعج ؟.. لماذا لم يكن يشير إليه بشىء ؟.. أذلك لأنه لم يكن يفكر فى شىء غير نفسه ، خلال ذلك النضال المميت فى سبيل الحياة ؟ أو .. أتراه كان يعرف ؟!.. يعرف ما كان من مسلك « ايزارت » فعلا !

وتحول الربان « بريدون » إلى « ايزارت » ــ بعد ذلك ــ فسأله : « وماذا حدث لك أنت ؟ » .

وهم « ايزارت » بأن يجيب ، ولكن « كامبيون » سبقه إلى الكلام قائلا :

« كنت إلى وقت وصولى إلى الجانب الآخر من النهر أعتقد انه غرق !.. ولست أعرف كيف نجا ، بل إننى لأعتقد أنه هو نفسه لا يعرف كيف تسنى له هذا ! »

لماذا قال كامبيون ذلك ؟.. ووقع نظره على عينى كامبيون ، فتأكد عندئذ من أن فيهما بريقا ينم عن طرب !.. وكان من

الفظيع حقا أن يجد نفسه غير واثق من أمر كامبيون .. وأحس بالخوف .. وتولاه الخجل . وأخذ يسائل نفسه : ترى هل بوسعه أن يقود دفة الحديث ــ سواء الآن أو فيما بعد ــ بحيث يسأل كامبيون عما إذا كانت هذه هى عين القصة التى يعتزم أن يرويها فى (كوالا ســولور) ؟.. ذلك لأنها كانت خالية من أى شيء يثير ظنون أى أحد .. ولكن ، إذا لم يقدر لأحد أن يعرف الحقيقة فان « كامبيون » كان يعرفها !.. لكم كان خليقا به أن يقتله !

وقال الربان : « أعتقد أنكما سعيدا الحظ جدا ، لأنكما ما زلتما على قيد الحياة ! » .

وكانت المسافة إلى (كوالا سولور) قصــيرة .. وبينما كانت السفينة تمخر مياه نهر (سمبولو) ، أخذ ايزارت يرقب الشاطئين فى كآبة وكمد ، وقد ظهرت على الجانبين الحشائش التى كانت المياه ترتطم بها .. ووراءها كانت ثمة غابة كثيفة خضراء ، وقد تناثرت بين أشجار الفاكهة بعض منازل أهل الملايو .

* * *

وحل الليل عندما القت السـفينة مرسـاها . وصـعد « جورنج » ــ مندوب البوليس ــ إلى ظهر السـفينة . فصافحهما . وكان يقيم فى « الاستراحة » الحكومية ــ التى كان مقررا أن ينزلا فيها ــ فى تلك الفترة . وإذ شرع فى أداء مهمته وتفقد الركاب من أبناء البلاد ، أنبأهما بأنهما كانا مقدمين

على لقاء شخص آخر يدعى « بورتر » ، فى الاستراحة ، وأنهم جميعا سيتقابلون فى وقت العشاء .

وأخذ الخدم يعنون بمتاعهما وينقلونه .. وسار «كامبيون» و « ايزارت » إلى الاســتراحة ، فبــادرا إلى الاســتحمام واستبدال ملابسهما . وفى الساعة الثامنة والنصف ، اجتمع الأربعة فى القاعة العامة لتناول بعض المشروبات !

وقال جورنج وهــو يدخل : « ما هــذا الذى أخبرنى به « بريدون » من أنكما كنتما موشكين على الغرق ؟ »

فشعر ايزارت بأن وجهه قد تضرج .. وقبــل أن يجيب بشيء انبرى كامبيون للكلام ، وقد بدا جليا لايزارت أنه كان يبغى البدء بالكلام لكى يقدم القصة كما يروق له !.. وشعر بخجل شديد ، فما من كلمة واحدة انطوت على اســتخفاف به .. بل ما من كلمة عنه إطلاقا !.. وساءل نفسه : ألم ير هذان الرجلان اللذين كانا يصغيان ــ جورنج وبورتر ــ ما يدعو إلى الاستغراب ، لإقصائه عن القصة ، بهذا الشــكل ؟!.. وراح يتفرس فى « كامبيون » وهو ماض فى سرد القصــة .. كان يرويها بروح مرحة ، ولم يحاول إخفاء الخطر الذى كانا فيه ، ولكنه جعل منه موضــوع فــكاهة وتنــدر ، حتى أن المستمعين ضحكا من هذا المأزق الذى وجدا نفسيهما فيه !

وقال كامبيون : « والأمر الذى يضحكنى ــ منــذ ذلك الحين ــ هو أننى عندما خرجت إلى الشاطىء الآخر ، كان الطمى يكسونى من رأسى إلى أخمص قدمى .. وشعرت بأن من الجدير

بى حقا أن أقفز إلى النهر لاغتسل ، ولكنى شعرت بأننى — كما تقران — قد قضيت فى هذا النهر اللعين زمنا أطول مما أردت فى أى يوم من أيام حياتى . فقلت لنفسى : « لا بحق السماء ، سأظل متسخا ! » . وعندما وصلت إلى البيت الطويل ، ورأيت ايزارت فى الحال ذاتها ، أدركت أنه شعر بعين الشعور الذى خالجنى ! » .

فضحكوا ، وأرغم « ايزارت » نفسه على الضحك . ولاحظ أن « كامبيون » روى القصة مستخدما عين الكلمات والتعبيرات التى استخدمها عندما رواها لربان السفينة «السلطان أحمد» . وأدرك أنه لم يكن هناك غير تفسير واحد لهذا ، ذلك هو : أن كامبيون كان يعرف كل شىء ، وقد فكر ودبر القصة التى سيرويها ، حرفا بحرف !.. وكان دهاء حقا من « كامبيون » أن يتوخى الدقة فى سرد الوقائع وإن كان قد أغفل كل شىء من شأنه أن يضير « ايزارت » . ولكن : لماذا كان يمسك يده عن أن يبطش به ؟.. إنه لم يكن من النوع الذى لا يشعر بأى سخط أو كراهية نحو الشخص الذى هجره بقسوة فى لحظة الهلاك المريع !

وعلى حين غرة ، أومضت الفكرة فى رأس ايزارت ، ففهم جلية الأمر .. إن كامبيون كان يحتجز الحقيقة ليبلغها للمقيم « ويليس » !.. وارتجف ايزارت عندما فكر فى مواجهة « ويليس » . صحيح أن بوسعه أن ينكر ، ولكن هل سينفعه الإنكار ؟.. ان ويليس لم يكن غبيا ، بل إنه لن يلبث أن يسأل « حسن » ، ولم يكن بوسع «ايزارت» الاطمئنان إلى حسن ..

فمن غير المرتقب أن يلتزم الصمت ، بل إنه سيفضحه ، وهذا معناه هلاكه .. فسيقترح عليه « ويليس » أن يعود إلى الوطن !

وأصابه صداع شديد ، فأوى بعد العشاء إلى غرفته ، إذ أراد أن يخلو إلى نفسه ليتمكن من تدبير خطة للعمل .. وما لبث أن طرأ بباله خاطر أفزعه : فلقد أدرك أن السر الذى حافظ عليه طويلا ، لم يعد سرا .. لقد أصبح موقننا من هذا فجأة !.. لماذا قدر له أن تكون له هاتان العينان البراقتان ، وهذا الجلد الأسمر ؟.. لماذا يتكلم لغة الملايو بهذه السهولة ، ولماذا تعلم لغة « الدياك » بهذه السرعة ؟.. انهم يعرفون ولا بد !.. ما كان أغباه إذا كان قد فكر يوما فى أنهم قد صدقوا تلك القصة التى ابتكرها عن جدته الأسبانية !.. لابد أنهم ضحكوا ملء اشداقهم عندما روى لهم هذه القصة ، ولعلهم كانوا يسمونه — من وراء ظهره — يالزنجى اللعين !

وطرأ له خاطر آخر عذبه ، فراح يسائل نفسه : أبسبب هذه القطرة الملعونة من الدم الوطنى — التى تجرى فى عروقه — خانته أعصابه ، عندما صاح كامبيون يطلب النجدة ؟.. إن أى شخص قد يصاب بالهلع فى لحظة كتلك اللحظة التى خبرها ، على أية حال !.. ولم ، بحق السماء يضحى بحياته لينقذ حياة شخص آخر لا يهمه أمره إطلاقا ؟.. إنه من الجنون أن يفعل هذا . ولكنهم — بطبيعة الحال — سيقولون فى (كوالا سولور) إن هذا ما كانوا يتوقعونه !

وأخيرا ذهب إلى الفراش ، ولكنه أخذ يتقلب فيه بقلق وتعب . وقضى على هذه الحال فترة لا يعلم مداها إلا الله ،

ثم غلبه النعاس — أخيرا — فنام . ولكنه لم يلبث أن صحا مفزوعا بعد حلم رهيب . فقد تراءى له فى المنام أنه أصبح — مرة أخرى — وسط تلك الموجات العاتية ، وأن الزورق كان يدور ويدور .. وكان بعد ذلك التشبث المستيئس بقاع الزورق ، والحزن والألم عندما أفلت القاع من يديه ، بينما كان الماء يصطخب حوله وفوقه !

***

واستيقظ « ايزارت » قبيل الفجر .. كانت فرصته الوحيدة هى أن يرى « ويليس » ليكون السباق إلى رواية قصته . وأخذ يفكر بعناية فيما يعتزم أن يقول ، ويختار الكلمات التى يريد أن يستخدمها بالنص !

وغادر فراشه مبكرا .. وبارح المنزل دون أن يتناول فطورا ما ، لكى يتجنب مقابلة « كامبيون » .. وسار فى الطريق العام . وظل يسير إلى الوقت الذى كان يعرف أن المقيم يكون فيه فى مكتبه . وإذ ذاك عاد أدراجه .. وأرسل اسمه ، فسمح له بدخول مكتب « ويليس » .. وكان «ويليس» شيخا متقدما فى السن ، ذا شعر أشيب خفيف ، ووجه شاحب مستطيل . وقد بادر ايزارت وهو يصافحه : « اننى مسرور إذ أراك قد عدت سالما معافى .. ولكن ، ما هذا الذى سمعته من أنكما كنتما على وشك الغرق ؟! » .

وكان ايزارت بملابسه النظيفة يبدو فى مظهر الرجل الأنيق ، وقد نسق شعره الأسود بدقة ، وقص أطراف شاربيه بعناية . وكان يقف منتصب القامة فى مظهر عسكرى ..

ورد على ويليس بقوله : « لقد رأيت أنه يحسن بى أن آتى فأبلغك الأمر فورا يا سيدى ، لأنك عهدت إلى بأن أرعى كامبيون ! » .

— هات ما عندك !

وروى ايزارت قصته ، فخفف من مدى الخطر الذى تعرضا له ، وحمل « ويليس » على أن يفهم أن ذلك الخطر لم يكن بالغا ، وأنهما ما كانا يتعرضان لأى شىء ، لولا أنهما شرعا فى الرحلة متأخرين !

ومضى ايزارت يقول : « ولقد حاولت أن أحث كامبيون على بدء الرحلة فى ساعة مبكرة ، ولكنه آثر أن يشرب كأسين أو ثلاثا . والواقع أنه لم يكن يبغى أن يتحرك ! » .

— هل كان مخمورا ؟

— لا أعرف ، وإن كنت لا أملك أن أقول إنه كان فى كامل وعيه !

ومضى يسرد قصته . وحاول أن يوحى بأن كامبيون كان قد فقد وعيه — بعض الشىء — تحت تأثير الخمر . وقال إنها كانت مهمة فظيعة — فى الواقع — بالنسبة لشخص لم يكن يجيد السباحة ، وأنه — أى ايزارت — كان أكثر اهتماما به من نفسه ، وقد عرف أن الفرصة الوحيدة هى فى الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش . ولكنه — عندما وقعت الواقعة — رأى كامبيون يخور وينهار !

فقال المقيم : « لا تستطيع أن تلومه على هذا ! » .

— لقد بذلت ، بطبيعة الحال ، كل ما فى وسعى يا سيدى. غير أننى لم أكن أملك شيئا كثيرا من أجله !

— حسنا .. المهم هو أنكما نجوتما .. لو أنه غرق ، لكان الأمر جد محرج لنا !

— لقد رأيت انه من الخير أن آتى فأبلغك جميع الحقـائق قبل أن تقابل « كامبيون » يا سيدى ، لأنه — كما تراءى لى — يميل إلى المبالغة فى رواية القصة . ولكن .. ما من فائدة فى المبالغة !

فقال ويليس باسما : « أن روايتيكما تكادان أن تتطابقا فى مجموعهما ! »

فتفرس « ايزارت » فيه مأخوذا . وإذ ذاك قال له ويليس:

— ألم تر « كامبيون » هذا الصباح ؟.. لقد سمعت من « جورنج » أنكما صادفتما بعض المتـاعب ، فعرجت على الاستراحة بنفسى فى الليلة الماضية — وأنا فى طريقى إلى دارى من القلعة — بعد العشاء .. وكنت أنت قد ذهبت إلى الفراش!

وشعر ايزارت برجفة تسرى فى جميع جسمه ، وقد بذل جهدا كبيرا للمحافظة على تماسكه ، وقال ويليس :

— وعلى فكرة .. إنك خرجت من الماء قبـل كامبيون . أليس كذلك ؟

— لست أدرى يا سيدى فى الواقع ، فقد كان الارتباك بالغا!

— لا بد أن تكون قد خرجت قبله ، ما دمت قد ذهبت إلى الجانب الآخر قبله !

— أظن أننى فعلت ذلك !

ونهض ويليس واقفا وهو يقول : « حسنا .. وشكرا لك إذ حضرت لإنبائى بما حدث ! » .

وكان قد تعمد أن يوقع بعض الكتب — وهـو ينهض — فسقطت على الأرض بصوت مرتفع ، مفاجىء .. فاذا بايزارت يجفل بعنف ويشهق . وإذ ذاك ، رماه المقيم بنظرة سريعة ، وقال : « أرى أن أعصابك مضطربة للغاية ! » .

ولم يستطع ايزارت السـيطرة على الرجفة التى أصابته ، ودمدم يقول :

— إننى جد آسف يا سيدى !

— أظنك قد أصبت بصدمة ، ومن الخير أن ترتاح بضـعة أيام ، وتذهب إلى الطبيب ليعطيك شيئا من العلاج !

— إننى لم أنم جيدا فى الليلة الماضية !

فأومأ المقيم وكأنه فهم .. وغادر ايزارت الغرفة . وبينما هو سائر ، قابله شخص كان يعرفه ، وهنأه بنجاته . إذن فقد كان الجميع يعرفون ؟!..

وعاد إلى الاستراحة . وأخذ — وهو متجه إليها .. يعيد لنفسه القصة التى رواها لويليس ، ويسائل نفسه : أكانت تشبه القصة التى سمعها المقيم من كامبيون حقا ؟.. ولم يكن قد خطـر بباله قط أن يكون كامبيـون قـد سبقه لإبلاغ القصة .. لكم كان غبيا إذ ذهب إلى الفراش مبكرا وكان من

الواجب ألا يدع « كامبيون » يغيب عن نظره !.. ولكن لماذا أصغى إليه المقيم — فى بادىء الأمر — دون أن يبلغه أنه عرف بالقصة فعلا ؟.. وأخذ يلعن نفسه لأنه أوحى بأن كامبيون كان مخمورا فاقد الرشد .. لقد قال هذا ليحط من قــدره ، ولكنه تبين الآن أنه كان غبيــا فى هذا .. ولماذا قال ويليس تلك العبارة التى توحى بأنه خرج من الماء قبل كامبيون ؟.. لعله كان يريد التحرى ، فقد كان ويليس ماكرا وداهيه !

ولكن ، ترى ما الذى قاله كامبيون ؟.. يجب أن يعرف ذلك، ويجب أن يعرفه بأية وسيلة ، ومهما يكن الثمن !

وكان رأس « ايزارت » يغلى ويفور ، حتى أنه شعر بأنه لم يكن يستطيع السيطرة على أفكاره . ولــكن الواجب كان يقتضيه أن يلتزم الهدوء !.. وشــعر بأنه أشــبه بحيوان مطارد . فما كان يصدق أن ويليس يحبه ، إذ أنه سبق أن وبخه فى المكتب — مرة أو مرتين — لإهماله .. ولعله لم يكن ينتظر إلا ريثما يجمــع المعلومات والحقائق .. وكاد ايزارت أن يجن !

* * *

ودخل إلى الاســتراحة فوجــد كامبيون يجلس فى مقعــد طويل ، باسطا ساقية ، وهو يقرأ الصحف التى وصلت خلال فترة غيابهما فى الأدغال . وشعر ايزارت بموجة من الكراهية العمياء تطغى عليه ، عندما تفرس فى هــذا الرجل الضئيل ، الرث ، الذى كان يقبض عليه فى فراغ كفه !

وعندما رآه كامبيون صاح مرحبا : « هالو .. اين كنت ؟ » .

وخيل لايزارت انه رأى فى عينيه نظرة تطفــح بســخرية لاذعة ، فشد قبضتى يديه ، وأخذ تنفســه يزداد سرعــة وتهدجا .. وسأل كامبيون بحدة : « ما الذى قلته لويليس عنى ؟ » .

وكانت اللهجة التى ألقى بها هذا السؤال المفاجىء حادة إلى درجة جعلت كامبيون ينظر إليه فى دهشة ويقول : « ما أرانى قد قلت شيئا كثيرا عنك .. ولكن ، لماذا تسألنى ؟ » .

— لقد اتى إلى هنا فى الليلة الماضية ..

وكان « ايزارت » ينظر إليه وقد ضم حاجبيه فى غضب ، وأخذ يحاول قراءة أفكار كامبيون ، الذى قال :

— لقد أبلغته أنك كنت تشعر بصداع فذهبت إلى الفراش .. وكان يريد أن يعرف ما حدث لنا !

— لقد رأيته منذ برهة !

وأخذ « ايزارت » يسير رواحا وجيئة ، فى الغرفة الكبيرة الظليلة . فمع أن الوقت كان مبــكرا ، إلا أن الشمس كانت شديدة الحرارة ومتوهجة .. وشعر « ايزارت » بأنه وقع فى شبكة صياد ، فأعماه الغضب !.. وكان فى استطاعته أن يقبض على عنق كامبيون ويشدد الضغط عليه حتى يخنقه ، ولكنه شعر بأنه مسلوب القوة ، لأنه لم يكن يعرف ما الذى ينبغى أن يكافحه !.. وأحس بنفسه عاجزا .. كان متعبا ،

ومريضا . وكانت أعصابه مهتزة ، مختلة !.. وعلى حين فجأة، فارقه الغضب الذى منحه نوعا من القوة ، فشـــعر باليأس والقنوط ، وكأن الذى كان يجرى فى عروقه ماء وليس دما . وغاص قلبه بين ضلوعه ، وتخاذلت ركبتاه ، وشعر بأنه إذا لم يتمالك نفسه ، فقد ينخـــرط فى النحيب .. فقـــد كان فى أشد الحزن على نفسه !

وصاح بلهجة تثير الرثاء والأسى : « عليك اللعنة !.. الا ليت نظرى لم يقع عليك قط ! » .

فسأله كامبيون فى دهشة : «ما الذى جرى بحق السماء؟!» .

ـــ دع عنك الادعاء ، فقد ظللنا يومين ندعى ما ليس حقيقة! .. لقد ضقت ذرعا بهذا !

وأخذ صـــوته يعلو فى نبرة رفيعة حادة ، فبـــدا غريبا أن يصدر من مثل ذلك الرجل القوى ، الكبير . ومضى يقول :

ـــ لقد ضقت ذرعا بهذا .. أجل لقد تخليت عنك ، وهربت من نجدتك .. تركتك تغرق !.. وانى لأعرف أنى تصرفت تصرف الجبناء ، ولكنى لم أكن أملك أن أتاوم !

ونهض كامبيـــون ببطء من المقعـــد ، وقال : « ما الـــذى تتحدث عنه ؟ » .

وكانت لهجته تنم عن دهشة حقيقية .. مما جعل ايزارت يجفل ، ويشعر برعدة باردة تسرى فى فقاره . وقال :

ـــ عندما صرخت تطلب النجدة ، كنت أنا فى ذعر بالغ ، فلم أتمالك أن تشبثت بالمجداف ، وحملت حسنا على أن يساعدنى على النجاة !

ـــ كان هذا أحكم ما تملك أن تفعله !

ـــ لم يكن فى وسعى أن أســـاعدك .. ولم يـــكن هنـــاك ما أستطيع أن أفعله !

ـــ طبعا لم يكن ثمة ما تستطيع أن تفعله لى ، ولقـــد كان غباء مزريا منى أن صحت طالبا النجدة ، إذ أن الصراخ كان تبديدا للتنفس ، وهو الشىء الوحيد الذى كنت بحاجة إليه !

ـــ هل تريد أن تقول انك لم تكن تعرف بتصرفى ؟

ـــ عندما قدم لى البحارة الحصير ، كنت أظن أنك ما زلت متشبثا بالزورق ، واعتقدت أننى سأنجو قبلك !

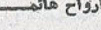
فوضع ايزارت يديه على رأسه ، وصاح فى ألم ويأس :

ـــ يا إلهى ، أى غبى كنته ؟

* * *

ووقف الرجلان برهة ، يتفرس كل منهما فى الآخر . وبدا كأنما لا نهاية للصمت الذى سيطر عليهما . وأخيرا قطعه ايزارت ، إذ قال لكامبيون : « وماذا تراك فاعلا الآن ؟ » .

ـــ لا تقلق يا عزيزى .. لقد كنت أنا الآخر من الذعر بدرجة لا تجعلنى الوم أى واحد يهز الخوف كيانه .. وأن أقول شيئا لأى مخلوق !



ــ اجل ، ولكنك تعلم بما كان منى !

ــ إننى أعدك ، وبوسعك أن تثق بى .. هذا فضلا عن أن مهمتى هنا قد انتهت ، وسأعود إلى الوطن .. اننى أعتزم أن ألحق بأول سفينة مسافرة إلى (سنغافورة) .

وسادهما الصمت من جديد .. واخذ كامبيون يتأمل ايزارت برهة ثم قال : « هناك شىء واحد أود أن أطلبه منك .. لقد اكتسبت هنا عددا كبيرا من الأصدقاء ، وهناك أمر أو أمران أرانى مرهف الحساسية إزاءهما . فعندما تروى قصة مغامرتنا ، أكون ممتنا لك إذا أنت لم تذكر أننى سلكت مسلكا مشينا .. فلست أود أن يعرف الناس هنا أنى فقدت أعصابى ! » .

وتضرج وجه ايزارت واحتقن بالدم .. وتذكر ما قاله للمقيم ، فبدا له الأمر كما لو أن كامبيون كان عندئذ واقفا وراءه ينصت إلى حديثه . فسعل ليجلو حلقه ، وقال : « لست ادرى لماذا تظن أننى سأفعل ذلك ؟! » .

وتهلل وجه كامبيون وشع بريق الاغتباط فى عينيه الزرقاوين وأجاب فى ابتسامة أظهرت أسنانه المهشمة المعدومة اللون يقول :

ــ خيط من الدم الأصفر ! .. إليك سيجارة يا صديقى العزيز !



انتصار قاتل !

(ماكنتوش)



خاض ماء البحر لبضع دقائق ، إذ كان من الضحل بحيث لم يكن بوسعه السباحة فيه ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يمضى إلى عرض البحر ، خوفا من أسماك القرش .. وما لبث أن خرج إلى البر ، وسعى إلى الحمام ، ليغتسل تحت المرذاذ (الدوش) . فاذا برودة الماء المنساب تنعشه ، بعد لزوجة الماء الملح الثقيل .. ماء المحيط الهادى ، الذى كان من الدفء — برغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السابعة صباحا — بحيث أن الاستحمام فيه لم يكن لينشط بدنك ، وإنما كان خليقا بأن يزيد خمولك !

وعندما جفف بدنه ، واندس فى ثوب الحمام ، صاح منبها الطاهى الصينى إلى أنه لن يلبث أن يكون متأهبا للفطور ، بعد خمس دقائق . ثم سار حافيا ، مجتازا الرقعة التى كان ينمو فيها العشب الخشن ، والتى كان « ووكر » — المدير (المأمور) — يزهو بها ويرى أنها مرج أخضر .. وبلغ مسكنه، فارتدى ملابسه . ولم يستغرق هذا منه وقتا طويلا ، إذ أنه لم يرتد غير قميص وسروال (« بنطلون) من الكتان . ثم يمم — بعد ذلك — شطر دار رئيسه، فى الجانب الآخر من الفناء، فقد اعتاد الاثنان أن يتناولا وجبات الطعام سويا . ولكن الطباخ الصينى قال له — فى هذه المرة — إن « ووكر » خرج راكبا جوادا ، فى الساعة الخامسة ، ولم يكن من المنتظر أن يعود قبل ساعة أخرى .. ولم يكن « ماكنتوش » قد حظى بنوم هادىء منتظم ، فأخذ ينظر — بغير شهية — إلى الفطور الذى وضع أمامه !

كان البعوض قد أقض مضجعه فى تلك الليلة ، وكاد يذهب بعقله . إذ راح يحوم حول الكلة (الناموسية) — التى كان ماكنتوش ينام تحتها — بكثرة بالغة ، حتى لقد كان طنينه المزعج الكئيب ، أشبه بنغمة متهالكة رتيبة ، صادرة عن أرغول فى بقعة نائية . وكان ماكنتوش — كلما غلبه النعاس — لا يلبث أن يستيقظ فجأة فى فزع ، وهو يعتقد أن بعوضة قد نفذت إلى داخل الكلة . وكان الطقس حارا ، فنام عاريا ، وظل يتقلب على جنبيه ، وهو يسمع هدير الأمواج وصوت تكسرها على الشاطىء بانتظام رتيب ، غير منقطع ، لم يكن يفطن إليه من قبل .. بل ان رتابته أخذت تدق أعصابه المتعبة دقا .. وراح يتجلد — وقد تقلصت قبضتاه — ويحاول جاهدا تحمل هذا العذاب . ولكنه وجد من المستحيل عليه أن يحتمل مجرد التفكير فى أنه ما من شىء يستطيع أن يوقف هذا الصوت، بل أنه سيظل كذلك إلى ما لا نهاية ! .. وعندما كان يخال أن قواه تستطيع الصمود لقوى الطبيعة القاسية ، كانت تجتاحه رغبة جنونية فى أن يقدم على عمل عنيف ! ..

وشعر ماكنتوش بأن عليه أن يسيطر على أعصابه ، وإلا انتهى الأمر به إلى الجنون ، فنهض عن المائدة ، وسار إلى النافذة ، حتى إذا رمى ببصره نحو الشاطىء ، ورأى خط الزبد الذى يميز حافته ، أحس برعدة تجرى فى أوصاله ، كراهية لهذا المنظر الواضح المنبسط ! .. وكانت السماء الصافية أشبه بوعاء مقلوب ! .. وأشعل غليونه ، وراح يعبث بكومة الصحف التى وردت من (آبيا) منذ بضعة أيام ..

كانت أحدث هذه الصحف قد صدرت منذ ثلاثة أسابيع ، وكان مظهرها يبعث على السأم والملل !

وقصد ــ بعد ذلك ــ إلى « المكتب » .. وكان عبارة عن غرفة كبيرة عارية ، ضمت مكتبين وأريكة امتدت فى أحد جوانب الغرفة .. وقد جلس عليها ــ إذ ذاك ــ بعض الأهالى ، وبينهم سيدتان . وكان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ، فى انتظار « المدير » . وإذ وصل « ماكنتوش » ، بادروه بالتحية فحياهم بدوره ، ثم جلس إلى مكتبه ، وبدأ يكتب مستكملا تقريرا طلبه محافظ (ساموا) مرارا ، ولكن « ووكر » أهمل إعداده كعادته .. وبينما عكف ماكنتوش على تدوين ملاحظاته ، فطن ــ فى حقد وتشف ــ إلى أن تلكؤ « ووكر » فى كتابة التقرير ، إنما كان راجعا إلى جهله . والواقع أنه كان من الجهل بدرجة جعلته يتحاشى أى عمل له صلة بالأقلام والأوراق ! .. ومع هذا ، فانه لن يحجم ــ إذا ما انتهى ماكنتوش من إعداد التقرير ، فى دقة وعناية ــ عن أن يتقبله منه ، كما يتقبل الرئيس عملا مفروضا على مرؤوسه .. دون كلمة تقدير ! بل انه ربما تقبله بشىء من التهجم ، أو بكلمة لاذعة ، ثم لن يلبث أن يرسله إلى السلطات وكأنه من وضعه هو وإنشائه ، وإن لم يكن قد كتب كلمة واحدة منه ــ فى الواقع ــ وما كان بوسعه أن يكتب ! .. ولقد لاحظ ماكنتوش ــ بشىء من السخط ــ أن رئيسه كان يعمد ــ فى الحالات التى يرى أن يضيف فيها عبارة ما ــ إلى التعبير عنها بأسلوب كأسلوب الأطفال ، وبلغة كلها أخطاء ! .. فاذا ما أراد

ماكنتوش إصلاح الخطأ ، أو إعادة صوغ العبارة لتصبح مفهومة ، ثار « ووكر » وصاح قائلا : « فيم تعنينى قواعد اللغة ، بحق الجحيم ؟ .. هذا هو ما أريد أن أقوله ، وهذه هى الطريقة التى أريد أن أقوله بها ! » .

ووصل « ووكر » أخيرا ، فما أن دخل المكتب ، حتى أحاط به الأهالى محاولين الظفر باهتمامه . ولكنه تحول إليهم ، فأمرهم بغلظة أن يجلسوا ولا ينطقوا بكلمة ، منذرا بأنه سيأمر بطردهم ــ إذا لم يلزموا الهدوء ــ وبأن يمتنع عن مقابلة أحد منهم فى ذلك اليوم . ثم أومأ إلى ماكنتوش ، قائلا : « هالو ماك ! .. هل استيقظت أخيرا ؟ .. لست أدرى كيف يمكنك أن تضيع خير فترة من النهار مستلقيا فى الفراش ، وكان خليقا بك أن تستيقظ قبل الفجر مثلى ، أيها الكسول» .

وألقى بنفسه على المقعد ــ فى تهالك ــ ومسح وجهه بمنديل كبير ، وقال : « آه يا إلهى !.. إننى ظمآن » . والتفت إلى الشرطى الواقف بالباب ، والذى كان يبدو بديع الشكل فى سترته البيضاء ، و « اللافا لافا » .. ذلك المئزر من القماش الذى يلفه أهل جزر (ساموا) حول أردافهم .. وطلب إليه أن يحضر « الكافا » . وكان وعاء شراب « الكافا » موضوعا على الأرض ــ فى أحد أركان الغرفة ــ فملأ منه الشرطى قدحا صنع من نصف قشرة « جوزة الهند » ، وقدمه لووكر ، الذى أراق بعض قطرات منه على الأرض ، وغمغم موجها إلى الحضور الدعوة المألوفة ــ على سبيل المجاملة ــ ثم احتسى « الكافا » باستمراء ، وطلب من رجل البوليس أن يقدم

الشراب إلى القوم الذين كانوا فى انتظاره . فدارت قشرة « جوز الهند » عليهم واحدا بعد آخر ، بترتيب عمره ، أو قيمته .. وكان كل منهم يفرغها بالطريقة ذاتها !

وانصرف بعد ذلك إلى عمله اليومى .. وكان ضئيل الجسم ، أقصر بكثير من الطول المتوسط .. بدينا ، مكتنز الوجه ، حليق الذقن ، ذا خدين ترهلا على الجانبين متدليين ، فكأنه أوتى ثلاث ذقون كبيرة . وكانت قسمات وجهه الصغيرة تذوب فى كتل من الشحم . وفيما عدا هلال من الشعر الأبيض — فى مؤخر رأسه — كان أصلع تماما .. وكان منظره يذكرك بالمستر « بيكويك » . فقد كان غريب الشكل .. وكان طروبا يحب الضحك . ومع ذلك ، فانه — للعجب — لم يكن يخلو من مهابة ! .. وكانت عيناه الزرقاوان تومضان — من خلف منظاره ذى الإطار الذهبى — بأشعة الذكاء والمرح . كما كانت ترتسم على وجهه أمارات العزيمة القوية . وكان فى الستين من عمره ، ولكن حيويته الأصيلة انتصرت على شيخوخته .. وبرغم ضخامته ، كان خفيف الحركة ، يمشى بخطوات ثقيلة ثابتة ، وكأنه يريد أن يهز الأرض بثقله .. كما كان يتكلم بصوت عال ، خشن .

***

وكان قد انقضى عامان على تعيين « ماكنتوش » مساعدا لووكر . ولقد كان « ووكر » ، الذى ظل ربع قرن مديرا — (ماموراً) لتالوا — وهى من أكبر الجزر فى مجموعة جزر (ساموا) — معروفا فى طول البحار الجنوبية وعرضها ، سواء

بشخصه أو بالأنباء المتناقلة عنه . لذلك فان ماكنتوش راح يتطلع — فى فضول متلهف — إلى أول لقاء به . وقد مكث فى (آبيا) أسبوعين — لسبب أو لآخر — قبل أن يتولى منصبه ، فسمع فى فندق « شابلن » ، وفى النادى الإنجليزى ، قصصا عديدة عن المدير . ولقد أصبح يسخر من نفسه كلما تذكر اهتمامه بهذه القصص ، التى سمعها مائة مرة — منذ ذلك الحين — من « ووكر » نفسه . إذ كان « ووكر » يعرف أنه شخصية ذات شأن ، وكان يزهو بشهرته ، ويتعمد أن يكون أهلا لها .. كان غيورا على « الأسطورة » التى نسجت حوله ، تواقا إلى أن تعرف التفصيلات الدقيقة لأى من هذه القصص التى كانت تروى عنه . وكان يغضب كل الغضب من أى شخص يرويها للأغراب بشىء من التحريف !

وكان « ووكر » يتسم بلون من الود المقترن بالخشونة ، والذى لم ير « ماكنتوش » فيه بأسا ، فى بادىء الأمر .. لهذا اغتبط « ووكر » إذ وجد فيه مستمعا سيكون كل ما يقول له جديدا عليه ، فأفرغ له خير ما فى جعبته . وكان بشوشا ، صادق الود ، حفيا .. وكان « ماكنتوش » قد عاش فى طمأنينة ودعة الموظف الحكومى — فى لندن — حتى بلغ الرابعة والثلاثين ، ثم أصيب بالتهاب رئوى تركه مهددا بالسل ، فاضطر إلى البحث عن منصب فى المحيط الهادى .. لذلك خيل إليه أن حياة « ووكر » كانت شاعرية ، عجيبة . فان المغامرة التى بدأ بها كفاحه ضد الظروف ، كانت مثالا لروحه وشخصيته . فقد هرب إلى البحر عندما كان فى الخامسة

عشرة من العمر ، وظل أكثر من عام يحمل الفحم على سفينة لنقل الفحم . وكان صبيا ضئيل الجسم ، فترفق به البحارة وعمال السفينة ، ولكن الربان شـعر نحـوه ــ لسبب غير معروف ــ بكراهية ضارية . فكان يقسو فى معاملته ، حتى أن الصبى كثيرا ما كان يفتقـد النوم لكثرة ما كان يضرب ويركل ، ويروح الألم يفرى أطرافه . ومن ثم فقد حقد على الربان من كل قلبه . وقد حدث ــ ذات مرة ــ أن تحمس لجواد كان مزمعا أن يجرى فى سـباق الخيل ، فسعى حتى اقترض خمسـة وعشرين جنيهـا من صـديق التقى به فى (بلفاست) ، وقامر بها كلها على هذا الجواد الذى كان ضعيف الأمل فى الفوز . ولم يكن لديه من الموارد ما يمكنه من السداد، ولكنه لم يتصور قط أنه قد لا يربح ، وإنما شعر بأن الحظ معه! .. وقد ربح الجواد فعـلا ، وكسب « ووكر » أكثر من ألف جنيه نقدا وعدا ، فشعر بأن الفرصة قد واتته . وبحث عن خير محام فى المدينة ــ وكانت ناقلة الفحم راسية عند مكان ما من الشاطىء الأيرلندى ــ وقصد إليه ، وأبلغه بأنه سمع أن السفينة معروضة للبيع ، وطلب إليه أن ينوب عنه فى السعى لشرائها ..

واهتم المحامى بهذا العميل الصـغير ، الذى لم يكن ــ إذ ذاك ــ قد تجاوز السادسة عشرة ، ولم يكن يبدو أنه بلغها .. ولعل العطف دفعه إلى أن يعده ، لا بتدبير الأمر له فحسب ، بل وبالعمل على أن تكون الصفقة طيبة . وبعد فترة قصيرة ، وجد « ووكر » نفسه مالكا للسفينة ، فعاد إليها ، ونعم بمـا كان يصفه بأنه « أروع لحظة فى حياته » . وذلك عندما أنذر

الربان وأمره بمغادرة السفينة فى غضون نصف ساعة ، ثم عين مساعد الربان فى مكانه ، وظل يمخر البحار بناقلة الفحم تسعة أشهر أخرى ، ثم باعها ببعض الربح !

وذهب إلى جزر (ساموا) وهو فى السادسة والعشرين ، فعمل مزارعا ، وكان أحد البيض القلائل الذين استقروا فى (تالوا) خلال عهد الاحتلال الألمانى . وكان قد اكتسب بعض النفوذ بين الأهالى ، فعينه الألمان فى المنصب الذى ظل يشغله عشرين عاما . وقد عزز مركزه فى الوظيفة عندما استولى البريطانيون على الجزيرة ، فحكمها بالشـدة ولكنه أصاب نجاحا تاما . فكان هذا النجاح سببا آخر من أسباب اهتمام ماكنتوش بأمره !

بيد أنه لم يقدر لهذين الرجلين أن يتفقا .. كان ماكنتوش قبيح الصورة ، غير متناسق القسمات ، طويل القامة ، نحيفا، ذا صـدر ضيق ، وكتفين محدودبتين ، وخدين غائرين ، وعينين واسعتين كئيبتين . وكان مشغوفا بالقراءة ، وعندما وصلت كتبه وفض أربطتها وأخرجها من أغلفتها ، دخل عليه « ووكر » ، فتأملها ثم تحول إليه قائلا ، وهو يطلق ضحكة نابية : « لأى شىء جلبت كل هذه التوافه .. بحق الجحيم؟» . فتجهم وجه ماكنتوش وقال : « يؤسفنى أن تراها توافه » . لقد أحضرت كتبى لأننى أريد أن أقرأها ! » .

ــ عندما قلت انك ستأتى بكثير من الكتب ، ظننت أن سيكون بينها ما يروق لى . أفليست لديك قصص بوليسية ؟

ـ ان القصص البوليسية لا تلذ لى !

ـ إنك لغبى مأفون ، إذن !

ـ إننى أقنع بأن تظننى كذلك !

وكان كل بريد يحمل إلى « ووكر » من (نيوزيلندا) كميات كبيرة من المجلات الأدبية والصحف ، ومن (أمريكا) مجلات أخرى . وقد أسخطه أن يظهر ماكنتوش ازدراءه بهذه النشرات القصيرة العمر . ولم يكن صبره يحتمل الكتب التى كانت تشغل جميع أوقات فراغ ماكنتوش . ولما لم يكن قد تعلم قط أن يكبح جماح لسانه ، فقد عبر عن رأيه بصراحة لمساعده. وبدأ ماكنتوش يعرف الرجل على حقيقته ، فرأى أنه كان يخفى تحت مظهر الطيبة والبشاشة خبثا سوقيا مكروها ، وأنه كان مغرورا متغطرسا . والغريب أنه كان ـ بجانب هذا ـ على نوع من الحياء جعله يكره الذين ليسوا من طرازه. وكان يحكم على الآخرين بلغتهم، فاذا خلت من الأيمان الصاخبة، والقحة التى تؤلف الجزء الأكبر من حديثه ، نظر إلى المتحدثين فى ارتياب . وكان الرجلان يلعبان الورق فى المساء . وما كان « ووكر » بالماهر فى اللعب ، ولكنه كان مدعيا ، يسخر من خصمه عندما يكسب ، ويفقد صوابه إذا خسر ! .. وكان يفد عليهما ـ فى مناسبات نادرة ـ زوج من المزارعين أو التجار ، ليلعبا معهما « البريدج » . وإذ ذاك ، كان « ووكر » يتجلى تحت ضوء مميز . فكان يلعب دون أن يأبه بزميله ، ويصيح فى لعبه ، ويجادل بلا انقطاع ، ويطغى على أية معارضة بارتفاع صوته . وكان لا يفتأ يرجع عن لعبة لعبها ، فاذا فعل

ذلك قال فى عواء مستعطفا : « آه ! .. ما أراكم ستحسبون هذه على رجل مسن لا يكاد يرى ! » . فهل كان يعرف أن غرماءه كانوا يرون الخير فى أن يرضوه ، ومن ثم فانهم كانوا يحجمون عن التشبث بأصول اللعب ؟

وكان « ماكنتوش » يراقبه فى ازدراء جليدى . فاذا ما انتهى اللعب ، كانوا يشرعون فى رواية النوادر ، أثناء تدخين غلايينهم واحتساء الويسكى . وكان « ووكر » يروى ـ فى تلذذ ـ قصة زواجه . فقد أفرط فى الشراب فى حفلة زفافه ، حتى لقد اضطرت العروس إلى الفرار ، فلم يرها قط بعد ذلك . وكانت له مغامرات لا حصر لها .. مغامرات وضيعة ، ودنيئة ، مع نسوة الجزيرة . وكان يرويها بشىء من الزهو ، فكانت قحته فى الحديث تؤذى اذن ماكنتوش المرهفة الحس .. كان كهلا بليد الإحساس ، شهوانيا . وكان يرى فى ماكنتوش زميلا مسكينا ، لأنه كان يرفض مشاركته فى مغامراته الغرامية الرعناء ، ولأنه كان يظل محتفظا بجميع حواسه ، بينما يكون بقية الحضور قد ثملوا !

كذلك كان يزدرى ماكنتوش لما كان يؤدى به عمله الرسمى من نظام دقيق . والواقع أن ماكنتوش كان يحب أن يؤدى كل شىء على هذا النسق . وكان مكتبه منظما على الدوام ، وأوراقه مرتبة بعناية دائما ، حتى لقد كان فى استطاعته أن يمد يده فتقع على أية وثيقة مطلوبة ، كما كان يضع فى متناول يده كافة اللوائح والنظم اللازمة لتأدية أعمالها الإدارية . فكان ووكر يقول له « بخ ! بخ ! .. لقد أدرت هذه الجزيرة

عشرين عاما بغير الإجراءات الرسمية العقيمة . ولست أريد الآن استخدامها ! » . وكان ماكنتوش يجيب بقوله : « هل من الأسهل عليك أن تضطر — عندما تريد خطابا ما — إلى أن تظل نصف ساعة أو نحوها تبحث عنه وتتصيده ؟ » .

— إنك لست غير متعنت فى تمسكك بقيود الوظيفة . ولكن .. لا بأس بك ، وسينصلح أمرك عندما تقضى هنا عاما أو عامين .. عيبك أنك لا تشرب ، ولن يكون بك بأس ، لو أنك أسرفت فى الشراب حتى تفقد الوعى .. مرة فى الأسبوع !

* * *

والغريب أن ووكر ظل جاهلا كل الجهل بالكراهية التى كان مرؤوسه يشعر بها نحوه ، والتى أخذت تزداد على مر الأيام. ومع أنه كان يسخر منه ، إلا أنه أخذ يحبه بعد أن ألف وجوده وأخلاقه ، فلقد كان طويل الأناة متسامحا مع الناس فيما يتعلق بخصالهم وطباعهم . فقبل « ماكنتوش » على أنه « سمكة » شاذة . ولعله لم يفطن إلى أنه ربما أحبه لأنه كان يستطيع أن يسخر منه . وكان مجونه منطويا على قدر من البساطة الخشنة ، حتى لقد كان ينقصه شىء من اللكز ليكون غلظة. وكانت صراحة ماكنتوش واستقامته ورزانته موضوعات خصبة للتندر والمزاح . وقد أتاح اسمه الاسكتلندى فرصة لذكر النكات المألوفة عن (اسكتلندا) . وكان « ووكر » يتلذذ ويستمتع إلى أقصى حد ، عندما تسنح الفرصة فيجتمع اثنان أو ثلاثة أشخاص ، فيسعى إلى إضحاكهم على حساب ماكنتوش . كما أنه ما كان ليحجم عن أن يذكر أشياء سخيفة

عنه للأهالى . ولما كان ماكنتوش حديث معرفة بأهل الجزيرة، فقد راح يتقبل بالابتسام والحلم ضحكاتهم وقهقهاتهم وسرورهم الطاغى ، كلما ألقى ووكر بنكتة أو بدرت منه إشارة ماجنة إليه ! .. وما درى ووكر أن ماكنتوش لم يكن يكره شيئا قدر كراهيته هذا النوع من المماجنة ، فكان يستيقظ فى الليل — ليل فصل الأمطار الخانق — ويفكر فى اكتئاب فى نكتة لاذعة أطلقها ووكر قبل ذلك بأيام .. فيتقد حقده ، ويتملكه الغضب ، ويصور لنفسه الطرق والوسائل التى تجعله ندا لهذا العربيد ! .. ولقد حاول الرد عليه ، ولكن ووكر كان يتمتع بسرعة البديهة .. وهى موهبة قاسية واضحة ، اكسبته التفوق ! .. ومع ذلك فقد كان يتسم ببلادة فكر تمنعه من سرعة التأثر بأية أمزوحة لاذعة . كما أن صوته العالى وضحكته المدوية ، كانا من الأسلحة التى لم يجد ماكنتوش إزاءها أى دفاع . ولهذا أدرك أن من الحكمة الا يكشف عن انفعاله ، وتعلم كيف يضبط أعصابه .. ولكن كراهية ووكر ظلت تنمو فى أعماقه ، حتى بلغت حد الجنون ، فأخذ يرقبه فى يقظة وانتباه ، ويغذى اعتداده بنفسه على ما كان يظهر من ووكر من وضاعة ، وخيلاء صبيانية ، وخبث، وفظاظة .. ويشعر بالارتياح حينما يراقب ووكر وهو يأكل فى نهم وشراهة — ولتلمظه بصوت مسموع — وحينما يلاحظ الأقوال السخيفة التى كان يتفوه بها ، ويسجل الأخطاء اللغوية التى كان يقع فيها ! .. وكان يعلم أن ووكر لا يكن له من التقدير شيئا كثيرا ، فشعر بارتياح مرير لرأى رئيسه فيه ، إذ زاد ذلك من اشمئزازه من هذا الكهل الضيق الأفق ..

وكان اغتباطه يتضاعف ليقينه من أن ووكر لم يكن يدرك قط تلك الكراهية التى كان يكنها له . فقد كان غبيا ، يحب الشهرة ، ويتخيل أن كل الناس معجبة به . ولقد سمعه مـرة يتكلم عنه قائلا : « لسوف يتحسن عندما أنتهى من تدريبـه ، فهو جرو طيب ، يحب سيده ! » .

وقد ضحك ماكنتوش طويلا من أعماق قلبـه ، دون أن تتحرك نأمة فى وجهه الطويل الشاحب !

على أن كراهية ماكنتوش لم تكن عمياء ، وإنما كانت ذات بصيرة ! .. ولهذا جاء حكمه على ميزات « ووكر » وكفاءته حكما دقيقا . فقد أدرك أن الرجل يحكم مملكته الصغيرة بكفاءة وعدل وأمانة ، وأنه ـــ برغم الفرص التى كانت تسنح له للإثراء ـــ أفقر مما كان عندما عين فى هذا المنصب ، وأن المورد الوحيد الذى سيعتمد عليه فى شيخوخته ، هو ذلك المعاش الذى سيتقرر له فى النهاية ، عند التقاعد .. وكان ووكر يفخر بأنه تمكن ـــ بمعاونة مساعد واحد وكاتب ـــ من إدارة هذه الجزيرة بكفاءة تفوق ما كانت تدار به جزيرة (أوبولو) ـــ الجزيرة الكبرى التى كانت (آبيا) كبرى مدنهـا ـــ على أيدى ذلك الجيش من الموظفين الذى أعد لهـا . ولم يكن لديه غير عدد قليل من الشرطة ، كلهم من أهل الجزيرة . ولكنه لم يكن يستخدمهم فى تثبيت سلطانه ، بل إنه كان يعتمد فى حكمه على الحيلة وعلى مجونه الأيرلندى ! .. وكان يقول : « لقد أصروا على أن يبنوا لى سجنا ، ولكن ما حاجتى

إلى السجن بحق الشيطان ؟ .. إننى لن أودع الأهالى السجن، لأنى أعرف كيف أعاملهم إذا أخطأوا ! » .

وكان بين الخلافات التى قامت بينه وبين السلطات فى (آبيا) ـــ قضية الحكم فى الجزر ـــ انه ادعى لنفسه السلطة القضائية والتشريعية بالنسبة لأهل الجزيرة ، فلم يكن يحولهم إلى المحاكم المختصة ، مهما تكن جرائمهم ! .. وكم من مرة تبودلت بينه وبين محافظ (أوبولو) مكاتبات مشحونة بعبارات السخط والغضب ! .. ذلك لأنه كان ينظر إلى الأهالى كأنهم أولاده ، فكان هذا هو أغرب ما فى الرجل الأنانى الفظ السوقى، إذ أحب الجزيرة التى عاش فيها طويلا ، فأصبح يطوى بين جناحيه عاطفة غريبة من الحنان الخشن نحو أهل الجزيرة .. عاطفة تدعو إلى العجب فعلا ! .. وكان يحب الطواف حول الجزيرة على فرسه العجوز الشهباء ، دون أن يمل قط من جمالها . بل كان يجوس خلال طرقاتها المعشوشبة ، بين أشجار « جوز الهند » ، ويقف بين الفينة والأخرى ليتأمل فى إعجاب المناظر الحبيبة الممتدة أمامه .. وكان يمر ـــ من وقت لآخر ـــ بقرية ، فيتوقف ريثما يقدم له زعيمها قدحا من «الكافا» ـــ الشراب الوطنى ـــ وهو يتأمل الأكواخ المصنوعة على شكل النواقيس ، وسقوفها المبنية بالقش ، وكأنها خلايا نحل ! .. وإذ ذاك ، كانت ترتسم على وجه المكتنز ابتسامة هانئة ، وتستقر عيناه ـــ فى سعادة تامة ـــ على المروج الخضراء ، والأشجار الباسقة المنتشرة أمامه .. ويقول لنفسه : « تالله إنها لأشبه بجنة عدن ! » .

وكانت جولاته تمتد أحيانا ، فيصل الى الشاطيء ، ويرى — من خلال الأشجار — البحر الخالى المترامى ..

وكانت جولاته تمتد أحيانا ، فيصل إلى الشاطىء ، ويرى — من خلال الأشجار — البحر الخالى المترامى الأطراف ، لا يعكر صفو هدوئه شراع واحد . وقد يتسلق — فى بعض الأحيان — تلا ، فيرى رقعة كبيرة ممتدة أمامه ، تتناثر فيها قرى صغيرة قابعة فى أحضان أشجار باسقة ، فيتخيل أنه أمام مملكة الممالك . فيجلس ساعة فى نشوة وسرور . ولكنه لم يكن يملك من الكلام ما يعبر عن مشاعره ، فلا يجد ما ينفس به عنها سوى نكتة بذيئة يطلقها ! .. والظاهر أن هـذه المشاعر كانت من العنف إلى الحد الذى يحتاج إلى الفظاظة لكسر حدتها !

وكان ماكنتوش يلاحظ هذه العواصف فى ازدراء جليدى .. فلقد كان ووكر مسرفا فى الشراب دائما ، وكان يفخر بمقدرته على أن يرى رجالا لم يبلغوا نصف عمره ، صرعى الخمر ، تحت الموائد ، حين كان يقضى ليلة فى (آبيا) ، ويجد من نفسه ميلا إلى الشراب ! .. أما هو ، فكان يروى — بأعلى صوته — القصص التى قرأها فى مجلاته .. ومع ذلك فقد كان يأبى أن يقدم أى قرض لأى تاجر قد يقع فى ضيق ، ولو كانت معرفته بهذا التاجر ترجع إلى عشرين عاما ! .. فقد كان حريصا على ماله ، حتى لقد قال له ماكنتوش ذات مرة : « ليس بوسع أحد أن يتهمك بتبديد المال ! » . فأخذها على محمل المديح !

* * *

وكان شغفه بالطبيعة مجرد إحساس من الأحاسيس الغامرة التى تخامر مدمن الخمر !

ولم يشعر ماكنتوش بأى إعجاب بشـــعور رئيسه نحـــو الأهالى . فقد كان « ووكر » يحبهم لأنهم كانوا فى قبضة يده وتحت سيطرته .. كان يحبهم كما يحب الرجل الأنانى كلبه ! .. وكانت عقليته فى مستوى عقليتهم ، ولهذا فقـــد كان يفهمهم وكانوا يفهمونه . ومن هنا كان زهوه بسيطرته عليهم ونظرته إليهم كما لو أنهم كانوا أبناءه ! .. ولقد اندمج فى جميع شؤونهم ، ولكنه كان غيورا إلى حد كبير على سلطته . ومع أنه كان يحكمهم بعصا من حديد ، دون أن يرضى معارضة ما ، إلا أنه لم يكن يرتضى قط أن يستغلهم أحد من البيض المقيمين فى الجزيرة . وكان يرقب الارساليات فى شك وحذر ، فاذا قام أحد رجالها بعمل لا يرضاه هو ، لم يحجم عن أن يجعل الحياة بالنسبة لهم جحيما لا يطاق ، حتى يضطرهم إلى أن يؤثروا مغادرة البلاد بمحض اختيارهم إذا عجز عن إبعادهم . وكانت سيطرته على الأهالى قوية إلى حد أنهم كانوا ــ بكلمة منه ــ يرفضون أن يعملوا لحســـاب راعى الكنيســـة ، ويأبون أن يمدوه بالطعام !

كذلك لم يكن ووكر يبدى أى ود للتجار ، وكان يحرص على ألا يخدعوا الأهالى ، كما كان يعنى بأن يحصل الأهالى على مكافآت طيبة جزاء أعمالهم وتجارتهم ، وبألا يغالى التجـــار فى الكسب من وراء السلع التى يبيعونهـــم إياهـــا . وكان لا يعرف الرحمة إذا ما أعتقد أن هناك صفقة غير عادلة .. فاذا ما شكا التجار أحيانا ــ فى (آبيا) ــ من أنهم لا يحظون بفرص مناسبة للاتجار ، قاسوا الأمرين من جراء هذه الشـــكوى ،

إذ كان « ووكر » لا يتردد ــ عندئذ ــ ولا يتورع عن اختلاق أية أكذوبة ظالمة لمعالجة الأمر ، فلا يلبث هؤلاء التجـــار أن يجدوا ألا سبيل لهم إلى أن يعيشوا فى سلام ، أو أن يكون لهم كيان ، إلا بأن يتقبلوا الموقف وأن يرتضوا ما يمليه هو من شروط . وكم من مرة شبت النار فى حانوت تاجر ممن كان يناصبهم العداء ، دون أن تكون هناك مرية فى أن (المـــأمور) هو المحرض على ذلك ! .. ولقد حدث مرة أن سويديا ــ من أم من بنات الجزيرة ــ حاق به الخراب بسبب الحريق ، فبادر بالذهاب إلى « ووكر » واتهمه جهارا بتدبير الحريق . فضحك ووكر ، وقال له : « أيها الكلب القذر ! .. لقد كانت أمك من الأهالى ، وها أنت ذا تحاول خداع الأهالى وغشهم . فاذا كان متجرك العتيق قد احترق فهذا من أحكام العنـــاية الالهية ! .. أجل إنه جزاء من القدر ، فاغرب عن وجهى ! » .. وأخذ (المأمور) يضحك ملء شدقيه ، بينما راح اثنـــان من الشرطة ــ من أهل الجزيرة ــ يخرجان التاجر ، وهـــو يردد : « إنه حكم العناية الالهية ! » .

❊ ❊ ❊

وأخذ ماكنتوش يراقب « ووكر » وهو يشرع فى عمل اليوم ــ فى ذلك الصباح ــ مبتدئا بالمرضى . إذ كان قد أضاف إلى نواحى نشاطه أمر علاج المرضى ، وأفرد غرفة صغيرة ــ خلف المكتب ــ ملأها بالأدوية والعقاقير .. وتقدم رجل مسن ، أشيب الشعر ، يرتدى ثوبا أزرق مخططا من « اللافا لافا » ، وقد تغضن جلده فأصبح كجلد القربة . فسأله ووكر : « لماذا

جئت ؟ » . . وبصوت خفيض واهن ، قال الرجل إنه لا يكاد يأكل حتى يلفظ ما أكل ، وأنه كان يشعر بالآلام هنا ، وهناك فى جسمه . . فقال ووكر : « اذهب إلى عيادة المبشرين ، فأنت تعلم أننى لا أعالج إلا الأطفال ! » . . فقـــال الرجـــل : « لقد ذهبت إلى الارساليات ، ولكنها لم تفدنى بشىء ! » . فقال ووكر : « إذن ، فاذهب إلى منزلك ، وتأهب للموت . . لقد عمرت طويلا ، فهل ما تزال ترجو أن تطول أيامك أكثـــر من هذا ؟ . . انك لغبى ! » .

واندفع الرجل فى احتجاج صاخب ، ولكن ووكر أشار إلى سيدة تحمل بين ذراعيها طفلا مريضا ، وطلب إليها أن تتقدم بالطفل إلى مكتبه ، ووجه إليهـــا بعض أسئلة ، ثم نظر إلى الطفل ، وقال : « سأعطيك دواء ! » . . ثم تحول إلى الكاتب — الذى كان خليطا من أب أبيض وأم من بنات الجزيرة — وقال : « اذهب إلى مخزن الأدويـــة فأحضر بعض حبـــوب الكالوميل » . وأغرى الطفل بابتلاع إحدى الحبوب ، ثم أعطى حبة أخرى إلى أمه وقال : « خـــذى الطفل واحرصى على تدفئته ، وسوف يتحسن غدا . . أو يموت ! » .

واضطجع فى مقعده ، وأشـــعل غليونه ، ثم قال : « إن الكالوميل عقار عجيب ، وقد أنقذت به حياة عدد من المرضى يفوق كثيرا عدد من أنقذهم أطباء مستشفى (آبيا) مجتمعين ! » . . كان ووكر مزهوا ببراعته ، وكان — بفضل ما يزينه له الجهل من غرور — لا يرضى عن أهل الطب ! . . ولم يلبث أن قال : « إن الحالة التى يحلو لى علاجها ، هى تلك التى

يعتقد الأطباء جميعا أنها ميئوس منها . فعندما يقول الأطباء إنهم لا يستطيعون علاجك ، أقول لهم : « تعالوا إلى ! » . . الم أحدثك يوما عن الشخص الـــذى أصيب بالسرطان ؟ » . فقال ماكنتوش : « كثيرا ! » .

— لقد عالجته فى ثلاثة أشهر .

— ولكنك لم تخبرنى عن الذين لم تشفهم !

وإذ انتهى ووكر من هذا الجزء من عمله ، تحول إلى بقيـــة الأعمال ، وكانت مزيجا عجيبا : فهذه امرأة لم تعـــد تستطيع العيش مع زوجها . . وهذا رجل يشكو من أن زوجتـــه قـــد هربت منـــه . . وقال ووكر : « يا له من كلب محظـــوظ ! . . إن أغلب الرجال يتمنون لو هربت زوجاتهم ! » .

وعرضت عليه قضية نزاع — طويل معقد — على ملكيـــة بضع ياردات من الأرض ، ونزاع على صيد الأسماك ، وشكوى ضد تاجـــر أبيض غش فى المكاييل . وكان ووكر يصـــغى بانتباه لكل قضية ، ثم يعمل فكره بسرعة ، ويصـــدر قرارا فيها . وما أن يصدر القرار حتى يرفض الاستماع إلى شىء بصدد القضية . فاذا استمر الشاكى فى عرض أمره ، تولى شرطى طرده من القاعة . وكان ماكنتوش يستمع إلى هذا كله بانفعال وغيظ صامت . كان من الجائز التسليم — بوجه عام — بأن هناك عدالة وإن كانت بدائية ، ولكن الأمر الذى أحنـــق المساعد هو : أن رئيسه كان يعتمد على سليقته أكثر من اعتماده على القرائن . ولم يكن يستـــمع إلى الحجج ، وهـــو ينتهر

الشهود عادة .. فاذا ما تبين أنهم لم يفهموا ما كان ينبغى أن يفهموه ، رماهم بأنهم لصوص وكاذبون !

وترك « ووكر » ــ إلى نهاية أعماله ــ طائفة من الرجال ــ كانوا يجلسون فى ركن من الغرفة ــ متعمدا أن يتجاهلهم . وكانت هذه الطائفة تضم شيخ إحدى القرى ــ وهو شخص متقدم فى السن ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ، ذو شعر أبيض ، وقد ارتدى ثوبا جديدا رسم على صدره شعار الوظيفة ــ ونجله . وستة من ذوى الشخصيات الهامة فى القرية . وكان ووكر قد ناصبهم العداء ، وانتصر عليهم ، فأخذ يتعمد إظهار انتصاره ــ كما هى شيمته ــ ويسعى إلى أن يفيد من ضعفهم بعد أن قهرهم . وكانت وقائع قضيتهم عجيبة . فقد كان لووكر ولع بشق الطرق . وعندما وفد على (تالوا) لم يكن فيها غير دروب قليلة ، متناثرة هنا وهناك . فلم يلبث ــ على مر الأيام ــ أن شق طرقا فى البلاد تربط القرى بعضها ببعض . ويرجع إلى هذه الطرق فضل كبير فى الرخاء الذى ساد الجزيرة . وبعد أن كان من المتعذر ــ فى الماضى ــ نقل المنتجات ، لا سيما جوز الهند ، إلى الشاطىء ، حيث يتسنى نقلها على السفن والزوارق البخارية إلى (آبيا)، أصبح هذا النقل ميسرا سهلا .

وكان الأمل الأكبر ، الذى يراود ووكر ، هو شق طريق حول الجزيرة ، وقد تم إنشاء جزء كبير منه فعلا . وكان لا يفتأ يقول : « سأنجزه فى عامين . ولن يهمنى ــ بعد ذلك ــ أن أموت ، أو أن أطرد من عملى ! » .

وكانت الفرحة تملأ قلبه بهذه الطرق التى شقها فى البلاد ، فلم يكن ينفك عن القيام برحلات لكى يطمئن إلى أنها مصونة .. وكانت طرقا بسيطة فى تكوينها .. دروبا واسعة مكسوة بالحشائش ، تتخلل الريف أو المزارع . غير أنه لم يكن ثمة بد من اقتلاع بعض الأشجار ، وحفر بعض الصخور أو نسفها ، وتمهيد التربة فى بعض الأنحاء . وكان ووكر يفخر بأنه تمكن بفضل مهارته من تذليل هذه الصعاب ، ويبتهج عندما يرى أن هذه الطرق لم تكن مجرد أسباب للتيسير ، وإنما كانت تكشف كذلك عن مفاتن الجزيرة التى أحبها . فاذا ما تكلم عن الطرق أوشك أن يصبح شاعرا .. ذلك لأنها كانت تمتد بين المناظر الجميلة . وقد عنى ووكر بأن يبسطها فى خط مستقيم ــ بين كل مسافة وأخرى ــ وبهذا تنجلى المروج الخضراء من خلال الأشجار الطويلة ، كما كانت تتخللها انحناءات وتعرجات لكى تستريح النفس لهذا الاختلاف والتنويع فى المناظر .. وكان من الغريب حقا أن يظهر الرجل الخشن البهيمى ، كل هذه البراعة فى تحقيق النتائج التى أوحى بها خياله إليه ، حتى لقد استخدم فى شق هذه الطرق ، كل ما يبذله البستانى اليابانى من عناية مشغوفة ، فى تنسيق حديقته .. وكان قد تلقى من المركز العام للإدارة ، اعتمادا ماليا للمشروع ، ولكنه كان يفخر بأنه لم ينفق غير جزء صغير منه ، فلم يتجاوز ما أنفق فى العام السابق غير مائة جنيه من الألف التى خصصت له !

وكان يقول مزمجرا : « فيم حاجتهم إلى المال ؟ .. إنهم سينفقونه فى جميع ألوان السفاسف التى لا حاجة لهم إليها

.. أو بعبارة أخرى ، سينفقونه فيما يتبقى فى الجزيرة من سلع بعد أن تستكفى الارساليات منها ! » . وقد نجح فى حمل الأهالى على تأدية أى عمل يريدهم على أدائه ، بأجور تكاد تكون اسمية . وما كان هذا لسبب معين ، اللهم إلا أن يكون من قبيل الزهو بقلة إنفاقه فى تحقيق أعماله الإدارية ، ورغبته فى إظهار براعته بالقياس إلى الأساليب العقيمة التى تتبعها السلطات فى (آبيا) .

***

ولكن هذا المسلك أدى به أخيرا إلى مواجهة بعض الصعاب مع القرية التى جاء زعماؤها — فى ذلك الصباح — لمقابلته . إذ كان ابن شيخ القرية قد قضى عاما فى (أوبولو) ، فلما عاد إلى قومه حكى لهم عن المبالغ الكبيرة التى تدفع فى (آبيا) فى مقابل الأعمال العامة .. ونجح على مر الأيام فى إلهاب نفوسهم وبث روح الكسب فى قلوبهم .. وراح يصور لهم الثراء الطائل، حتى أنهم أخذوا يفكرون فى « الويسكى » الذى سيغدو فى ميسورهم أن يشتروه .. إذ أنه كان غالى الثمن نظرا لأن القانون كان يحرم بيعه للأهالى . ومن ثم فقد كانوا يدفعون فيه ضعف ما يدفعه الرجل الأبيض !.. وأخذوا يتصورون كذلك ، الصناديق المصنوعة من خشب الصندل — والتى يحفظون فيها ثرواتهم — والصابون المعطر ، وسائر الكماليات التى يبذل أهل الجزيرة أرواحهم للحصول عليها . ولهذا فانهم — عندما استدعاهم المدير وانبأهم برغبته فى شق طريق من

قريتهم إلى نقطة على الشاطىء — طلبوا منه أن يدفع لهم مائة جنيه ! ..

وكان نجل شيخ القرية يدعى « مانوما » : طويل القامة ، جميل الطلعة ، نحاسى اللون ، له شعر صبغ باللون الأحمر ، وحول عنقه طاقة من زهر الكرز الأحمر ، ووراء أذنه زهرة كانت — بالنسبة لوجهه الأسمر — أشبه بجذوة قرمزية .. وكان نصفه الأعلى عاريا . ولكنه شاء أن يظهر أنه لم يعد همجيا — بعد أن قضى فترة فى آبيا — فارتدى السراويل بدلا من المئزر . وقد ألح على الأهالى بأن يتكاتفوا ، حتى يضطر المدير (المأمور) إلى قبول شروطهم . فلقد كان تواقا إلى شق هذا الطريق ، ومن ثم فانه سيضطر إلى الاستجابة لطلباتهم إذا أيقن من انهم لن يعملوا بأقل مما طلبوا .. وأهاب بهم ألا يتزحزحوا عن موقفهم مهما يقل لهم المدير، وإذا طلبوا مائة جنيه ، وجب عليهم أن يتمسكوا بكلمتهم !

وإذ ذكروا الرقم لووكر ، صاح مطلقا ضحكته الطويلة العميقة العالية ، ونصحهم بألا يكونوا أغبياء ، وأن يبدأوا العمل فورا . وكان فى ذلك اليوم فى خير حالاته ، فوعدهم بأن يقيم لهم وليمة بعد إتمام الطريق ، ولكنه لم يكد يتبين أنهم لم يبدوا أية محاولة للبدء فى العمل ، حتى ذهب إلى القرية ، فسألهم عن الحيلة الرعناء التى كانوا يلعبونها . وكان «مانوما» قد أعدهم للموقف ، فاعتصموا بالهدوء التام . ولم يحاولوا مجادلة ووكر — برغم أن أبناء عشيرة « الكاناكا » مغرمون بالجدال — وإنما اكتفوا بهز أكتافهم ، مرددين أنهم كانوا على

استعداد لأن يشقوا الطريق لقاء مائة جنيه ، ولن يقدموا على عمل ما إذا هو لم يدفعها ، وليفعل ما يشاء ، فقد وطنوا أنفسهم على ألا يحفلوا !

وعندئذ ثار غضب ووكر ، فأصبح قبيح الطلعة ، إذ اشتد تضخم عنقه المكتنز ، واشتد احتقان وجهه الأحمر ، وخرج الزبد من شدقيه ، وأخذ يصب جام غضبه على الأهالى .. وكان يعرف تماما كيف يجرح النفوس وكيف يذلها .. كان مرعبا ، حتى لقد شحبت وجوه المتقدمين فى السن ، وشعروا بالقلق ، وترددوا ، ولولا « مانوما » ومعرفته بالعالم الكبير — خارج جزيرتهم — وخوفهم من سخريته ، للانوا .. وكان مانوما هو الذى رد على ووكر بقوله : « ادفع لنا مائة جنيه ، نؤد لك العمل ! » . فهز ووكر قبضته فى وجه مانوما ، ونعته بكل صفة طرات على مخيلته ، وصب عليه وابلا من السخط ولكن مانوما ظل ساكنا، مبتسما . وكان فى ابتسامته من التظاهر بالشجاعة اكثر مما كان فيها من اعتداد بالنفس . فقد كان مضطرا إلى أن يظهر بمظهر طيب أمام الآخرين ، فكرر عبارته: « ادفع لنا مائة ، نؤد العمل ! » .

وظنوا أن ووكر سينقض على « مانوما » .. ولو أن هذا حدث لما كانت المرة الأولى التى يعتدى فيها على أحد الأهالى بيديه .. وكانوا يعرفون قوته ، فمع أنه كان يبلغ من العمر ثلاثة أمثال ما بلغه « مانوما » ، ومع أنه كان أقصر منه بشبر تقريبا ، إلا أنهم لم يرتابوا مطلقا فى أنه كان يفوق « مانوما »

قوة . فما خطر لأحد قط أن يقاوم العدوان الوحشى الذى كان بوسع المدير أن يشنه !

ولكن ووكر لم يقل شيئا ، وإنما سعل ليجلوا حلقه ، وقال لهم بعد برهة : « لن أضيع وقتى مع طائفة من الأغبياء ، فتشاوروا ثانية فى الأمر ، وأنتم تعرفون ما عرضته ، فاذا لم تبدأوا العمل فى خلال أسبوع ، فخذوا الحذر لأنفسكم ! » . واستدار فغادر كوخ شيخ القرية ، وفك رباط فرسه ، بعد أن كان من مظاهر العلاقات بينه وبين الأهالى أن يتقدم أحد شيوخهم فيقف ممسكا ركاب الفرس ، بينما يقف ووكر على بقعة عالية ويرفع نفسه ببطء إلى صهوة الجواد .

وفى الليلة ذاتها ، كان ووكر يتمشى كعادته فى الطريق الذى يمر بجوار داره ، وإذا به يسمع شيئا يمرق بجانبه ، ثم يرتطم بشجرة .. وكان جليا أن قذيفة ما قد وجهت إليه ، فدفعته غريزته إلى التنحى ، وصاح : « من هذا ؟ » . ثم جرى نحو المكان الذى انبعثت منه القذيفة ، فسمع صوت شخص يهرب خلال الشجر . وأدرك أن من العبث مطاردة هذا الشخص فى الظلام ، فضلا عن أن أنفاسه سرعان ما تهدجت ، فوقف . ثم عاد إلى الطريق ، وأخذ ينظر حوله ليعرف كنه الشىء الذى سدد إليه . ولكنه لم يعثر على شىء ، إذ كان الظلام دامسا . فرجع مسرعا إلى الدار ، ونادى ماكنتوش والخادم الصينى ، وقال لهما : « لقد رمانى أحد هؤلاء الشياطين بشىء ما ، فتعاليا معى لنبحث عنه ! » . وطلب من الصبى أن يحضر مصباحا .. واتجه ثلاثتهم إلى

مكان الحادث ، فأخذوا يبحثون . ولكنهم لم يجـدوا ما كانوا
ينشدون .. وما لبث الخادم أن صاح فجأة ، فالتفت إليـه
ووكر وماكنتوش. وإذ رفع المصباح إلى أعلى، ظهرت فى الضوء
ـ الذى شق الظلام المحيط بالمكان ـ سكين رهيبة الشكل ،
انغرست فى جذع شجرة من أشجار جوز الهند . وتبين أنهـا
رميت بقوة بالغة ، حتى لقد اقتضى نزعها من الجذع جهـدا
كبيرا !

وهتف ووكر : « يالله !.. لولا أنه أخطأنى ، لكنت الآن فى
حال بديعة ! » وأمسك بالسكين ، فاذا بها من تلك السكاكين
المصنوعة على نمط مدى الملاحين التى احضرها ـ منذ مائة
عام ـ أولئك الذين كانوا أول من ارتاد الجزيرة من البيض ..
وهى مدى كانت تستخدم فى شطر ثمرة « جوز الهنـد » إلى
نصفين ، لتجفيف لبها .. كما كانت سـلاحا قاتلا ، إذ كان
نصلها ـ الذى يبلغ اثنتى عشرة بوصة طولا ـ حادا جدا !..
واخذ ووكر يضحك بصوت خافت ، وقال : « ياله من شيطان !
.. ياله من شيطان غبى ! » .

ولم يداخله شك فى أن « مانوما » هو الذى رماه بهذه
السكين ، وقد نجا من الموت الذى لم يكن يبعد عنه بأكثر من
ثلاث بوصات .. ولم يغضب ، وإنما كان ـ على العكس من
هذا ـ فى خير حالات الحبور . والظاهر أن المغامرة أفعمت
قلبه سرورا ، حتى انه عندما عاد إلى المنزل ، طلب خمـرا ،
وأخذ يفرك يديه فى ابتهاج ، وهـو يقول : « سـوف أجعلهم
يدفعون ثمن هذا ! » .. وأخذت عيناه الصغيرتان تبرقان ،

وانتفش كالديك الرومى ، وأصر للمرة الثـانية ـ فى نصف
ساعة ـ على أن يروى لماكنتوش تفصيلات المسألة ، ثم طلب
منه أن يلعب الورق معه .. وظـل خـلال اللعب يتحـدث
ويتشدق بما سـوف يفعله . وكان ماكنتوش يصـغى إليـه
وشفتاه مغلقتان .

ولم يلبث ماكنتوش أن قال له : « ولكن .. لماذا تحـاول
أن تسحقهم بهذا الشكل ؟.. ان عشرين جنيها مبلغ زهيـد
جدا بالنسبة للعمل الذى تريد منهم أن يعملـوه ! » . فقال
« جدير بهم أن يشكروا لى أننى سأمنحهم أجرا ! » . فقال
ماكنتوش : « ولكنه ليس مالك ، فان الحكومة تخصص لك
مبلغا معقولا ، ولن تشكو إذا أنت أنفقته كله ! » . فقال ووكر :
« انهم عصبة من الأغبياء .. أولئك القوم فى آبيا ! » . وأيقن
ماكنتوش من أن الدافع لووكر كان مجرد الزهو والعجرفة ،
فهز كتفيه ، وقال : « لا يجدر بك أن تعادى هؤلاء القوم إلى
الحد الذى يكلفك حياتك ! » .

ـ الا فليباركك الله !.. انهم لن يؤذونى ، ولن يستطيعوا
الاستغناء عنى ، فهم يعبدوننى ، ومانوما غبى ، وما رمى
السكين إلا لمجرد إرهابى !

وذهب ووكر فى اليوم التالى إلى القرية مرة أخرى ..
وكانت تدعى (ماتوتو) . ولم يترجل عن جواده ، وإنما يمم
شطر كوخ شيخ القرية ، فرأى الرجال جالسين على الأرض
فى حلقة ، وهم يتحدثون . وحدس أنهم كانوا يعاودون بحث
مسألة الطريق .. وكانت الأكواخ فى جزر (ساموا) تبنى على

هذا النحو : تقام جذوع الأشجار الرفيعة فى حلقة على أبعاد تتراوح بين خمس أقدام وست ، ثم تقام شجرة طـويلة فى الوسط ، وينساب السقف من هــذه فى ميل . وتســتخدم أستار مصنوعة من الياف شجر جوز الهند ، فتســدل فى الليل او عند هطول المطر، وفيما عدا ذلك ، تكون الأكواخ ـ عادة ـ مفتوحة من جميع جوانبها ، حتى يتسنى للهواء أن يتخللها .

وتقــدم ووكر إلى حافة الكوخ ، ونادى الشـيخ قائلا : « اسمع ياتانجاتو » .. لقد ترك ابنك سكينه فى شـجرة ، فى الليلة الماضية ، وها أنذا أعيدها إليك ! » . والقى بالسكين على الأرض ـ وسط حلقة الرجال ـ ثم استدار بجواده وابتعد !

* * *

وخرج فى يوم الاثنين ليتبين ما إذا كانوا قد بدأوا العمل ، ولكنه لم ير ما يوحى بذلك ، فانطلق إلى القرية ، وإذا رجالها يقومون بأعمالهم اليومية : بعضهم ينسج الحصير من اليـاف الشجر ، ورجل مسن مقبل على احتساء شراب « الكافا » ، والأطفال يلعبون ، والنساء يؤدين أعمالهن المنزلية .. وتقـدم ووكر ـ والابتسامة على شفتيه ـ إلى دار الشيخ الذى قابله بالتحية فردها إليه . ورأى « مانوما » يصنع شبكة ، وقد جلس والسيجارة بين شفتيه .. وما أن رأى ووكر ، حتى تطلع إليه وعلى شفتيه ابتسامة الانتصار .

وقال ووكر : « هــل قررتم ألا تعملوا فى الطـريق ؟ » . فرد الشيخ قائلا : « ليس قبل أن تدفع مائة جنيه ! »



ورأى « مانوما » يصنع شبكة ، وقد جلس والسيجارة بين شفتيه ..

وإذ ذاك قال ووكر : « لسوف تندم على هـــذا ! » . ثم التفت إلى مانوما وقال : « وأنت أيها الصبى .. لن أعجب إذا ما رأيت ظهرك متقرحا من ضرب السياط ، قبل أن يطول بك العمر ! » . ولكز جواده مبتعدا . وهو يقهقه تاركا القوم فى قلق . فقد كانوا يرهبون هذا الكهل البدين الأثيم . ولم يفلح غضب الارساليات عليه ، ولا روح السخط التى تعلمها « مانوما « فى (آبيا) ، فى حملهـم على أن ينســوا أنه كان شيطانا ماكرا ، وأنه ما من شخص أساء إليه ، إلا وانتهى به الأمر إلى مكابدة الأمرين !

وقدر لهم أن يتبينوا — فى غضون أربع وعشرين ساعة — الخطة التى دبرها .. كانت خطة عجيبة !.. فما أن انبلج صباح اليوم التالى ، حتى وفد فريق كبير من الرجال والنساء والأطفال .. وقال زعماؤهم إنهم اتفقوا مع « ووكر » على شق الطريق ، وأنه عرض عليهم عشرين جنيها فقبلوها !.. أما موطن الخبث فى الخطة ، فيتجلى فى أن لعشائر « البولونيز » تقاليد فى الضيافة لها حكم القانون . فهناك تقليد صارم يقضى على أهل القرية بألا يكتفوا بإيواء الأغراب ، وإنما كان لزاما عليهم كذلك أن يزودوهم بالمأكل والمشرب طول فترة إقامتهم .. وهكذا تورط أهل (ماتوتو) ، ووقعوا فى الفخ !..

وأخذ العمال يخرجون فى كل صباح ، فى عصبة مرحـــة ، فيقطعون الأشجار ، وينسقون الصخور ، ويمهـــدون الأرض هنا وهناك ، ثم يعودون فى المســـاء إلى القـــرية ، فيأكلون ويشربون ، ويرقصون ويغنون الأناشيد ، ويتمتعون بالحياة !

.. كانت المسألة بالنسبة إليهم أشبه برحـلة للترويح . ولكن أهل القرية لم يلبثوا أن أظهروا التجهم والتبرم . فقـد كان الأغراب ذوى شهية نهمة .. وأخذت ثمار الفاكهة كالموز وغيره تختفى بفضل ضراوتهم فى الأكل . وتعـرت أشـجار الكمثرى التى كانت ثمارها ترسل عادة إلى (آبيا) لبيعها . وبدأ شبح الخراب يلوح أمام الأهالى الذين لاحظوا أيضا أن الغرباء كانوا يعملون فى بطء شديد .. فهل أوحى إليهم ووكر بأن يتلكأوا ؟.. لو أنهم استمروا على هذا البطء فلن تبقى فى القرية لقمة من طعام ، عندما تحين نهاية العمل فى الطريق ! .. والأنكى من ذلك أنهم أصبحوا أضحوكة . فما أن يذهب أحدهم إلى أية قرية بعيدة — فى مهمــة ما — حتى يجـد أن القصة قد سبقته ، فيقابل بالضحك والسخرية . وليس ثمة ما يضيق به أبناء عشيرة « الكاناكا » كالسخرية منهم ! ولم يطل الوقت حتى أخذ هؤلاء المنكوبون يتبادلون الحـديث فى غضب ، ولم يعد « مانوما » بطلا فاضطر إلى أن يصبر على ما كان يوجه إليه من حديث صريح . وقد وقع ذات يوم ما كان « ووكر » يرتقبه . إذ احتدم الجدال وتحول إلى شـجار ، فاندفع ستة من الشباب ، وهجموا على نجل شـيخ القرية ، وكالوا له من الضرب ما جعله يرقد أسبوعا على الحصير ، لا يستطيع حراكا من الجروح والكدمات التى أصابته .. وراح يتقلب من جنب إلى آخر ، دون أن يجد راحة فى التقلب !

وكان المدير يفد على فرسه — كل يوم أو يومين — ليراقب سير العمل فى شق الطريق . ولم يكن من الذين يستطيعون

مقاومة إغراء الشماتة فى عدو مهزوم ، فلم يترك فرصـــة إلا انتهزها ليذكر أهل « ماتوتو » بمرارة هوانهم . وبذلك حطم روحهم المعنوية . وفى صباح ذات يوم ، وضعوا كبرياءهم فى جيوبهم — وهذا تعبير على سبيل المجاز فقط ، إذ لم يكن لهم جيوب ما ! — وخرجوا مع الغرباء ، وشرعوا يعملون فى الطريق ، مدركين ما لإنجاز العمل بسرعة من أهميـــة ، إذا أرادوا أن ينقذوا ما كان لديهم من أغذية . وهكذا اشـــتركت القرية بأسرها فى العمل .. ولكنهم كانوا يعملون فى صـــمت ، بقلوب عامرة بالغضب والكمد .. وشاع هذا الصمت حتى شمل الأطفال أيضا . وكانت النسوة يبكين وهن ينقلن حزم الأعشاب . فلما رآهم ووكر ، ضحك ملء شدقيه ، حتى كاد يقع عن الجواد ! .. وسرعان ما انتشرت الأنباء ، فود أهل الجزيرة أن يموتوا خزيا !

وكانت هذه كبرى المهازل ، وتاج النصر لذلك الكهل الأبيض الماكر ، الذى لم يستطع أحد من « الكاناكا » أن يغلبه مرة ! .. وأخذ الناس يتوافدون من القرى البعيدة مصطحبين نساءهم وأطفالهم ، ليشهدوا أهل القرية الأغبيـــاء ، الذين رفضوا عشرين جنيها مقابل شق الطريق ، ثم اضطروا إلى العمل بلا مقابل ! .. وكلما زادوا من نشاطهم فى العمل ، وضاعفوا من جهودهم ، اشتد تباطؤ الضيوف . إذ لم يكن ثمة ما يدعو إلى التعجل ، ماداموا يحصلون على أغذية وافرة بلا مقابل !

* * *

وأخذت المهـزلة تزداد طرافة ، بازدياد الفترة التى كانوا يستغرقونها فى إنجاز العمل ، حتى لم يعد لـــدى القوم طاقة على الصبر ، فجاءوا — فى ذلك الصباح — ليلتمسوا من المدير أن يعيد الأغراب إلى ديارهم ، واعدين إياه بأن ينجزوا العمل فى شق الطريق بغير مقابل ! .. وكان هذا نصرا تاما — لا نزاع فيه — لووكر . فقد أذلهم !

وانتشرت على وجهه الكبير امارات غبطة متعجرفة ، وقبع فى مقعده وكأنه ضفدعة كبيرة ، وشاعت فى أساريره أمارات الشر — مما جعل ماكنتوش يرتعد اشمئزازا واستهجانا — ثم أخذ يتكلم بصوته العالى قائلا : « أترونني أشق هذا الطريق لمصلحتى ؟ .. ماذا تظنونني أفيد من ورائه ؟ .. إنما أصنعه لكم ، حتى تتمكنوا من السير فى راحة ، وحتى تنقلوا جـــوز الهند فى يسر . وقد عرضت أن أدفع لكم أجرا عن عملكم . مع أن الطريق يشق لمصلحتكم .. عرضت عليكم أجرا سخيا . وقد حق عليكم أن تدفعوا أنتم الآن .. سأعيد أهل (مانوا) إلى ديارهم إذا أنتم أتممتم الطريق ودفعتم العشرين جنيهـــا التى يجب أن أعطيهم إياها ! » .

وصدرت صيحة عالية من الرجال .. وحاولوا أن يتفاهموا معه ، ذاكرين أنهم لم يكونوا يملكون المبلغ . ولكنه قابل أقوالهم بالتهكم والتشفى . ثم دقت الساعة ، فقال : « لقد حان وقت الغداء .. فأخرجوهم من هنا ! » . ثم نهض بتثاقل وغادر الغرفة . وعندما لحق به ماكنتوش ، وجده قد جلس فعـــلا إلى المائدة ، وربط المنشفة حول عنقه ، وأمسك بالشـــوكة

والسكين استعدادا للطعام الذى كان الطاهى الصينى يوشك أن يحضره . وكان فى خير حالات الانشراح !

وعندما جلس ماكنتوش قال ووكر : « لقد قهرتهم بشكل جميل ، ولن أجد بعد ذلك صعوبة كبيرة فى إنشاء الطرق ! » . فقال ماكنتوش ببرود : « أعتقد أنك تمزح ! » . فهتف به ، « ماذا تعنى ؟ »

ــ ما أراك ستحملهم حقا على دفع العشرين جنيها !

ــ بل أراهن بحياتى على أننى سأحملهم على هذا !

ــ لست أرى أن هناك أى حق يخولك هذا .

ــ أحقا ؟!.. ولكنى أعتقد أن لى الحق فى أن أفعل أى شىء يروق لى فى هذه الجزيرة .

ــ أعتقد أنك قد ارهبتهم بما فيه الكفاية .

فقهقه ووكر ، ولم يأبه لما كان ماكنتوش يراه ، وإنما قال : « عندما أحتاج إلى رأيك سأطلب منك أن تدلى به ! » .

فشحب وجه ماكنتوش .. وكان يعرف بالتجربة المريرة انه لا يملك سوى التزام الصمت ، وقد أدى به ما بذله من مجهود عنيف فى ضبط أعصابه ، إلى الشعور بالتوعك ، وبأنه مشرف على الاغماء ، فلم يستطع أن يأكل كل الطعام الذى كان أمامه . وأخذ ينظر فى اشمئزاز إلى ووكر وهو يلقى بقطع اللحم فى فمه الواسع .. كان قذرا فى طريقة أكله ، وكان الجلوس معه على مائدة واحدة يتطلب معدة قوية . وارتجف

ماكنتوش ، وتملكته رغبة جامحة فى تحقير هذا الرجل الضخم القاسى .. وود لو استطاع أن يبذل أى شىء فى العالم كى يراه متمرغا فى التراب ، يقاسى بقدر ما كان يحمل سواه على أن يقاسوا !.. أبدا ما شعر ماكنتوش بالكراهية نحو هذا الثور بقدر ما شعر إذ ذاك !

وأخذ اليوم يولى .. وحاول ماكنتوش النوم بعد الغداء ، ولكن الانفعالات التى أحس بها فى فؤاده منعته من ذلك . وحاول أن يقرأ ، ولكن الحروف والكلمات كانت تتراقص أمام عينيه . وكانت الشمس ترسل أشعتها فى قسوة ، فتاق إلى المطر ، وإن أدرك أن المطر لن يأتى معه بشىء من البرودة ، وإنما كان خليقا بأن يزيد الجو حرارة ويفعمه بالرطوبة . ولقد كان من أهل (ابردين) ، ولهذا هفا قلبه فجأة إلى الرياح المثلجة التى تصفر خلال الشوارع الجرانيتية فى هذه المدينة . أما هنا ــ فى هذه الجزيرة ــ فقد كان أسيرا .. لم يسجنه البحر وحده ، وإنما كان حبيس كراهيته لهذا الكهل الفظيع كذلك !

وأخذ ماكنتوش يضغط رأسه المصدوع .. وود لو استطاع أن يقتل ذلك الرجل . ولكنه استطاع أن يتمالك نفسه ، ورأى أن عليه أن يفعل شيئا ليبعد عقله عن التفكير فى هذه الناحية . وإذ لم يستطع القراءة ، فكر فى ترتيب أوراقه وتنظيمها . وهى مهمة فكر فى القيام بها منذ فترة ، ولكنه كان يرجئها باستمرار . وفتح درج مكتبه فأخرج حزمة من الرسائل .. ووقع نظره على مسدسه ، فأومضت فى رأسه فكرة سرعان ما تلاشت .. تلك هى أن يطلق رصاصة على رأس ووكر ،

لينجو من ذلك القيد غير المحتمل فى الحيـاة !.. ولاحظ أن بالمسدس شيئا من الصدأ بسبب رطوبة الجو ، فأخذ ينظفه.. وفيما كان منهمكا فى هذا ، أشتد به شعور بأن هنـاك من كان يتلصص حول الباب ، فرفع رأسه وصاح : « من هناك ؟ » : ومضت برهة ، ثم ظهر مانوما فقال له : « ماذا تريد ؟ » .

ووقف نجل الشيخ برهة فى صمت ، فلما تكلم كان صوته مختنقا .. وقال : « ليس بوسعنا أن ندفع عشرين جنيها ، إذ أننا لا نملك المبلغ ! » . فقال ماكنتوش : « وماذا أملك أن أفعل ؟.. لقد سمعت ما قاله المستر ووكر ! » . وأخذ مانوما يرجو ويستعطف فى كلمات نصفها بلغة أهل (ساموا) ، ونصفها الآخر بالإنجليزية ، وكلها رجاء واستعطاف ، وكأنها أنشودة شحاذ ، مما ملأ قلب ماكنتوش بالاشمئزاز . فقد أحنقه أن يرى الشاب يسمح لسواه بأن يسحق بهذا الشكل ، وأن يصبح « شيئا » يدعو إلى الرثاء !

وقال ماكنتوش أخيرا : « لا أستطيع عمل شىء ، فأنت تعرف أن المستر ووكر هو السيد هنا ! » . فعاود مانوما صمته ، وظل واقفا عند الباب . وأخيرا قال : « اننى مريض ، فأعطنى بعض الدواء ! » .

ـــ وماذا بك ؟

ـــ لا أعلم .. اننى مريض ، وأشعر بالآلام فى كل جسمى .

ـــ لا تقف هناك .. تعال ودعنى أراك !

فدخل مانوما الغرفة ، ووقف قبل أن يصل إلى المكتب ،

وقال : « أشعر بالألم هنا .. وهنا » . ووضـع يديه على ردفيه ووجهه . وارتسمت على وجهه معالم الألم . وفجأة ، شعر ماكنتوش بأن عينى الفتى كانتا مصوبتين إلى المسدس الذى كان قد وضعه على المكتب عندما ظهر مانوما عند الباب. وساد الصمت بين الرجلين ، وخيل لماكنتوش أنه صـمت لا ينتهى .. وتراءى له أنه يقرأ الأفكار التى كانت تتردد فى عقل الفتى ، فراح قلبه يدق بعنف .. ثم شعر بأن شيئا ما قـد تملكه ، فأصبح يتصرف تحت دفع إرادة أجنبية عنـه ، ولم يعد هو الذى يوجه حركات جسمه ، وإنما كانت تحركه قـوة غريبة عليه !.. وأحس بأن حلقه قد جف فجأة ، فوضع يـده عليه بحركة آلية ، ليتمكن من الكلام . واضطر إلى تجنب عينى مانوما .. وقال فى صوت كأنه خارج من حنجرة قبض على قصبتها الهوائية شخص ما : « انتظر هنا ، وسوف أحضر لك شيئا من الصيدلية ! » .

ونهض .. أفكان وهما أن أحس بأنه يترنح ؟. ووقف مانوما فى صمت ، ومع أن ماكنتوش كان محولا عينيه عن مانوما ، فانه أحس بأن الفتى كان يتطلع فى بلاهة إلى الباب . وكان الشخص الآخر الذى تقمص ماكنتوش هو الذى راح يدفعه إلى خارج الغرفة ، ولكنه كان هو نفسه الذى أخذ حفنة من الأوراق المتناثرة ، والقاها على المسدس ليخفيه عن البصر ، قبل أن يذهب إلى الصيدلية ، فيأخذ منها قرصـا من دواء ، ويصب سائلا أزرق اللون فى زجاجة .. ثم خرج إلى الفناء . ولم يشأ أن يعود إلى مسكنه ، ولهذا نادى مانوما ، وأعطاه الدواء وزوده بالتعليمات الخاصـة بتعاطيه .. ولم يـدر ما

الذى جعل من المستحيل عليه أن ينظر إلى مانوما ، فقد ظل — وهو يحدثه — مثبتا عينيه صوب كتفى الفتى . وأخذ مانوما الدواء وتسلل من الباب .

ودخل ماكنتوش إلى غرفة الطعام ، وعاد يقلب الصحف القديمة ، ولكنه لم يستطع القراءة .. كان السكون مخيما على المنزل ، وكان ووكر نائما فى غرفته فى الطابق الأعلى ، والطاهى الصينى مشغولا فى مطبخه ، والشرطيان يصطادان السمك . وخيل إليه أن السكون الذى خيم على المنزل كان سكونا غير طبيعى .. وكان التساؤل عما إذا كان المسدس ما يزال فى المكان الذى تركه فيه يطرق رأسه كالمطرقة !.. ولم يستطع أن يحمل نفسه على التحقق من ذلك .. كان عدم التأكد فظيعا، ولكن التأكد كان أفظع . وأخذ العرق يتصبب منه .. ولم يستطع فى النهاية احتمال هذا السكون ، فاستقر رأيه على أن يخرج إلى الطريق ، ويذهب إلى التاجر : وكان رجلا يدعى جرفيس ، يمتلك متجرا على حوالى ميل . وكان خليطا — من أب ابيض وأم من الأهالى — ولكن هذا القدر من الدم الأبيض الذى يجرى فى عروقه ، جعل تبادل الحديث معه أمرا محتملا .. ولقد كان ماكنتوش تواقا إلى الابتعاد عن مسكنه ، وعن مكتبه الذى تناثرت فوقه الأوراق ، وتحتها شىء ما ، أو .. لا شىء ؟!

ومشى فى الطريق ، وكلما مر بكوخ أحد الزعماء ، تصاعدت إليه التحيات . وأخيرا وصل إلى المتجر ، فاذا ابنة التاجر تجلس وراء منضدة البيع .. وكانت فتاة سمراء ، ذات قسمات عريضة ، وقد ارتدت سترة وردية اللون ، «وجونلة»

بيضاء . وكان أبوها « جرفيس » يأمل أن يوفق إلى تزويجها ، فقد كان يملك مالا . وقد قال لماكنتوش أن من يتزوجها يصبح فى سعة !

* * *

وعندما رأت ماكنتوش يدخل المتجر ، تضرج وجهها هونا ما ، وقالت : « إن أبى يفض بعض الصناديق التى وصلت هذا الصباح ، وسوف أبلغه أنك هنا ! » . فجلس ، بينما ذهبت الفتاة إلى ما وراء المتجر . وإن هى إلا برهة حتى دلفت أم الفتاة إلى الحانوت . وكانت سيدة ضخمة الجثة ، تحب السيطرة وتتمتع بقدر كبير منها . وكانت بدانتها الفظيعة تبديها بمظهر مستهجن ، ولكنها استطاعت أن توقع فى نفس رائيها وقارا . فكانت تظهر الود فى غير تذلل ، وتظهر التواضع وهى تشعر بمركزها .

ومدت يدها إلى ماكنتوش وقالت : « ما أغربك يا مستر ماكنتوش !.. لقد كانت تريزا تسألنى فى هذا الصباح بالذات عنك ، قائلة : لماذا لم نعد نرى المستر ماكنتوش ! » . وشعر برجفة خفيفة إذ تصور نفسه زوجا لابنة هذه السيدة الوطنية العجوز . فقد كان المعروف عنها أنها تتحكم فى زوجها برغم دمه الأبيض ، وتقبض عليه بيد من حديد . فكانت السلطة سلطتها، وكانت هى الرأس المفكر المدبر للعمل .. وقد لا تكون أكثر من المسز جرفيس فى نظر البيض ، ولكن والدها كان زعيما من الدم الملكى ، وقد كان أبوه وجده يحكمان كملكين!

وأقبل التاجر وكان يبدو ضئيلا بجوار زوجتـــه .. كان رجلا أسمر ، ذا لحية سوداء أخذ المشيب يدب فيها ، وعينين جميلتين ، وأسنان ناصعة البياض . وكان بريطانيا قحا ، كما كانت لغته إنجليزية عامية . ولـــكنك تشـــعر بأنه يتـــكلم بالإنجليزية كلغة أجنبية ، إذ كان يتكلم مع أسرته بلغة أمه التى كانت من أهل الجزيرة .. وكانت تبدو عليه علامات الخضوع والخوف والذلة . وقد رحب بماكنتوش قائلا : « آه يا مستر ماكنتوش ، انها لمفاجأة مبهجة حقا !.. أحضرى لنا الويسكى يا تريزا ، فلسوف يتناول المستر ماكنتوش جرعة معنا ! » .

وأخذ يروى جميع أخبار (آبيا) ويرقب عينى الضـــيف فى الوقت ذاته ، ليعرف الحديث الذى يروق له . وما لبث أن سأله : « وكيف حال ووكر ؟.. اننا لم نره فى الأيام الأخيرة ، وسوف ترسل له المسز جرفيس خنزيرا رضيعا فى يوم ما . خلال هذا الأسبوع ! » . وقالت تريزا : « لقد رأيته عائدا على جواده هذا الصباح » . وقدم جرفيس الويسكى لماكنتوش ، فشرب هذا كأسه ، بينما جلست السـيدتان تتأملانه : الأم هادئة متشامخة ـــ فى ثوبها الأسود ـــ وتريزا تحاول أن تبتسم كلما وقعت عينها على عينه .. بينما كان التاجر يثرثر دون أن يتعب !

وقال جرفيس : « يقولون فى آبيا إن الوقت قد اقترب لكى يعتزل ووكر الخدمة ، إذ أنه لم يعد صغير السن ، وقد تغيرت الأحوال منذ حضوره إلى هذه الجزر ولكنه لم يتغير معها ! » . وقالت الرئيسة العجـــوز : « إنه يتمادى .. والأهالى غير

راضين ! » . فضحك التاجر قائلا : « لكم كانت مسألة الطريق مضحكة . وعندما رويتها للقوم فى (آبيا) قهقهوا جميعا حتى كادت جنوبهم أن تنفجر .. يا لووكر الكهل ! » .

فنظر إليه ماكنتوش بحدة ، وحار فى تعرف ما كان التاجر يعنيه بكلامه عن ووكر بهذه الطريقة . فقد كان ووكر بالنسبة لتاجر من أم من الأهالى « مستر ووكر » . وكان ماكنتوش على وشك أن يوجه لوما مقذعا من جراء هذه القحة . ولكنه لم يعرف ما الذى منعه !

وقال جرفيس : « آمل أن تحل محله يا مستر ماكنتوش إذا ما ذهب . فأنت تفهم الأهالى ، وقد أصـبحوا متعلمين ، ولا بد من معاملتهم بطريقة تختلف عن ذى قبـــل .. إن الحاجة تدعو الآن إلى مدير متعلم ، ولم يكن ووكر غير تاجر مثلى ! » . فلمعت عينا تريزا ، بينما تابع والدها الحديث قائلا : « وثق أنه لو كان هناك أى شىء يمكن الإنسان هنا أن يفعله ـــ عندما يحين الوقت ـــ فسوف نفعله . وسأجمع كل الزعماء ، ونذهب إلى آبيا لنقدم التماسا ! » .

وشعر ماكنتوش بغثيان شديد ، فما سبق له أن فكر فى أنه قد يخلف ووكر إذا حدث لهذا المدير شىء ، وإن لم يكن ثمـــة شخص ـــ فى مركزه الرسمى ـــ يعرف الجزيرة كما كان يعرفها هو . فنهض فجأة ، وخرج عائدا إلى الدار ، دون أن يحيى مضيفيه تقريبا . فلما بلغها ، قصد إلى غرفته رأسا ، وألقى نظرة خاطفة على مكتبه ، ثم نبش ما عليـــه من أوراق ونقب خلالها وتحتها ..

ولم يكن المسدس موجودا !.. ودق قلبه بعنف ، حتى كاد يخرج من بين ضلوعه . وأخذ يبحث عن المسدس فى كل مكان، ففتش المقاعد والأدراج . وكان يبحث بيأس ، إذ كان يوقن من أنه لن يجده !.. وفيما كان كذلك ، سمع صوت ووكر الجهورى الخشن ، يسأله قائلا : « ماذا تفعل يا ماك ، بحق الشيطان ؟ » . فجفل ماكنتوش إذ وجد ووكر واقفا بالباب ، وتحول بغريزته ليخفى الأشياء الملقاة على مكتبه . بينما قال ووكر فى حيرة : « هل ترتب أشياءك ؟.. لقد طلبت إسراج الفرس فى المركبة ، إذ أننى ذاهب إلى (تافونى) للاستحمام ويحسن بك أن تأتى أنت كذلك ! » .

ووافق ماكنتوش ، فما كان من المحتمل أن يقع لووكر شىء طالما كان هو معه . وكان المكان الذى يقصدان إليه يبعد نحو ثلاثة أميال ، وفيه بركة من الماء العذب يفصلها عن البحر حاجز رقيق من الصخر ، كان المدير قد نسفه لكى يتيح للأهالى منطقة للاستحمام .. وقد فعل مثل هذا فى مناطق كثيرة حول الجزيرة ، لا سيما فى البقاع التى كانت تجرى فيها جداول .. وكان الماء العذب يبدو باردا منعشا ، إذا قورن بماء البحر الدافىء اللزج !

وسارا فى الطريق المعشوشب الساكن . وكانت المركبة تمر بين الحين والآخر فى مخاضة من المخاضات الكثيرة التى شق البحر طريقه إليها بين القرى . وكانت الأكواخ المبنية على شكل الأجراس متناثرة على أبعاد متسقة وفى وسطها الكنيسة البيضاء الصغيرة . وعندما وصلا إلى القرية الثالثة ، ترجلا من

المركبة وأوثقا الفرس ، ومشيا إلى البركة . ورافقتهما أربع فتيات أو خمس ، ونحو ستة من الأطفال . وسرعان ما كان الجميع فى الماء يلعبون ويتصايحون ويتضاحكون ، بينما أخذ ووكر يسبح رائحا غاديا — وكأنه خنزير بحرى ضخم — وهو يداعب الفتيات بفجور ، فيغطس تحت الماء ، ويحاولن الإفلات كلما حاول الإمساك بهن .. حتى إذا تعب ، جلس على صخرة، فسرعان ما تلتف الفتيات والأطفال حوله ، وكأنهم أفراد أسرة سعيدة . وكان الكهل يبدو بضخامته وهلال الشعر الأبيض الذى فى مؤخرة رأسه ، وصلعته اللامعة ، كإله من آلهة البحر .. ولقد فاجأه ما كنتوش مرة وفى عينيه نظرة رقيقة غريبة ، وما لبث أن قال : « انهم أطفال أعزاء ، ينظرون إلى كما لو أننى كنت أباهم ! » .

وتحول إلى إحدى الفتيات فأبدى لها ملاحظة بذيئة أسلمت الجميع إلى نوبات من الضحك . وأخذ ماكنتوش يرتدى ملابسه ، فبدا بساقيه الرفيعتين وذراعيه النحيلتين ، هيكلا مضحكا ، أشبه بدون كيشوت ، مما جعل ووكر يطلق عليه دعابات قاسية قوبلت بضحكات مكتومة . وأخذ ماكنتوش يناضل كى يرتدى قميصه ، وهو يعرف أنه يبدو فى مظهر مضحك .. وكان يكره أن يكون موضع سخرية ، فوقف يحملق فى صمت !.. وما لبث أن قال لووكر : « إذا شئت أن تعود فى موعد العشاء ، فعليك بالتعجيل ! » .

— إنك لست فتى شريرا يا ماكنتوش ، وإنما أنت غبى .. فبينما تكون منهمكا فى عمل ، إذا بك تريد أن تعمل شيئا آخر . وليست هذه بالطريقة المثلى للحياة !

ولكنه ــ مع هذا ــ نهض ببطء ، واستوى على قدميه . وأخذ فى ارتداء ملابسه . ثم عادا إلى القرية وشربا قدحا من « الكافا » مع زعيمها . وما لبثا أن عادا بالعربة إلى دارهما بعد وداع مرح من جميع القرويين الكسالى . حتى إذا فرغا من تناول طعام العشاء ، أشعل ووكر سيجارا ، واستعد كعادته للخروج فى جولة . وما أن لاحظ ماكنتوش هذا ، حتى تملكه الخوف فجأة ، وقال : « ألا ترى أنه ليس من الحكمة أن نخرج الآن فى الليل وحدك ! » .

فاستدار ووكر وتفرس فى وجهه بعينيه الزرقاوين المستديرتين وقال : « ماذا تعنى بحق الشيطان ؟ » .

ــ تذكر حادث السكين منذ ليال ، لا سيما بعد أن أثرت فى هؤلاء الناس واغضبتهم !

ــ إنهم لا يجرؤون على شىء البتة !

ــ لقد تجرأ أحدهم من قبل . .

ــ كان ذلك من قبيل الارهاب ، ولكنهم لن يؤذونى ، فهم ينظرون إلى كأنى والدهم ، ويعرفون أن كل ما افعله لمصلحتهم . وكان ماكنتوش يراقبه ويشعر نحوه باشمئزاز ، وقد غاظه اعتداد الرجل بنفسه . ومع هذا ، فقد كان هناك شىء ــ لم يدرى كنهه ــ يدفعه إلى الإلحاح . فقال : « تذكر ما حدث صباح اليوم ! . . إنك لن تضار إذا بقيت فى البيت الليلة فقط ، وسوف ألعب الورق معك ! » .

ــ سألعب معك عندما أعود . . لم يخلق بعد بين هؤلاء الأهالى من يستطيع أن يحملنى على تغيير خططى !

ــ إذن يحسن أن تدعنى أذهب معك .

ــ بل ابق حيث أنت !

فهز ماكنتوش كتفيه ، إذ أنه أنذر الرجل إنذارا تاما . فاذا كان قد اغفله فهذا شأنه . ووضع ووكر القبعة على رأسه وخرج . وبدأ ما كنتوش يقرأ ، ولكنه رأى فجأة أنه قد يكون من الخير أن يثبت وجوده فى ذلك المكان . فنهض ودخل المطبخ منتحلا ذريعة لدخوله ، وظل يتحدث بضع دقائق مع الطاهى ، ثم أخرج « الجراموفون » ووضع أسطوانة عليه . . وبينما كانت نغمات الأغنية اللندنية المرحة تتردد ، كانت أذنه مرهفة لسماع صوت فى وسط هذا الليل . . وظلت الأسطوانة تدور عند كتفيه ، ونغماتها تعلو فى صوت أجش . ومع ذلك فقد خيل إليه انه محاط بصمت شيطانى . وكان يسمع هدير الأمواج الرتيب الممل على الشاطىء ، وتأوهات النسيم تنبعث من بين أوراق شجر جوز الهند العالية . . فإلى متى يطول هذا ؟ . . يا له من شىء رهيب !

وسمع قهقهة خشنة ، وصوت ووكر يقول : « ان العجائب لا تنقطع ، فليس من عادتك أن تسمع أسطوانات يا ماكنتوش ! » . . وكان ووكر يقف فى باب الشرفة ، ووجهه أحمر يشيع منه السرور . ومضى يقول : « ها أنتذا ترانى حيا . ولكن . . لماذا كنت تدير الجراموفون ؟ » . ودخل إلى القاعة ، وهو يقول :



وسمع قهقهة خشنة ، وصوت ووكر يقول : « ان العجائب لا تنقطع ، فليس من عادتك أن تسمع أسطوانات يا ماكنتوش ! »

« هل أعصابك متوترة ، فأدرت الجراموفون لتروح عن نفسك ؟ » .

ــ لقد كنت أسمع لحن جنازتك !

ــ وما هو بحق الشيطان ؟

ــ إنها أغنية : «نصف من البيرة المرة وقدح من الاستاوت» !

ــ إنها أغنية جميلة ، لا أمل سماعها فى أغلب الأوقات . والآن .. اننى على استعداد لأن أستولى على نقودك فى لعب الورق !

ولعب الاثنان ، وشق ووكر طريقه إلى الربح بالخداع والتهريج والسخرية من أخطاء ماكنتوش ، والمراوغة والتهويش .. وأخيرا ، استعاد ماكنتوش رباطة جأشه ، واستطاع أن يشعر بتسرية إذ راح يراقب هذا الكهل المتغطرس .. وكان يعلم أن « مانوما » يجلس فى مكان ما ، يتحين فرصته !

***

وظل ووكر يربح اللعبة بعد الأخرى . وفى النهاية ، وضع ما كسبه فى جيبه وهو جذل فرحان ، وقال لماكنتوش : « يجب أن تكبر سنا قبل أن تستطيع مجاراتى فى اللعب يا ماك ، لأنى فى الواقع موهوب بالسليقة فى لعب الورق ! » .

ــ لا أعرف أن من المواهب أن يأتى إليك الورق جزافا !

— الأوراق الرابحة تأتى للاعب الماهر ، ومع هذا فقد كان فى استطاعتى أن أكسب لو لعبت بورقك !

وأخذ يروى قصصا طويلة عن مختلف المناسبات التى لعب فيها الورق مع لاعبين مشهورين بإتقانهم للعب وتوسلهم بالاحتيال والنصب ، فكانت النتيجة أنه أخذ منهم كل أموالهم . وظل يفخر ويزهو ويمدح نفسه ، وكان ماكنتوش يصغى باهتمام ، لأنه يريد أن يغذى كراهيته له ، فكانت كل كلمة يقولها ووكر وكل إيماءة منه تزيد فى بغضه له . وأخيرا نهض ووكر وتثاءب بصوت عال ، وقال : « سأذهب للنوم لأن أمامى يوما طويلا غدا ! » .

— ما الذى ستفعله ؟

— سأذهب إلى الجانب الآخر من الجزيرة . ولذلك فسأخرج فى الساعة الخامسة صباحا ، ولا ينتظر أن أعود فى موعد العشاء ، بل سأعود فى ساعة متأخرة !

وكانا يتناولان طعام العشاء عادة فى الساعة السابعة مساء .

فقال ماكنتوش : « فليكن العشاء فى الساعة السابعة والنصف ! » .

— أظنه موعدا مناسبا .

وراقبه ماكنتوش وهو ينفض بقايا التبغ من غليونه ، فإذا حركاته خشنة وحيويته طاغية . وكان من الغريب حقا التفكير

فى أن الموت مسلط فوق رأسه .. وما لبثت أن لمعت فى عينى ماكنتوش الباردتين الكئيبتين ابتسامة باهتة ، وقال : « هل تحب أن آتى معك ؟ » .

— لماذا بالله أحب ذلك ؟.. إننى سأستخدم الفرس ، ويكفيها أن تحملنى ، وهى لا تود أن تجرك فى طريق طوله ثلاثون ميلا !

— لعلك لا تدرك تماما ما هو الشعور السائد فى (ماتوتو) . وأعتقد انه من الخير أن أذهب معك !

فانفجر ووكر ضاحكا فى استهتار ، وقال : « إنك لخليق بأن تكون ذا نفع كبير فى أى مأزق . أما أنا فلست أجيد إطلاق الساقين للريح ! » وهنا انسابت الابتسامة من عينى ماكنتوش إلى شفتيه ، فإذا بهما تختلجان بشدة . وقال باللاتينية : « من أراد الله أن يقضى عليه ، بعث الغرور فى نفسه ! » . فتساءل ووكر : « ما هذا بحق الجحيم ؟ » ، فأجاب ماكنتوش وهو يغادر المكان : « عبارة لاتينية ! » .

وأخذ يضحك فيما بينه وبين نفسه ، وقد تغير مزاجه . لقد بذل كل ما كان فى وسعه ، وأصبحت المسألة — بعد هذا — فى يد القدر !

ونام ماكنتوش فى هذه الليلة نوما عميقا لم يستمتع به منذ أسابيع . وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى خرج إلى الفضاء . وشعر بعد هذه الليلة الطيبة ببهجة كبيرة لبرودة هواء الصباح الباكر . وتراءى له البحر أكثر زرقة ، والسماء أكثر صفاء منها فى أغلب الأيام ، والريح رطبة . وكانت ثمة

قشعريرة تسرى فى سطح البركة كلما مس النسيم ماءها ، فبدت كمخمل جرت عليه الفرشاة فى اتجاه عكسى . وشعر بنفسه أقوى وأكثر شبابا من ذى قبل . ولهذا بدأ عمله اليومى بحمية ونشاط . وعاد إلى النوم بعد الغداء . فلما كان الأصيل ، أسرج الجواد ، وقام بجولة خلال الشجيرات . وخيل إليه أنه يراها بعينين جديدتين . وشعر بأنه فى حال طبيعية أكثر من ذى قبل ، وإن كان الغريب فى الأمر أنه استطاع أن يقصى ووكر عن تفكيره ، كأنما لا وجود له فى حياته!

وعاد فى أواخر الأصيل ، وهو يشعر بالحرارة بعد هذه النزهة بالجواد ، فدخل الحمام مرة أخرى ، ثم جلس فى الشرفة يدخن غليونه ، ويرقب النهار وهو يتراجع ويختفى وراء البحيرة .. كانت البحيرة تبدو جميلة للغاية فى وقت الغروب ، بفضل ما كان يضفيه عليها الغروب من ألوان وردية وقرمزية وخضراء . وشعر بالهدوء ، واطمأن ، وارتاح للعالم ولنفسه . وعندما جاء الطاهى يعلن أن طعام العشاء قد أعد ، ويسأله عما إذا كان يرجىء إعداد المائدة ، ابتسم له ماكنتوش بود ، ثم نظر إلى ساعته وقال : « إنها الآن السابعة والنصف : فلا داعى للانتظار ، إذ ليس بوسع أحد أن يحدس متى يحضر الرئيس » . فأومأ الطاهى برأسه . ورآه ماكنتوش يجتاز الفناء حاملا وعاء مملوءا بالحساء ، يتصاعد منه البخار . فقام بتكاسل ، وذهب إلى غرفة الطعام ، وتناول عشاءه .

ترى هل وقع الحادث ؟.. كان عدم التأكد مثيرا للاهتمام ، فأخذ ماكنتوش يضحك فى نفسه فى صمت ، لا سيما وأن

الطعام لم يبد رتيبا كالعادة . ومع أنه كان يضم قطعا من السجق ـ وهو صنف يلجأ الطاهى إلى تقديمه عندما تخونه قوة الابتكار ـ إلا أن السجق لاح ـ فى هذه المرة ـ لذيذا ، طريا ، حريفا !.. حتى إذا انتهى من تناول العشاء نهض ومشى يتهادى إلى كوخه ليحضر كتابا ، وقد أحب الهدوء الشامل ، لا سيما وقد أخذ الليل يخيم ، وبدأت النجوم تتألق فى السماء .. وصاح يطلب مصباحا ، فلم تمض لحظة حتى جاء الصينى يدب على قدميه الحافيتين . وتبدد الظلام بالنور الذى ترامى من المصباح الذى حمله .

ووضع الخادم المصباح على المكتب ، وتسلل بغير صوت خارجا من الغرفة . وإذا بماكنتوش يقف فجأة وكأنه تسمر فى مكانه ، فقد رأى بين الأوراق المتناثرة مسدسه . فأخذ قلبه ينبض فى ألم ، وتصبب العرق منه .. إذن فقد وقعت الواقعة !

والتقط المسدس بيد مرتعشة ، فرأى أن أربعة خزانات من خزانات رصاصه فارغة . ووقف فترة لا ينبس ببنت شفة ، ثم وجه بصره فى شك إلى الليل البهيم ، ولكنه لم ير أحدا . فأسرع ووضع أربع رصاصات فى الخزانات الفارغة ، ودس المسدس فى درج مكتبه ، وجلس ينتظر !.. ومرت ساعة ، ثم أخرى ، دون أن يحدث شىء . وجلس إلى مكتبه وكأنه يكتب ، ولكنه لم يكتب ولم يقرأ ، وإنما ظل ينصت وقد أرهف أذنيه لعله يسمع صوتا آتيا من بعيد . وأخيرا سمع

وقع خطوات مترددة ، فعرف أن صاحبها هو الطاهى الصينى، فناداه : « آه سونج ! » .

وجاء الخادم فوقف لدى الباب ، وقال : « لقد تأخر الرئيس كثيرا، وأصبح الطعام غير ملائم !» . فتفرس ماكنتوش فيه ، وساءل نفسه : أترى الطاهى يعرف ما حدث ؟.. وهل سيدرك — عندما يعرف — نوع العلاقة التى كانت بينه وبين ووكر ؟.. ولكن الطاهى الصينى كان يعمل فى صمت وخفة ، والابتسامة مرتسمه على شفتيه . فمنذا الذى يستطيع أن يجزم بما يدور فى خلده ؟

وقال ماكنتوش أخيرا : « أعتقد أنه تناول العشاء فى الطريق، ولكن عليك أن تحتفظ بالحساء ساخنا ، على أية حال ! » .

* * *

وما ان انتهى ماكنتوش من قوله هذا ، حتى انقطع حبل الصمت المخيم ، إذ سمعت أصوات مرتبكة ، وصيحات ، ووقع خطوات سريعة لأقدام عارية . ودخل لفيف من الأهالى إلى الفناء — رجالا ونساء وأطفالا — فازدحموا حول ماكنتوش، وتحدثوا جميعا فى وقت واحد . فكان حديثهم غير مفهوم .. كانوا مهتاجين ومذعورين .. وكان بعضهم يبكى !.. فشق ماكنتوش طريقا وسطهم ، وذهب إلى الباب . ومع أنه لم يفهم كلام الأهالى ، إلا أنه كان يعرف تماما ما حدث . وما أن وصل إلى الباب ، حتى وصلت — فى الوقت ذاته — مركبة جلس فيها شخصان يحاولان أن يحملا ووكر . وقد أحاط بالمركبة

بعض الأهالى ، كما كان أحدهم يمسك بمقود فرس «ووكر» . واقتيدت الفرس إلى الفناء ، وجرى الأهالى وراءها ، فصاح بهم ماكنتوش ليوقفهم . وظهر الشرطيان فجأة ، ولا يعلم إلا الله من أين أتيا ، وأخذا يدفعان الأهالى بعنف ويبعدانهم .

وفهم ماكنتوش من الأحاديث المختلطة أن بعض الصبية كانوا يصيدون السمك ، وبينما هم فى طريق عودتهم إلى قريتهم ، التقوا بالمركبة ، وكانت الفرس ترعى . ولم يستطيعوا أن يتبينوا فى الظلام غير جسد المدير الضخم المتشح بالبياض غارقا بين المقعد ومقدمة المركبة ، فظنوا فى بداية الأمر أنه مخمور ، فأخذوا ينظرون بحزن ، ولكنهم سمعوه يئن ، فاعتقدوا أن فى الأمر شيئا . وهرولوا إلى القرية طالبين النجدة، وعندما عادوا ومعهم نحو خمسين شخصا ، اكتشفوا أن ووكر مصاب بالرصاص !

وتملكت ماكنتوش موجة من الرعب فجأة ، وساءل نفسه : هل مات الرجل ؟ . ولكن ، كان لا بد من نقله من المركبة قبل كل شىء . وكان الأمر عسيرا ، نظرا لضخامة « ووكر » . وقد اقتضى رفعه من المركبة تعاون أربعة رجال أقوياء . وعندما اهتز جسده ، أطلق صرخة مكتومة ، فعرف الجميع أنه لم يزل حيا . فحملوه ودخلوا به المنزل وصعدوا إلى الطابق الأعلى ، حيث وضعوه فى الفراش ، وهنا تمكن ماكنتوش من رؤيته ، فقد كان كل شىء يبدو غير واضح فى الفناء الذى لم يكن مضاء بغير ستة من المصابيح التى تستخدم فى الأماكن الخلوية .. وكانت ثياب ووكر البيضاء ملطخة بالدماء ، وقد

أخذ الرجال الذين حملوه يفركون أيديهم ليزيلوا ما لصق بهـا من دماء لزجة ، يمسحونها فى مآزرهم .

ورفع ماكنتوش المصباح .. أبدا لم يتوقع أن يرى ووكر فى مثل هذا الشحوب .. وكانت عينـاه مغلقتين ، ولكنه كان يتنفس ، كما كان نبضه محسوسا ، وإن تجلى أنه كان يعالج سكرات الموت !.. واستولى الرعب على ماكنتوش . ورأى الكاتب ــ الذى كان من أبناء الجزيرة ــ فطلب بصوت أحاله الذعر أجش ، أن يذهب إلى الصيدلية ويأتى بمعدات الحقن .. وأحضر أحد الشرطيين زجاجة من الويسكى ، فصب ماكنتوش قليلا منها فى فم الكهل ..

وكانت الغرفة مزدحمة بالأهالى الذين جلسوا على الأرض فى هلع ، لا ينبسون ببنت شفة ، وإن راح يصدر من أحدهم ــ بين الحين والآخر ــ عويل مرتفع . واشتدت حرارة الجو ، ولكن ماكنتوش شعر بالبرد ، فاذا يداه وقدماه باردة كالثلج .. وراح يبذل مجهودا عنيفا ، لكى لا تدب القشعريرة فى جميع مفاصله . ولم يكن يدرى ماذا يفعل ، لا ولا كان يعرف ما إذا كانت الدماء ما تزال تنساب من ووكر ، وإذا كانت كذلك فانه لم يكن يدرى كيف يوقف النزيف !

وأحضر الكاتب إبرة الحقن ، فقال له ماكنتوش : « احقنه أنت ، فانك أكثر منى مرانا على هذا العمل ! » . وراح يعانى من دق عنيف فى رأسه ، وكأن أشياء ضارية تجاهد محاولة الخروج من يافوخه . وأخذ الجميع يرقبون أثر الحقنة ..

ولم يلبث ووكر أن فتح عينيه فى بطء .. ولاح أنه لم يعرف أين كان !.. وقال ماكنتوش : « الزم الهدوء ، فانت الآن فى دارك ، وفى أمان تام ! » فارتسم على شفتى ووكر شبح ابتسامة ، وقال فى همس : « لقد ظفروا بى ! » .

ــ سأحمل جرفيس على إرسال زورقه البخارى إلى (آبيا) فى الحال ، ولن ينتصف النهار غدا حتى يكون الطبيب قد حضر .

وسادت فترة صمت طويلة ، أجاب بعدها الكهل : « سأكون قد مت عندئذ ! » . وتبدى الجزع على وجه ماكنتوش الشاحب ، ولكنه تظاهر بالضحك وقال : « ما هذا الهراء ؟.. التزم الهدوء ، وسوف تتحسن سريعا ! » .

ــ أعطنى شرابا !.. جرعة قوية !

فصب ماكنتوش ــ بيد مرتعشة ــ قدرا من الويسكى ، ومثله من الماء ، وظل ممسكا بالكأس بينما راح ووكر يشرب بلهفة . والظاهر أن الجرعة أنعشته ، فأطلق زفرة طويلة ، وبدأ شىء من الحمرة يدب فى وجهه المكتنز الضخم . وشعر ماكنتوش بانه عديم الحيلة إلى أبعد حد ، فوقف وأخذ يحملق فى الكهل . ثم قال : «لو أنك أبلغتنى ما ينبغى أن أفعل لفعلته !»

ــ ليس هناك ما يعمل غير أن تدعنى وشأنى .. فقد انتهيت !

وكان منظره يدعو إلى الشفقة ، وهو مسجى على الفراش الكبير بجسده الضخم المترهل ، وقد بدا شاحب اللون ، ضعيفا إلى حد تدمى له القلوب . وعندما استراح ، ظهر أن

عقله قد صحا إلى حد ما ، إذ قال : « لقد كنت على حق يا ماك إذ حذرتنى ! » .

— ألا ليتنى ذهبت معك !

— إنك فتى طيب يا ماك ، وعيبك الوحيد هو أنك لا تشرب الخمر !

وسادت فترة أخرى طويلة من الصمت ، ثم اتضح أن ووكر كان يحتضر من جراء نزيف داخلى . ولم يصعب على ماكنتوش برغم جهله أن يدرك أنه لم يبق فى عمر رئيسه أكثر من ساعة أو ساعتين ، فوقف بجوار الفراش جامدا ، دون حراك . وظل ووكر نحو نصف ساعة راقدا ، مغلق العينين . وأخيرا فتحهما، وقال ببطء : « سيمنحونك منصبى ، وقد قلت لهم فى المرة الأخيرة — التى ذهبت فيها إلى آبيا — إنك صالح .. فأتمم الطريق الذى بدأته ، فاننى أحب أن أتصور أنه سينتهى بأكمله، ويدور حول الجزيرة ! » .

— لست أريد منصبك ، ولسوف تتحسن حالك !

فهز ووكر رأسه فى عناء وقال : « اننى أخذت نصيبى .. عاملهم برفق ، فان هـذا أمر مهم .. إنهم أطفال ، ويجب أن تذكر هذا على الدوام !.. يجب أن تكون حازما معهم ، ولكن من الواجب أن تكون رفيقا بهم ، وأن تكون عادلا كذلك! .. اننى لم أجن من ورائهم بنسا واحدا ، ولم أقتصد مائة جنيه فى العشرين عاما التى قضيناها فى خدمتهم !.. إن الطريق شىء عظيم ، فأتممه ! » .

وصدر عن ماكنتوش ما يشبه التنهد ، بينما واصل ووكر حديثه : « إنك فتى طيب يا ماكنتوش ، وقد احببتك على الدوام ! » . وأغلق عينيه فظن ماكنتوش أنه لن يفتحهما بعد ذلك . وكان يشعر بجفاف فى فمه ، حتى انه تاق إلى أى شراب .. ووضع الطاهى الصينى مقعدا له فى هدوء ، فجلس بجوار الفراش وانتظر .. ولم يدر كم من الوقت انقضى عليه فى هذه الجلسة ، وكأنما لم تكن لليل نهاية .. وفجأة ، أصيب أحد الجالسين بنوبة من التشنج لم يستطع لها كبتا ، فأخذ يجهش بالبكاء بصوت عال وكأنه طفل . وعندئذ فطن ماكنتوش إلى أن الغرفة كانت مزدحمة بالأهالى ، وقد جلسوا جميعا متربعين على الأرض — رجالا ونساء — يحملقون فى الفراش . فصاح : « ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا ؟.. ليس هذا من حقهم ، فأخرجوهم !.. أخرجوهم ! »

والظاهر أن هذه الكلمات أيقظت ووكر ، إذ فتح عينيه مرة أخرى ، وأراد أن يتكلم .. ولكنه كان ضعيفا ، حتى لقد اضطر ماكنتوش إلى أن يرهف أذنيه ليلتقط ما كان يقول : « دعهم يمكثوا !.. انهم أبنائى ، وينبغى أن يكونوا هنا ! » .

فاستدار ماكنتوش إلى الأهالى وقال : « امكثوا .. فهو يريد ذلك ... ولكن اجلسوا فى صمت ! » .. وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه ووكر ، وهمس : « اقترب منى ! » . فمال ماكنتوش عليه .. وكانت عينا الرجل مغلقتين ، والكلمات تخرج منه وكأنها تنهدات الريح خلال أشجار جوز الهند !.. وقال : « أعطنى جرعة أخرى من الشراب ، فان

لدى ما أريد أن أقوله ! » . فأعطاه جرعة من الويسكى لم يخففها بالماء .. واستجمع ووكر قواه ، وبذل فى ذلك آخر مجهود فى جعبة إرادته ، ثم قال :

ــ لا تحدث ضجة من أجل حادثتى هذه ، ففى عام ١٨٩٥ ــ عندما قامت الاضطرابات ، واغتيل البيض ــ جاء الأسطول وضرب القرى بالقنابل ، فقتل كثيرون ممن لم يكن لهم ناقة ولا جمل فى الأمر .. ان رجال الحكم فى (آبيا) أغبياء ، وإذا أقدموا على شىء ، فسوف لا ينزل عقابهم بغير الأبرياء .. لست أريد معاقبة أحد ؟

وسكت برهة ليستريح ثم قال : « يجب أن تقول انها حادث لا يلام أحد عليه .. عدنى أن تفعل هذا ! » .

ــ سأفعل كل ما تريد !

ــ يا لك من فتى طيب .. أنت من خير الناس .. وهم أطفال ، وأنا أبوهم ، والأب لا يدع أطفاله يقعون فى المآزق إذا وسعه ذلك !

وصدرت من حلقه ما يشبه الضحكة وقال : « إنك رجل متدين يا ماك ، فما رأيك فى الصفح عنهم ؟ » .

وظل ماكنتوش برهة لا يحير جوابا ، وشفتاه ترتجفان .. وأخيرا قال :

ــ هل يغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما يصنعون ؟

ــ أجل .. فليغفر لهم ! لقد أحببتهم ... وكنت ــ كما تعلم ــ أحبهم على الدوام !

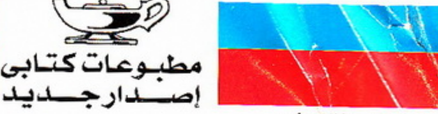
وتنهد .. وراحت شفتاه تتحركان ببطء ، مما اضطر ماكنتوش إلى وضع أذنه على مقربة منهما ، لكى يستطيع السمع .. وكان ووكر يقول : « أمسك يدى ! » . فشهق ماكنتوش ، وخيل إليه أن قلبه كاد يتوقف .. وأمسك بيد الكهل ، فاذا هى باردة وضعيفة وخشنة .. وظل ممسكا بها، إلى أن قفز فجأة من مقعده ، عندما سمع حشرجة طويلة .. وكانت حشرجة مخيفة ، رهيبة !.. ثم مات ووكر !

وأخذ الأهالى يصرخون بأصوات عالية ، والدموع تجرى على خدودهم . وراحوا يضربون صدورهم بأيديهم .

وخلص ماكنتوش يده من يد الرجل الميت ، وسار مترنحا ــ وكأنه مخمور ــ حتى خرج من الغرفة ، فسعى إلى الدرج المغلق فى مكتبه ، وأخذ منه المسدس . وقصد نحو البحر ــ ثم سار إلى البركة ، وأخذ يخوض الماء فى أناة وحذر ، حتى لا يتعثر فى صخرة مستترة . وظل هكذا إلى أن بلغت المياه إبطيه . وإذ ذاك وقف ، وأخرج المسدس ، وأطلق رصاصة على رأسه !

وبعد نحو ساعة ، كانت أسماك القرش السمراء تتخبط وتتقاتل فى البقعة التى سقط فيها !

« تمت »

عزيزى القارئ :

يضم هذا الكتاب ثلاثًا من قصص مؤلفها الروائى العالمى « سومرست موم » ، نشر كلاً منها فى مجموعة من مجموعات قصصه القصيرة : فالقصة الأولى مأخوذة من مجموعته التى أطلق عليها (AH KING) .. والقصة الثانية من مجموعته التى أطلق عليها (THE GASUARINA TREE).. أما القصة الثالثة فمأخوذة من مجموعة ثالثة أطلق عليها مؤلفها عنوان (THE TREMBLING OF A LEAF)

وسوف ترى حين تقرأ القصص الثلاث ، كيف برع مؤلفها « موم » فى اختيار الخاتمة لكل منها : ففى القصة الأولى نرى كيف أحاطت الزوجة المفتونة بالفتى العفيف ، وضيقت عليه الخناق ، فلم يكن أمامه سوى أن يستسلم !.. وفى القصة الثانية نرى البطل جبانًا خسيسًا يتسامح ويتستر على من غدر به .. وفى القصة الثالثة نرى بطل القصة ماكنتوش يوقن من أن الشخص الثانى فى القصة ، وهو المدعو ووكر ، سيقتل فى ليلة معينة ، فيعمد إلى إثبات وجوده فى داره : بأن يدير لحنًا على الجراموفون ، حتى إذا ما قتل ووكر أخيرًا ، يتوقع القارئ أن يغتبط ماكنتوش لتخلصه من رئيسه الفظ المغرور ، لاسيما وأنه سيخلفه فى منصبه ، ولكن ..

لكنى لن أفسد عليك الخاتمة التى ابتكرها (موم) لهذه القصة !

ولن أتركك بعيدًا عن هذه القصص الثلاث أكثر من ذلك ، فلأتركك كى تشرع فى قراءتها واحدة بعد الأخرى .

حلمى مراد